كمال اللغة القرآنية

بين حقائق الإعجاز و أوهام الخصوم

نظرات
فيما أثير من
شبهات و أوهام



د/ محمد محمد داود

عميد معهد
معلمى القرآن الكريم
بالقاهرة
والخبير بمجمع اللغة العربية
«القاهرة»

دار المنار

كمال اللُّغة القرآنية

بين حقائق الإعجاز وأوهام الخصوم

نظرات فيما أُثير من شبهات و أوهام

الطبعة الثانية

د/محمد محمد داود
عميد معهد معلمي القرآن الكريم بالقاهرة
والخبير بمجمع اللغة العربية

دار المنار
للطبع و النشر و التوزيع
٩ ش حسن العدوى - ميدان الحسين - مصر
ت: ٢٥٩١٥٠٨٥ فاكس: ٠٧٤٦٤٦
ص.ب: ٦١ هليوبوليس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾ (يونس: ٣٧).

﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ
مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ (الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥).

﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾
(فصلت: ٤٢).

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾
(الصف: ٨).

مقدمة

هذه دراسة لا تفكِّر في أن تفرض نفسها كنوع من العقيدة، نقبله بعيون مغمضة وبغير نقاش؛ فالقرآن الكريم نفسه هو الذي أدان الإكراه على الإيمان والعقائد: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ (البقرة:٢٥٦).

ذلك لأن الإكراه على الإيمان لا يصنع الإنسان المؤمن، فالإيمان لا يُفْرَض من الخارج، وكم أدان القرآن الكريم كلَّ اتِّباع أعمى يُلقِي بزمامه إلى سلطة لا تستند إلى العقل أو إلى العلم، قال الله ﷻ:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾ (البقرة: ١٧٠).

إننا فى هذه الدراسة لا ندافع ولا نهاجم وإنَّما نبيِّن الحق والصواب ؛ لأن بيانه أمانة في أعناق أهل العلم.

وسبيلنا في هذا البيان أن نقارع حُجَّة بِحُجَّة ورأيًا برأي، فالآراء يقدح بعضها بعضًا. ملتزمين في كل ذلك بهدي القرآن الكريم في أدب الحوار مع المخالف بالجدال بالتي هي أحسن.

وما أروع هذه العظمة وهذا التسامي، بإتاحة الفرصة كاملة للعقل كي يتأمل ويتدبَّر، دون أرضية مُبَيَّتة بافتعال المواقف أو تشويه الصورة أو إلصاق العيب بالمخالف زورًا وبهتانًا.

وإنَّما هي الرغبة في الحق، والحق وحده، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟! ذلك الذي دعا إليه القرآن الكريم في حوار المخالفين وجدالهم، قال اللَّه تعالى:

﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ: ٢٤).

أسأل اللَّه تبارك وتعالى أن يهدينا جميعًا إلى الحق والصواب، إنه وليُّ ذلك والقادر عليه،وصلِّ ربِّ وسلِّم على من أرسلته رحمة للعالمين، ونزَّلتَ عليه القرآنَ بلسان عربيٍّ مبين، والحمد للَّه ربِّ العالمين.

د/ محمد محمد داود

ليلة الجمعة ١٥ من رمضان ١٤٢٨ هـ

الموافق ٢٧ من سبتمبر ٢٠٠٧م

ت: ٠٢/٣٧٧٤١١٨٨

E.mail: dr.mohameddawood@yahoo.com

تمهيد :

الحرب على القرآن

• تاريخ الحرب على القرآن :

- الحرب على القرآن الكريم قديمة حديثة، بدأت منذ البواكير الأولى لنزول القرآن الكريم، واندلعت نارها مع أول مجابهة مع الوثنية، وسجَّل القرآن الكريم الجولة الأولى من هذه الحرب على القرآن الكريم وقت نزوله. وسيأتي بيانها في مواضع من هذه الدراسة.

- واستمرت المعركة تشتد حينًا وتهدأ حينًا آخر، ومن الهجمات الشرسة التي تعرَّض لها القرآن الكريم زمن الحروب الصليبية تأليف بعض المستشرقين كتابًا بعنوان: دحض القرآن الكريم، كما قاموا بترجمة ألفاظ القرآن الكريم **(وليس معانيه)** إلى اللغة اللاتينية كمدخل إلى التحريف والتشويه. وماتت كل هذه الجهود وبقي القرآن الكريم مصونًا محفوظًا عن كل سوء.

- والهجمة المعاصرة على القرآن الكريم أشدُّ ضراوةً من كلِّ ما سبق؛ وذلك من خلال الفضائيات ومواقع الإنترنت، بل قامت أمريكا بتأليف قرآن مزعوم تحت عنوان "الفرقان الحق". والمدهش في كل هذا أن القرآن الكريم هو الذي انتصر فكريًّا؛ لأن البَوْن شاسع بين كلام اللّه الذي جعله اللّه هداية ورحمة وطمأنينة لمن لاذ وآمن به، وبين تخريف البشر وزيفهم.

وسيظل الصراع دائرًا بين الخير والشر.. بين الحق والباطل.. وتلك سُنَّة اللَّه في خلقه.

- وكان للعلماء في كل عصر جهد مشكور في دفع هذه الشبهات ودحض هذه الافتراءات، من أبرزها:

○ كتاب (الرد على ابن الراوندي الملحد) للجاحظ (ت ٢٥٥هـ).

○ كتاب (مشكل القرآن) لابن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ).

○ كتابا (التمهيد، إعجاز القرآن) لأبي بكر الباقلاني (ت ٤٠٣هـ).

○ كتاب (تنزيه القرآن عن المطاعن) للقاضي عبد الجبار (ت٤١٥هـ).

○ كتاب (حقائق الإسلام وأباطيل خصومه) لعباس محمود العقاد.

○ كتاب (شبهات حول الإسلام) لمحمد قطب.

وغير هذه الكتب كثير، بالإضافة إلى ما تعرَّض له المفسِّرون في كتب التفسير، وبخاصة:

○ معاني القرآن للفرَّاء (ت ٢٠٧هـ).

○ الكشاف للزمخشري (ت ٥٣٨هـ).

○ التفسير الكبير ومفاتيح الغيب للفخر الرازي (ت ٦٠٤هـ).

○ روح المعاني للألوسي (ت ١٢٧٠هـ).

○ تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور.

○ تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) لمحمد رشيد رضا.

○ مناهل العرفان في علوم القرآن للزرقاني.

وكذا كتب إعراب القرآن الكريم قديمًا وحديثًا، ومن أبرز هذه الكتب:

- معاني القرآن وإعرابه للزجاج (ت ٣١١هـ).
- إعراب القرآن للنحاس (ت ٣٣٨هـ).
- التبيان في إعراب القرآن للعكبري (ت ٦١٨هـ).
- إعراب القرآن الكريم لمحيي الدين الدرويش . . . إلخ.

وأكثر المطاعن التي تُوجَّه للقرآن اليوم مأخوذة من هذه الكتب ونحوها، غاية ما في الأمر أنهم نقلوا الشبهة وأغفلوا الردّ عليها، مع المبالغة والتنويع في عرض الشبهة حتى تعود الشبهة الواحدة إلى عشرات الصياغات؛ فيُهَيَّأ لك أنك أمام عشرات الشبهات وليس أمام شبهة واحدة.

بل زادوا فوق إثارة الشبهات والافتراءات كَيْلَ التُّهم للقرآن ولنبي القرآن سيدنا محمد ﷺ وللمسلمين.

وبطبيعة الحال فإن التهم والشتائم ليست شبهات، والإعراض عنها خير دواء لها.

لماذا الهجوم على القرآن ؟

هناك دوافع كثيرة للهجوم على القرآن، يمكن إجمالها في دافعين:

● **دافع نفسي**: تزييف الحقائق وتحريفها تعبيرًا عن الإخفاق والعجز عن مواجهتها؛ فالعجز عن مواجهة الخصم يتحول - في الأعم الأغلب - إلى الافتراء عليه.

كما أن التلبس بالصفات السلبية دافع لوصف الآخرين بها درءًا للاتهام، وهو ما يعرف عند علماء النفس بالإسقاط، حيث إن الإسقاط حيلة من الحيل الدفاعية التي يلجأ إليها الفرد للتخلص من تأثير التوتر الناشئ في داخله؛ ذلك أن الغلبة إنَّما تكون للفكر الأقوى، والإسلام - كما يشهد الواقع - عقيدة وأخلاقًا هو الأقوى؛ فقوته ليست من قوة أتباعه كما في العقائد الأخرى، ولكن قوته ذاتية تتأتى من داخله؛ لأنه الحق، لأنه الخير، لأنه السلام والأمن.. لأنه الصلة الحقيقية التي لم تتعرض لزيف أو تحريف أو تشويه.

ومن هنا كان إخفاق الغرب على المستوى الفكري المعرفي - على الرغم من تفوقه سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا - دافعًا إلى الخروج عن العقلانية والحوار المنصف، واللجوء إلى القوة وإلى التشويه والإفساد ظلمًا وعدوانًا.

● **دافع معرفي**: وهو إخفاق الغرب في مواجهة الإسلام فكريًا على الرغم من هزيمة المسلمين سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا في الوقت المعاصر؛ فالافتراء على القرآن والطعن فيه في القرون الوسطى جاء نتيجة لإخفاق الكنيسة في مواجهة الإسلام عقائديًا؛ حيث تتهاوى عقيدة التثليث أمام عقيدة الوحدانية للَّه تعالى، يضاف

إلى هذا انعزال الكنيسة عن الحياة، في مقابل أن الإسلام دين ودنيا، فلم يكن أمام الكنيسة من سبيل لصدِّ النصارى عن الدخول في الإسلام سوى تشويه رسالة الإسلام.

ولا يزال الغرب حتى الآن يمارس فكرة إقصاء ونبذ الآخر، بمواصلة الطعن في القرآن وفي نبوة النبي محمد ﷺ، في الوقت نفسه ينعت الإسلام بأنه هو الذي يمارس إقصاء الآخر.

فالكنيسة لا تعترف بالإسلام دينًا، ولا بمحمد ﷺ نبيًا، ولا بالقرآن كتابًا مقدسًا؛ فالقرآن عندهم أكذوبة واختراع محمدي، أو هو إرث يهودي أو نصراني، ومحمد ﷺ نفسه وَهْمٌ تاريخيٌّ، والصحابة متوحشون، والمسلمون برابرة ومصاصو دماء وهمج... مع علمهم - بل يقينهم - بأن الإسلام احتوى الآخر واعترف به، بل لا يتم الإيمان للمسلم إلا بالإيمان بجميع الرسل والأنبياء والكتب السماوية التي أنزلها اللَّه على أنبيائه صلوات اللَّه وسلامه عليهم أجمعين.

● وهناك مواقف لا تحصى لتأكيد أن علاقة الإسلام بالآخر تقوم على السماحة والعدالة واحترام حقوقه.

من ذلك أن القرآن الكريم أكد أن اختلاف الدين لا يجوز أن يكون مدعاة للظلم أو التغابن، وأنه إذا كانت هنالك أطراف معادية وبيننا وبينها خصام، فذلك كله يجب إبعاده عن مقتضيات العدالة، قال تعالى:

﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة:٨).

ولطالما احتكم مسلمون وغير مسلمين إلى القضاء الإسلامي؛ فكانت العدالة تفرض نفسها دون تفرقة بين الأطراف المتنازعة، يشهد لذلك عشرات المواقف العملية في تاريخ الحضارة الإسلامية، ومن ذلك ما سجَّله التاريخ عن عمرو بن العاص ﷺ عندما كان واليًا على مصر في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ﷺ واشتبك ابن عمرو مع أحد المصريين، وأغراه سلطان أبيه فضرب الرجل، ومصر يومئذٍ حديثة عهد بالفتح، وكان المنتظَر أن يستكين المضروب لابن القائد الفاتح الذي هزم أكبر دولة في الأرض، لكن المجني عليه كان يأنس العدالة في الإسلام وحكمه، فأقسم ليبلغنَّ شكواه إلى أمير المؤمنين عمر ﷺ، لكن الولد الذي ضربه وجد في هذا حماقة فقال له: افعل، فلن تضيرني شكواك، أنا ابن الأكْرَمَيْن!

وبينما كان عمر بن الخطاب بين خاصَّته وعمرو بن العاص وابنه في مجلسه، والمدينة غاصَّة بالوفود في موسم الحج، تقدَّم المصري المظلوم وقال لعمر: يا أمير المؤمنين، إن هذا - وأشار إلى ابن عمرو - ضربني ظلمًا، ولما توعدته بالشكوى إليك قال: افعل، فلن تضيرني شكواك، أنا ابن الأكرمين!

فنظر عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص نظرة استنكار وقال له هذه الكلمة العظيمة: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!" . ثم توجه إلى الشاكي وناوله سوطه وقال له: اضرب ابن الأكرمين كما ضربك!

لقد أنصف سيدنا عمر ﷺ الإسلام بهذا الحكم.

الفكر الاستشراقي والهجمة على القرآن:

لعلَّ من الإنصاف الذي أرساه القرآن أن نعلن أن المستشرقين ليسوا سواءً، فمنهم من وقف على الحق وأنصفه، ومنهم من أساء واعتدى. وإن كنا نخص بالعرض هنا نماذج أساءت واعتدت، فإننا سنعرض في مواضع أخرى من الكتاب نماذج مشرقة عرفت الحق وأنصفتْهُ حتى وإن لم تؤمن به.

ومن الفكر الاستشراقي الذي أسهم في الهجمة على القرآن الكريم من خلال الدراسات القرآنية هذه النماذج التي يظهر من عرضها حجم العداء للقرآن:

١) كتاب تيودور نولدكه: (تاريخ القرآن) Geschichte des Qorans، وهو من أهمِّ الكتب التي ألَّفها المستشرقون في تاريخ القرآن الكريم، وقد تأثر به وبنتائجه من جاء بعده، وأصبح هذا الكتاب إنجيل المستشرقين في مرجعية الدراسات القرآنية[١].

٢) كتاب جولدتسيهر بعنوان[٢]:

Die Richtungen der Islamtschen Koranauslegnug

٣) كتاب جون وانسبرو بعنوان:

Quranic studies: Sources and methods of scriptural Interpretation.

---

(١) ترجم الكتاب إلى العربية.

(٢) ترجم الكتاب إلى العربية بواسطة د. عبد الحليم النجار، تحت عنوان (مذاهب التفسير الإسلامي).

دراسات قرآنية: مصادر الكتب المقدسة وطرق تفسيرها.

ويُعَدُّ هذا الكتاب من أخطر كتبه؛ حيث تأثر به جانب كبير ممن جاءوا بعده في البحث القرآني أو التاريخ الإسلامي عامة.

ومزاعم وانسبرو التي أثارها في كتابه تهاوت أمام الدراسة العلمية التي قام بها الباحث: سعد بن عبد اللّٰه بن عبد العزيز الرشيد التي تحمل عنوان "كتابات إسلامية من مكة المكرمة"، حيث برهن الباحث على أن النقوش القرآنية التي وجدت مكتوبة على الصخور بمكة المكرمة تثبت بشكل قطعي فساد نظرية وانسبرو التي تزعم أن القرآن الكريم لم ينتج بمكة.

٤) كتاب دون ريتشاردسون بعنوان: (٢٠٠٣): Secrets of the Koran أسرارالقرآن" .

والكتاب يخلط بين الدراسات القرآنية والسياسية.

٥) كتاب نيل روبنسون بعنوان:

Discovering the qura'n: A contemporarg Approach to a veiled text. اكتشاف القرآن: مقاربة معاصرة لنص محجب

٦) كتاب كريستوف لوكسنبورج بعنوان:

Die syrŏaramaische Lesart Des Koran , Ein Beitrag zur Entschlusselung der Qur'an sprache.

قراءة سريانية - آرامية للقرآن: مساهمة في تحليل لغة القرآن.

وكريستوف هنا - في الأعمِّ الأغلب - اسم مستعار أو وهمي، وهي ظاهرة شاعت في السنوات الأخيرة في الهجوم على القرآن

والإسلام؛ وربما كان مردُّها إلى الخوف على المؤلف الحقيقي من رد الفعل الإسلامي ضد المتطاولين على القرآن.

٧) كتاب ابن وراق بعنوان:

لماذا أنا لست مسلمًا ؟ Why I am not a muslim ?

ويقدم الكتاب نقدًا لاذعًا وقويًا ضد الإسلام في منهجيَّة علمية في العرض دون الصدق في المضمون.

وهذا غيض من فيض، أحببت أن أقف بك أخي القارئ - من خلال هذا العرض السريع - على حجم الهجمة الشرسة على القرآن الكريم. ولا أجد وصفًا أصدق ولا أبلغ في التعبير عن هذه الافتراءات من كلمة العلامة الأستاذ محمود محمد شاكر[١]:

"لم يكن غرض العدو أن يقارع ثقافة بثقافة، أو أن ينازل ضلالًا بهدى، أو أن يصارع باطلًا بحق، أو أن يمحو أسباب ضعف بأسباب قوة، بل كان غرضه الأول والأخير أن يترك في ميدان الثقافة في العالم الإسلامي جرحى وصرعى لا تقوم لهم قائمة، وينصب في أرجائه عقولًا لا تدرك إلا ما يريد لها هو أن تعرف، فكانت جرائمه في تحطيم أعظم ثقافة إنسانية عرفت إلى هذا اليوم، كجرائمه في تحطيم الدول وإعجازها مثلًا بمثل. وقد كان ما أراد اللَّه أن يكون، وظفر العدو منَّا بما كان يبغي ويريد".

(١) في كلمة عن إعجاز القرآن ضمن مقدمة لكتاب مالك بن نبي "الظاهرة القرآنية"، ترجمة أستاذنا الدكتور عبد الصبور شاهين، ص٢١ .

● القرآن يزداد تألقًا وقوة في وجه الافتراءات:

من يستعرض تاريخ القرآن الكريم عبر الزمان والمكان يجد أن من بين خصائص هذا الكتاب التي تصل إلى حد الإعجاز: أنه كلما اشتد الهجوم عليه من معارضيه ومنكريه ازداد القرآن تألُّقًا وقوة؛ فحقائق القرآن الخالدة تدحض الزيف والافتراء وكل ما يثيره أعداء القرآن من شبهات. . . إنه بحق كما أخبر اللّٰه تعالى عنه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ (فصلت: ٤٢).

وتقوم آيات القرآن على إقناع العقل وطمأنينة القلب وفضح الزيف والافتراء حتى لا يبقى أمام المتمرد إلا أحد أمرين: إما أن يؤمن عن بيِّنة وإما أن يكفر عن بيِّنة.

القرآن وحده هو القادر على محاورة المتمرد. . لأنه خطاب الخالق لخلقه وهو ﷻ أعلم بهم، قال اللّٰه تعالى:

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ (الملك: ١٤).

وفي القرآن نماذج هادية في محاورة المتمرد، من ذلك الحوار القرآني مع النمروذ، قال اللّٰه تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ (البقرة: ٢٥٨).

ولأن القرآن الكريم كتاب هداية ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ (البقرة: ١٨٥) . . فكل آية، بل كل كلمة، بل كل

حرف فيه يحمل سرًّا من أسرار الهداية الربانية التي أودعها اللَّه في آياته، فإذا مست القلب وتأملها العقل وجد فيها الملاذ الآمن والحقيقة الخالدة فأسرع مستجيبًا لهدي الآيات بعد أن ملأه الإيمان والتصديق بها.

وإني لَعَلَى يقين - إيمانًا وعقلًا وتجربةً - بأن الهجمة المعاصرة على القرآن ستعود لصالح القرآن، كما كانت الغلبة للقرآن في كل الهجمات السابقة، والنصر دائمًا بالنتائج؛ فهي:

أولًا: تلفت الانتباه إلى القرآن الكريم، فتدفع العقول الرشيدة إلى البحث وإلى التأمل.. وكلما بحثتْ وتأملتْ ازدادتْ قربًا من القرآن؛ لأنه الحق والصدق.. لأنه من اللَّه، تنزيل رب العالمين، ليس ككلام البشر الذي كلما تأمله الإنسان أدرك ما فيه من نقص وأصابه الملل. إنه كلام اللَّه.. آياته الهادية المعجزة.. إنه الكمال المطلق، لقد أتوا إلى القرآن متشككين، وما لبثوا أن مست الهداية قلوبهم فعادوا مؤمنين. وتبارك من هذا كلامه!!!

وثانيًا: توقظ المسلمين من غفلتهم أن ينصفوا القرآن من أنفسهم، بعد أن هجروا القرآن عملًا وسلوكًا وأخلاقًا.. ويصححوا أحوالهم حتى يكونوا مرآة صادقة لعظمة هذا الكتاب، وتتحقق فيهم الخيرية التي أرادها اللَّه لهم بالقرآن: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٠)

إن إحساس المسلمين بالخطر جعلهم يلوذون باللَّه ويزدادون تمسكًا بالقرآن ورجوعًا إليه.

وافتراءات الحاقدين كانت الغلبة والهيمنة للقرآن. وذلك بداية من لحظة نزوله ومحاولات الكافرين التشكيك فيه ومحاولة صرف الناس عن سماعه، قال تعالى:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ (فصلت: ٢٦).

وكانت المواجهة الحاسمة من الآيات الإلهية التي أقامت هذا التحدي لهم، قال تعالى:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (البقرة: ٢٣).

ولَمَّا لم يفلح فرسان البلاغة في التشكيك لجأوا إلى أسلوب آخر هو أسلوب المساومة، فحاولوا مساومة النبي ﷺ على أن يبدل هذه الآيات ويأتي بآيات تشبع أهواءهم، قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ (يونس: ١٥).

• ولقد عصم الله نبيه ورسوله سيدنا محمدًا ﷺ من نسيان حرف أو كلمة أو طريقة أداء لآية من آيات القرآن الكريم، وتوضح الآيات أن النبي ﷺ كان حريصًا كلَّ الحرص أثناء تلقي القرآن من أخيه جبريل عليه السلام على الترديد، حتى جاءه الأمر الإلهي الذي يحمل في صحبته البشرى، قال تعالى: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾﴾ (القيامة: ١٦ - ١٧).

وقال تعالى:

﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦﴾ (الأعلى: ٦).

و"لا" هنا نافية وليست ناهية بدليل إثبات الياء في آخر الفعل المضارع (تنسى)، والمعنى: أننا سنقرئك قراءة من حسنها وعظمتها وبركتها أنك لا يمكن أن تنسى بعدها أبدًا.

لتؤكِّد الآيات لكل متدبِّر أن الدين ليس شأنًا بشريًّا، ليس صناعة عقلية وإنما هو تنزيل من رب العالمين.

وكان المشركون يعلنون عن عجزهم عن مواجهة القرآن بقولهم: إنه سحر، كما حدث عندما أرسلوا لسان الفصاحة والحكمة عتبة بن ربيعة إلى النبي ﷺ، فلمَّا استمع إلى الآيات ومسَّت الهداية قلبه رجع إلى قريش وأخبرهم: إنه ليس بكلام بشر... فقالوا: سحرك يا أبا الوليد!

وتمر السنون بل القرون ويتعرض القرآن لحملة أخرى من الإساءة والتشكيك والافتراءات وإثارة الشبهات وذلك أثناء الحملة الصليبية على الشرق الإسلامي، وقام فريق كبير من المستشرقين بالتأليف ضد القرآن.. فألفوا كتابًا بعنوان "**دحض القرآن**" وقام فريق آخر بترجمة النص القرآني نفسه (**وليس المعاني**) إلى اللاتينية ليكون ذلك خطوة إلى التحريف والتغيير فيه والتبديل. وماتت كل هذه الجهود وظل القرآن يزداد تألقًا وقوة وعظمة.

ناهيك عن الأحاديث المختلقة والملفقة التي دسها أعداء الإسلام في السنة النبوية ضد القرآن بصورة مباشرة أو غير مباشرة للإساءة إلى كُتَّاب الوحي، وقد نَبَّهَ عليها علماء السنَّة وكشفوا زيفها.

وفي واقعنا المعاصر يتعرض القرآن لهجمات شرسة على مستوى الأفراد والمؤسسات العلمية والاجتماعية، بل وعلى مستوى الأمة والدولة.. بإثارة الشبهات وتأليف قرآن مزعوم.

ولعلَّ من المناسب في هذا السياق أن نلفت الانتباه إلى خصوصية من الخصائص التي انفرد بها القرآن الكريم، وهي أنه الكتاب الوحيد من بين الكتب السماوية الذي يحفظه أهله في صدورهم عن ظهر قلب، وهذه النسخة الفريدة المحفوظة في الصدور، والتي يتم تناقُلها بين المسلمين تلاوةً عن طريق التلقِّي شفاهةً، هذه النسخة لا يمكن أن تَمَسَّها يد التحريف والتزييف من الأعداء. وهذه النسخة المتفرِّدة في صدور الحفظة تبطل كل الجهود التي تُبذَل لتحريف نسخة المصحف المكتوبة. وسبحان اللَّه القائل:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ (الحجر: ٩).

ومعلوم أن السر في حفظ القرآن الكريم على هذا النحو المعجز لا يعود إلى جهد البشر، ولا إلى مكانة العرب والمسلمين، فقد مرت الأمة بأزمات عديدة ومراحل انكسار كالمحنة المعاصرة. ولو كان حفظ القرآن منوطا ومرتبطا بهم لذهب القرآن من مئات السنين.. وإنما حفظ القرآن على هذا النحو المعجز الخالد يعود إلى رب القرآن.. إلى اللَّه رب العالمين.. إلى خالق الكون.. عالم السر والعلن.. القادر على كل شيء.. قال تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ (الحجر: ٩).

• كمال اللغة القرآنية ومنتهى تمامها في عيون الخصوم:

ما دمنا ملتزمين بروح الإسلام في الحوار والموضوعية في البحث عن الحقيقة لا اختراع الحقيقة وتلفيق الدراسات والبحوث لإثباتها، ما دمنا كذلك؛ فإنه يعنُّ لي أن أعرض وجهة نظر هؤلاء البعض في حقيقة (كمال اللغة القرآنية ومنتهى تمامها)، فهم يتساءلون:

- هل بالفعل أعجز القرآنُ العربَ عن الإتيان بمثله ؟!
- هل كان القرآن مثالًا لعربية بلا شوائب أو أخطاء لغوية؟!
- ثم أيهما يحكم على الآخر: العربية، أم القرآن؟!

ونُجيب بكل ثقة ويقين:

نعم، لقد أعجز القرآن العرب عن الإتيان بمثله، بكل ما تحمله كلمة الإعجاز من معاني التحدي والغلبة، ولو كانوا يستطيعون لفعلوا لكنهم لم يفعلوا.

نعم، القرآن مثال لعربية بلغت منتهى النقاء والصفاء والكمال والجلال، ظهرت في نظمه، وخصائص سياقه، ولفظه، وبدائعه في المقاطع والفواصل ومجاري الألفاظ ومواقعها؛ فقد كان القرآن أحد العوامل الحاسمة في إيمان من آمنوا حينما أشرقت الدعوة يوم لم يكن لمحمد ﷺ حَوْل ولا طَوْل، ويوم لم يكن للإسلام قوة ولا مَنَعة.

نعم، إن القرآن هو الحاكم على العربية والمهيمن عليها، فلقد شاء اللَّه أن يجعل العربية لغة الوحي المنزَّل لتصبح لغة دين، ثمَّ كتب لها الحفظ والخلود بحفظ القرآن وخلوده، وحفظ القرآن ليس مهمة بشر، بل هي أمر اللَّه وحده:

﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ (الحجر: ٩).

وفي السطور التالية بيان لهذه الحقائق:

لقد نزل القرآن الكريم حجةً على رسالة النبي ﷺ، وبرهانًا على صدق دعوته، وقد بلغ غايةَ الفصاحة ونهايةَ البلاغة بين قوم لا يخلون في جملتهم من شاعر فحل، أو خطيب مصقع؛ ومن هنا فقد كان القرآن الكريم جامعًا لفنون البلاغة، حاويًا لأطراف البيان والفصاحة، محكمًا في نظمه، حتى إنك تحسب ألفاظه لجمالها وروعتها منقادةً لمعانيه، فإذا ما تغلغلْتَ فيه وجدت معانيه منقادةً لألفاظه، فإذا ما رجعت البصر مرةً ومرة فإنك ستظل مترددًا بين انقياد معانيه لألفاظه وانقياد ألفاظه لمعانيه؛ حتى تؤمن أخيرًا بأنك تقرأ كلامًا ليس من كلام البشر.

ولا شك أنك بهذا إنما تجدد الموقف الذي وقفه العرب أمام روعة نظمه موقفَ الإعجاب والذهول والحيرة، ولكن سوء نيتهم وخبث طويتهم قد أغلق عيونهم عن الاستجابة لهذا النور المنبثق الوضاء.

ولقد عبر غير واحد من زعمائهم عن هذا الموقف في مثل قول عتبة بن ربيعة حين سمع من رسول الله ﷺ الآيات الأولى من سورة فصلت ثم عاد إلى قومه فسألوه: ما وراءك يا أبا الوليد؟ فقال: "ورائي أني سمعت قولًا ما سمعت مثله قط، ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي، وخلُّوا بين الرجل وبين ما هو فيه".

وفي مثل قول الوليد بن المغيرة: "واللّه إن له لحلاوة، وإن عليه لَطلاوة، وإن أعلاه لَمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو ولا يُعْلَى عليه".

والقرآن الكريم معجزٌ لأن النبيَّ ﷺ قد تحدَّى به ولم يُعارَض، وآيات التحدي كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ﴾ (الطور: ٣٤)، فكان التحدي بجميع القرآن الكريم في هذا الزمن، فلما ظهر عجزهم عن ذلك نزل قول اللّه تعالى: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ﴾ (هود: ١٣)، ثم لما ظهر عجزهم عن هذا المقدار أيضًا نزل قوله تعالى: ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ (البقرة: ٢٣)، حيث تحدَّاهم بمقدار سورة منه، فلما ظهر عجزهم عن الإتيان بمثل أقصر سورة لزمتهم الحجة لزومًا واضحًا، وانقطعوا انقطاعًا فاضحًا، يقول الفاضل التفتازاني في شرح المقاصد:

"إن الرسول ﷺ تَحدَّى بالقرآن الكريم ودعا إلى الإتيان بسورة من مثله مصاقعَ البلغاء والفصحاء من العرب وغيرهم، مع كثرتهم كثرة حصى البطحاء، وشهرتهم بغاية العصبية والحميَّة الجاهلية، وتهالكهم على اللامبالاة والمباراة وركوب الشطط في هذا الباب، فعجزوا حتى آثروا المقارعة على المعارضة، وبذلوا المهج والأرواح دون المدافعة، فلو قدروا على المعارضة لعارضوا، ولو عارضوا لنُقل إلينا"(١).

---

(١) إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، د. حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مطابع الأهرام، الكتاب الرابع، ١٣٩٠هـ، ١٩٧٠م، ص ٧ ـ ٨.

أجل، لقد سجَّل التاريخ هذا العجزَ على أهل اللغة أنفسهم في عصر نزول القرآن. وما أدراك ما عصر نزول القرآن؟ هو أزهى عصور البيان العربي، وأرقى أدوار التهذيب اللغوي، وهل بلغت المجامع اللغوية في أمة من الأمم ما بلغته الأمة العربية في ذلك العصر من العناية بلغتها، حتى أدركت هذه اللغة أَشُدَّها؛ وتَمَّ لهم بقدر الطاقة البشرية تهذيب كلماتها وأساليبها.. ما هذه الجموع المحشودة في الصحراء، وما هذه المنابر المرفوعة هنا وهناك؟ إنها أسواق العرب تُعرض فيها أَنْفَسُ بضائعهم، وأَجْوَدُ صناعاتهم، وما هي إلا بضاعة الكلام وصناعة الشعر والخطابة، يتبارون في عرضها ونقدها، واختيار أحسنها والمفاخرة بها، ويتنافسون فيها أشد التنافس، يستوي في ذلك رجالهم ونساؤهم. وما أمرُ حسَّان والخنساء وغيرهما بخافٍ على متأدِّب.

فما هو إلا أن جاء القرآن... وإذا الأسواق قد انفضت، إلا منه. وإذا الأندية قد صَفِرَت، إلا عنه. فما قدر أحدٌ منهم أن يُباريه أو يُجاريه، أو يقترح فيه إبدال كلمة بكلمة، أو حذف كلمة أو زيادة كلمة، أو تقديم واحدة وتأخير أخرى. ذلك أنه لم يسدَّ عليهم باب المعارضة بل فتحه على مصراعيه، بل دعاهم إليه أفرادًا وجماعاتٍ، وكرَّر عليهم ذلك التحدي في صور شتى، متهكّمًا بهم، متنزلًا معهم إلى الأخف فالأخف: فدعاهم أول مرة أن يجيئوا بمثله، ثم دعاهم أن يأتوا بعشر سور مثله، ثم أن يأتوا بسورة واحدة مثله، ثم بسورة واحدة من مثله[١]، وأباح لهم في كل مرة أن يستعينوا بمن شاءوا ومن

(١) انظر كيف تنزل معهم في هذه المرتبة من طلب المماثل إلى طلب شيء مما =

استطاعوا، ثم رماهم والعالَم كلّه بالعجز في غير مواربة فقال ﷻ:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ (الإسراء: ٨٨).

وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (البقرة: ٢٤).

فانظر أي استفزاز!! لقد أجهز عليهم بالحكم الباتّ المؤبد في قوله: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾، ثم هدَّدهم بالنار، ثم سوَّاهم بالأحجار. فلعَمري لو كان فيهم لسان يتحرك لما صمتوا عن منافسته وهم الأعداء الألِدَّاء، وأُبَاة الضَّيْم الأعزاء، وقد أصاب منهم موضع عزتهم وفخارهم، ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته، ولا سُلَّمًا يصعدون به إلى مزاحمته، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طود شامخ، فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبًا.. حتى إذا استيأسوا من قدرتهم واستيقنوا عجزهم ما كان جوابهم إلا أن ركبوا متن الحتوف، واستنطقوا السيوف بدل الحروف. وتلك هي الحيلة التي يلجأ إليها كل مغلوب في الحجة والبرهان، وكل من لا يستطيع دفعًا عن نفسه بالقلم واللسان.

= يماثل. كأنه يقول: لا أكلفكم بالمماثلة التامة، بل حسبكم أن تأتوا بشيء فيه جنس المماثلة ومطلقها، وبما يكون مثلًا على التقريب لا التحديد. وهذا أقصى ما يمكن من التنزل. ولذا كان هو آخر صيغ التحدي نزولًا، فلم يجئ التحدي بلفظ (من مثله) إلا في سورة البقرة المدنية، وسائر المرات بلفظ (مثله) في السور التي نزلت قبل ذلك بمكة: فتأمل هذا الفرق فإنه طريف، وأسأل الله أن يوفقنا وإياكم لفهم أسرار كتابه، والانتفاع بهدايته وآدابه.

ومضى عصر القرآن والتحدي قائم ليجرب كل امرئ نفسه[١].

ولعل من خير ما يُساق في علاقة القرآن بالعربية ما ذكره أستاذنا الدكتور عبد الصبور شاهين[٢] من أن أفضل ما كان يُميِّز الإنسان العربي في جزيرته أنه كان إنسانًا فطريًّا لم تستهلكه أساطيرُ موضوعة، ولا حضاراتٌ قاهرة، لقد كان إنسانًا يملك إرادته، وبقية دين إبراهيم مع فطرته السليمة، ولغتَه الكاملة، وبيانَه النافذ، وقابلياته التي أعده اللَّه بها ليزكيه بالكتاب، وليكمل له الدين، وليتم عليه النعمة بالإسلام، وكانت لغته هي شغله الشاغل، فهو يعكف عليها في مواسم الحج متفننًا في تصريف القول بها وانتقاء ألفاظها، وصقل أشعارها وحفظ نصوصها، فلقد كان يدرك أن عبقريته وتفوقه ومستقبله ونقاءه في لغته العربية التي انتسب إليها فصار بها عربيًّا أي مبينًا، وصار من حوله رغم حضاراتهم "عجمًا" غير مبينين!

ومن ثم كانت الآية القرآنية: أن هذه اللغة التي عكف عليها العرب، لتجويدها وامتلاك ناصية المعاني الإنسانية والواقعية بها، قد تنزلت من عند اللَّه بكلامه لتعبر عن أقصى وأحب ما يبلغ إليه إدراكهم، وما تتدبره عقولهم في مستوًى لا تبلغ قدرتهم على محاكاته، ومع ذلك فإن الألفاظ واحدة، والأدوات واحدة، وأشكال التصريف واحدة، أي إن المادة اللغوية هي هي، ومعاني

---

(١) النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، د. محمد عبد اللَّه دراز، دار القلم، الكويت، ط٤، ١٩٧٧م، ص٨٤ - ٨٥

(٢) مع القرآن الكريم: رؤية مستنيرة لحقائق الإيمان والحياة، المقاولون العرب، العدد الرابع، ط ١٤٠٠هـ/ ١٩٧٩م

الألفاظ هي هي، ولكنَّ تشكيل الألفاظ والمعاني والتراكيب والإيقاع بالوحي الإلهي هو الآية العظمى فوق كل منال.

فكيف اتسعت العربية بحروفها وكلماتها لهذا التنزيل الإلهي بالقرآن العظيم، دون أن تضيق عنه، أو تعيَى بحمله، وخلوده، فكأنما هو بيان يتفجر من قلبها؟! تلك صنعة الخالق، قال جل ثناؤه:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾﴾ (الرحمن: ١ - ٤).

ولقد كان نزول القرآن بالعربية حدثًا فريدًا في تاريخ الدين والإنسان، ذلك لأن ضرورة استمراره آية باقية لدعوة الإسلام. حققت من الناحية التاريخية استمرار العلاقة بينه وبين بيان العربية، بحيث يظل هذا البيان قرآنيًا يفسر القرآن ويحيا بالقرآن.

وكان من الممكن لو لم ينزل القرآن أن يتغير بيان العربية بمرور الزمن وتتابع الأجيال، ثم تبدأ اللهجات العربية التي كانت متعددةً بتعدد القبائل أن تستقلَّ لتصبح من جيل إلى جيل لغاتٍ مستقلةً، لا علاقة بينها، إلا ما يكون من علاقةٍ بين لغات الفصيلة الواحدة، كما حدث للهجات الساميين التي أصبحت لغاتٍ مستقلة، أي أن نزول القرآن قد كفل مجموعة من النتائج في وجود اللغة العربية:

أولها: أن العرب جميعًا تشبثوا باللغة الفصحى لأنها لغة الوحي والعقيدة.

ثانيها: أن اللهجات العامية اقتصرت على حيز ضيق جدًّا من ممارسة الحديث الخاص بين الأفراد مع اتساع مجالات استخدام الفصحى القرآنية.

ثالثها: أن مرور الزمن وتتابع الأجيال لم يكن له من تأثير على بقاء اللغة العربية الفصحى واستقرارها إلا مزيدًا من تفاعلها مع القرآن بحيث بقيت لغة الأمة العربية الخالدة بخلود القرآن.

رابعها: أن نطاق اللغة العربية قد اتسع بحيث امتد إلى كل المسلمين في أنحاء العالم، فهم يقرأون القرآن بالعربية، ويتعبدون بحروفه، ويتخذون طريقةَ كتابته وسيلةً لتسجيل لغتهم، وهذا في حد ذاته نصرٌ حققه القرآن للعربية، على مستوًى عالمي، ونعمةٌ أنعمها اللَّه في نفس الوقت بالإسلام ولغته على تلك الشعوب.

خامسها: وهذا هو الأهم، كانت آيةُ القرآن اللغوية إعلانًا عن صلاحية اللغة العربية علميًّا وإنسانيًّا لحمل وترشيد مفاهيم الحضارة، والتعبير عنها مهما يكن مستواها؛ لأن اللغة التي تتسع للقرآن وآياته بهذا الاقتدار البالغ، لا بد أن تكون أقدر على التعبير عن أي مستوى من مستويات تقدم الإنسان عبر كل العصور.

- **والقرآن هو الحاكم على العربية والمهيمن عليها، فلقد شاء اللَّه أن يجعل العربية لغة الوحي المنزَّل لتصبح لغة دين ثمَّ كُتب لها الحفظ والخلود بحفظ القرآن وخلوده، وحفظ القرآن ليس مهمة بشر، ولا يتحقق بوسيلة من وسائل البشر، بل بأمر اللَّه وحده:**

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ (الحجر: ٩).

فقد كان ذلك وعد اللَّه تعالى بحتمية حفظ القرآن الكريم ـ وعدًا بحفظ اللغة العربية، وقد استند هذا الأمر المتحقق إلى أسباب أهمها[١]:

---

(١) د. رشاد محمد خليل، مدرس الثقافة الإسلامية بكلية التربية، جامعة =

١) قيام مناهج الاستدلال في القرآن الكريم على أساس من اصطلاح العرب وأسلوبهم في النظر والتفكير، وبذلك أصبحت معرفة اللغة العربية الفصحى شرطًا لصحة الاستدلال في حياة الأمة العربية، وحياة المسلمين.

٢) اتجه القرآن الكريم بخطابه للبشر من خلال خطابه للعرب، فكانت معرفة الحياة العربية شرطًا لمعرفة منازل هذا الخطاب القرآني.

٣) منذ نزل القرآن الكريم كانت تلاوة القرآن، وحفظه، أو الميسور منه، أساسًا لصحة العبادة أو صحة العمل بالشرع، وبذلك أصبحت معرفة اللغة العربية الفصحى شرطًا لصحة الإيمان وصحة العمل بشريعة اللَّه، والدين الحق.

ولقد أدَّى هذا الاقتران الحميم بين القرآن ولغة العرب إلى مجاهدة المسلمين العالمية لجمع هذه اللغة الشريفة وتدوينها، وتقنينها، وبذلك تيسر حفظ العربية بفضل هذا الجهد العظيم، الذي قاوم به علماء اللغة كافة المحاولات المعادية التي بذلت لإخراج هذه اللغة عن أصولها.

كذلك كان من وسائل حفظ هذه اللغة وصونها عن آفات الضياع، ما وضعه هؤلاء العلماء الأجلاء من شروط لصحة رواية اللغة شبيهة بتلك الشروط الموضوعة لحفظ الحديث، فتكلموا عن التواتر في اللغة وشروطه، وتكلموا عن السماع أو القراءة على الشيخ،

= الرياض، من سلسلة "مع القرآن الكريم"، العدد الخامس.

وتكلموا عن الإجازة والمكاتبة، وتكلموا عن القياس اللغوي، ووضعوا له الشروط الضابطة، وتكلموا من الأخذ من اللغات الأخرى، وعن تعريب الغريب وطرقه، وتكلموا عن الكلمات المولدة، ومتى تؤخذ ومتى تُرد. وتكلموا عن اللهجات: صحيحها، وسقيمها، ومتروكها، وشاذها، ومنكرها.. إلى آخر هذه المباحث اللغوية التي حفلت بها كتب اللغة، والتي تم بها تمهيد الطريق أمام نمو اللغة العربية واتساعها على نسق العرب وشرطهم في بيانها، ودون إخلال بالأصول الراسية التي قامت عليها.

وكان من نتيجة هذا الجهد العظيم أن استمرت الصلة بين أصول اللغة العربية وبين فروعها وروافدها الجديدة، واتسعت بذلك لكافة الثقافات الأجنبية، كما اتسعت لكافة العلوم التي كشف عنها المسلمون، ولجميع المصطلحات العلمية التي أبدعوها لها في عصور ازدهار حضارتهم العربية الإسلامية. وذلك بغير أن تنقطع صلة آخرها بأولها، أو جديدها بقديمها. وكذلك وقع التواصل بين أجيال الأدباء والشعراء فأصبحنا نقرأ شعر امرئ القيس وزهير ولبيد في القديم، كما نقرأ شعر جرير والفرزدق والمتنبي بعدهم، وكما نقرأ شعر البارودي وشوقي وحافظ في العصر الحديث، رغم تبدل الظروف وتراكم المتغيرات، ورغم الحرب الشرسة التي يشنها أعداء العرب والمسلمين، والطامعون في أرضهم ومواردهم في العصور الحديثة، على لغتهم العربية وقرآنهم، ومع كل ذلك فما زلنا قادرين على الاستمرار على نفس الطريق الرحب الذي مهده لنا علماؤنا الأولون.

من كل هذا نرى أن القرآن الكريم كان في حكمة اللَّه هو الحافظ لبقاء اللغة العربية صحيحة وسليمة بخصائصها ، وفق أصولها ، على مرِّ الزمن.

في ضوء هذه الحقيقة أصبح من اليقيني في الفكر الإسلامي المستنير أن بقاء اللغة العربية وفاعليتها في وحدة وتماسك وتقدم الأمة العربية رهن بتمسكها واعتصامها بالقرآن الكريم.

ومعنى هذا أن كلَّ محاولات التغريب لهذه الأمَّة، لعزلها عن هذا الكتاب العربي المبين، الذي قام عليه ذكر العرب وبقاؤهم واستمرارهم إلى اليوم في التاريخ ـ إنما هو جهل أو تجاهل لحقيقة هذه الأمة، وإنكار أو تنكُّر لطبيعة هذه المقومات التي قامت وتقوم وتستمر في الوجود على أساسها، وهي طبيعة منذ فجر التاريخ "دينية " غير وضعية، بمعنى أنها تنزيلية بوحي اللَّه، ويقينية عبر العصور والأحقاب، وليست فلسفية وضعية تتناقض وجهاتها وادعاءاتها عبر هذه العصور والأحقاب مع الواقع واليقين والعلم.

إن هؤلاء الذين يحاولون هذه المحاولات في هذا العصر، كما حاولها الكثيرون قبلهم في غير هذا العصر ـ يجهلون هذا الارتباط الوثيق بين اللغة العربية والقرآن الكريم، الذي جعل اللَّه به من هذه اللغة الدينية والدنيوية مقومًا أساسيًّا في حياة العرب وقوميتهم ـ إنما هو في سنن اللَّه الشاملة لحياة كل البشر ليس أساسًا فقط لبقاء اللغة العربية، وبقاء العرب ببقاء القرآن الكريم وبقاء الإسلام، وإنما هو أساس في نفس الوقت لبقاء الجنس البشري كله ـ إلى ما شاء اللَّه ـ على هذا التكامل والتقابل الذي لا تقوم البشرية بغيره، في تدافعها

المستمر بين الخير والشر، والإيمان والإلحاد، والحق والباطل، والعربية والعجمة، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٢١).

فالقرآن رسالة السماء إلى الأرض، فمن أراد أن يفهمه على هذا النهج فقد وقف بنفسه على مواطن العظمة، ومواضع الإعجاز فيه. ومن أراد أن يعرف أثره في اللغة العربية فلينظر ذلك الأثر في حياة المسلمين عقيدةً وسلوكًا، ليرى ذلك واضحًا وجليًّا.

قد تَقْصُر الأفهام عن المراد من آية من آياته، فيُظَنُّ أنها جاءت على غير ما تعارف عليه أهل اللغة. وقد يَعْجِز البصر عن الوصول إلى إعجاز نحوي جاء في أثناء آية، فيذهب الظن إلى أن القرآن قد تجاوز قواعد اللغة وما تعارف عليه أهلها، وهذا ـ لا شك ـ قصور وعجز في الإنسان عن إدراك لغة القرآن وأساليبه البيانية، فهو كتاب ربِّ العالَمين، وهو الكمال المطلق، الذي يُغري أصحاب العقول الرشيدة أن يتوفَّروا لاستكشاف آفاق الكمال القرآنيِّ.

وَمَا يَعْقِلُهَا إلاَّ الْعَالِمُونَ

وَمَا يَذَّكَّرُ إلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ

الفصل الأول

ويضم :

- تصنيف الشبهات
- شبهات نحوية

تصنيف الشبهات

لم يسلك مُدَّعو الشبهات منوالًا واحدًا، ولا اتَّبعُوا منهجًا بعينه في إثارة شبهاتهم وتصنيفها، واقتضى المنهج العلمي تصنيف هذه الشبهات اللغوية تصنيفًا يتناسب مع موضوعها، وذلك على النحو التالي:

(١) شبهات نحوية:

وجُلُّ هذه الشبهات يدور حول المطابقة: في العدد، وفي النوع، كمطابقة الخبر للمبتدأ، والضمير لما يعود عليه، والفعل لفاعله، والنعت لمنعوته، والعدد لمعدوده، والحال لصاحبها.. إلخ.

وهناك شبهات نحوية مصدرها تَوَهُّم وجود أخطاء في إعراب بعض الكلمات القرآنية: كنصب ما حقه الرفع، أو رفع ما حقُّه النصب.. إلخ.

وهناك شبهات تدور حول ادِّعاء وجود لبس في المعنى ناشىء عن خلل أو اضطراب نحوي: في عَوْد الضمائر، والانتقال من نوع إلى آخر (كالانتقال من ضمير المخاطب إلى ضمير الغائب أو العكس)، ووضع الماضي موضع الحاضر أو العكس، أو تعدد الأدوات (كأسماء الإشارة، حروف الجر، حروف العطف.... إلخ).

(٢) شبهات صرفية:

ولم نجد في هذا الباب سوى ثلاث شبهات كلها حول: استعمال جمع القلة في موضع جمع الكثرة، أو العكس.

(٣) شبهات دلالية:

وأكثرها ادِّعاءات حول: وجود ألفاظ مستخدمة في غير معناها، وألفاظ غريبة، وألفاظ أعجمية، وادِّعاء وجود أخطاء في بعض الأعلام مثل (سينين - إلياسين - آزر)، واختلاف الأسماء للمسمَّى الواحد مثل الاسمين: أحمد ومحمد للنبي ﷺ، ومكة وبكَّة للبلد الحرام.

وكذا ادِّعاء وجود ألفاظ خادشة للحياء في القرآن الكريم، مثل: العورة - الْمَنِيّ، الترائب، ونحوها.

(٤) شبهات بَلاغِيَّة:

وأكثرها يدور حول:

- الحشو: أي وجود ألفاظ زائدة على المعنى.
- التكرار: أي تكرار المعنى الواحد بأكثر من صورة لفظية.
- التناقض: كإثبات الشيء مرَّة ونَفْيه مرَّة أخرى، أو إطلاقه تارة وتقييدِهِ تارة أخرى.

(٥) شبهات عامة:

بعض هذه الشبهات يدور حول الطعن في إعجاز القرآن وفصاحته، والزعم بأن أسلوبه لا يلائم الذوق الغربي، أو أنه لا يخضع لقواعد اللغة.

وبعضها ادعاءات حول وجود أخطاء إملائية في القرآن، أو عدم جدوى المتشابه من آيات القرآن، أو اختلاف القراءات، وأثره في

اختلاف التشريعات والمعاني، أو أن القرآن ليس محفوظًا، أو أن فيه تناقضات وتعارضات. . . إلى آخر هذه المطاعن.

وسوف نردُّ على هذه الشبهات ردًّا مفصَّلا - إن شاء اللَّه تعالى - من خلال المباحث التالية:

شبهات نحوية

• المطابقة في العدد:

ساق المشككون عدة مواضع من كتاب اللَّه الكريم، زعموا أنها تفتقد شرطًا من شروط الصحة النحوية، هو شرط المطابقة في العدد، وهي على النحو التالي:

• توهُّم عدم المطابقة بين الضمير وما يعود عليه:

وذلك بأن يكون الضمير جمعًا والعائد عليه مفردًا، وساقوا على ذلك الآيات التالية:

١) ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾ (البقرة: ١٧)؛ حيث عاد الضمير في (بِنُورِهِمْ) على المفرد (**الذي**)، وكان الصواب في ظنهم أن يقال: ذهب اللَّه بنوره وتركه في ظلمات لا يبصر.

ومردُّ هذا الوهم أن صاحب الشبهة لم يتأمل في نظم الآية الكريمة، ولو أنه تأمل قليلًا لما أورد هذه الشبهة؛ وذلك لأن:

• كلمة (مَثَل) في حد ذاتها تفيد الجمعية.

• كلمة (الذي) في الآية عامة تفيد الجمع: فهذا الاسم الموصول ـ وإن كان يستعمل للمفرد ـ يستعمل للجمع أيضًا، مِثْل شبيهه (مَنْ)، فهو مفرد في اللفظ، جمع في المعنى، وعلى هذا أُفْرد

الضمير في (حوله) حملًا على لفظه، وجُمِعَ في (بنورهم، تركهم...) حملًا على المعنى(١).

وفي الآية وجه آخر لإفراد الضمير في (حوله)، وجمعه في (بنورهم)، وهو مراعاة حال المشبه لا المشبه به، فالضمير في (بنورهم) عائد إلى المنافقين لا إلى الذي استوقد، رجوعًا إلى الغرض الأصلي، وهو انطماس نور الإيمان عند المنافقين، وتنبيهًا على الانتقال من التمثيل إلى الحقيقة، وفيه إيجاز بديع كأنه قيل: فلمَّا أضاءت ما حوله ذهب اللَّه بناره، فكذلك ذهب اللَّه بنورهم(٢).

وسواء أخذنا بهذا الوجه أم بذاك فليس في الآية أي اضطراب، ولا تناقض بين الضمير وما يعود عليه؛ بل فيها إحكام نظم، ودقة لفظ، وملامح بلاغية رائعة.

٢) ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثۡنَا عَشَرَ شَهۡرٗا فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوۡمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ مِنۡهَآ أَرۡبَعَةٌ حُرُمٞۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾ (التوبة: ٣٦)؛ حيث عاد الضمير المفرد في (منها) على الجمع (**اثنا عشر**). والصواب ـ في زعمهم ـ أن يقال: (منهن) ليتفق الكلام مع قوله ﷻ: ﴿فَلَا تَظۡلِمُواْ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمۡۚ﴾.

والضمير في (منها) يعود على (اثنا عشر)، والضمير في (فيهنَّ) يعود على (أربعة)، وهذا موافق تمام الموافقة لما تقرر في قواعد العربية أن ما زاد على العشرة، يُعامل في الضمير معاملة الواحدة المؤنثة؛ فنقول:

(١) الكشاف ١ / ١٩٨ - ٢٠٠ .

(٢) التحرير والتنوير، الطاهر بن عاشور ١ / ٣٠٨ - ٣٠٩ .

خذ هذه الكتب الاثني عشر فقد قرأتها، ولا تقول: قرأتهن.

بينما تعامل العشرة فما دونها ـ من كلمة "الكتب" ـ إلى الثلاثة معاملة جمع المؤنث، فتقول: الكتب العشرة (أو الثلاثة) قرأتهن.

وهذا هو الوجه الأكثر استعمالًا في العربية، ويجوز العكس، ولكنه قليل في الاستعمال[1]، وقد أثبت الفرَّاء، والكسائي وغيرهما شيوع الوجه الأول الذي جاءت به الآية الكريمة، ومَثَّل الكسائي لذلك بأن العرب تقول فيما دون العشر من الليالي: خَلَوْنَ، وفيما فوقها: خَلَتْ[2].

وعلى فرض صحة الوجهين وتساويهما في الاستعمال الفصيح، يكون تنويع الضمير في الآية لونًا من التفنن في التعبير؛ فجاء مرة بضمير الواحدة، وأخرى بضمير جمع المؤنث.

كما أن تنويع الضمير يلفت النظر إلى تأمُّل معنى الآية، وأن المخصَّص بالنهي عن ظلم النفس فيه هو الأشهر الحرم تعظيمًا، وتشريفًا لقدرها.

٣) ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ (التوبة: ٦٢)؛ حيث جاء الضمير في كلمة (يرضوه) مفردًا، والصواب في زعمهم أن يقال: (يرضوهما).

لإفراد الضمير هنا ـ مع أنه يعود على اثنين ـ عدة أوجه، نذكر منها:

أولًا: إرادة عَوْدِ الضمير على الأول، وهو اسم الجلالة، وفيه

---

(١) البحر المحيط ٥ / ٣٩.

(٢) التحرير والتنوير، المجلد السادس، جـ١٠، ص ١٨٥ - ١٨٦.

إشارة إلى الجمع بين إرضاء اللَّه ورسوله عن طريق العطف، مع التفريق بين الإرضاءين عن طريق إفراد الضمير وعَوْدِه على اسم الجلالة وحده، ومنه قول ضابئ بن الحارث:

وَمَنْ يَكُ أَمْسَى بالمدينةِ رَحْلُهُ   فإِنِّي وقَيَّارٌ بها لَغَرِيبُ

فأفرد الخبر (غريب) مع أن اسم (إن) اثنان؛ للإشارة إلى أن إحدى الغربتين مخالفة للأخرى، والخبر بالقطع متعلق بضمير المتكلم في (فإنِّي)؛ لاقترانه بلام الابتداء وهي من متعلقات (إنَّ)(١).

وعلى هذا جاء نظم الآية الكريمة شاملًا الجمع والفَرْقَ؛ فالجمع بواو العطف، والفرق بإفراد الضمير واختصاصه باسم الجلالة.

ثانيًا: أن الضمير جاء مفردًا؛ لأنَّ اللَّه ورسوله في حُكْمِ مَرْضِيٍّ واحد، فإرضاء اللَّه إرضاء لرسوله(٢).

ثالثًا: قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ جملتان لا جملة واحدة، حُذف الخبر من الأولى لدلالة خبر الثانية عليه، والتقدير عند سيبويه: واللَّه أحقُّ أن يرضوه، ورسوله أحقُّ أن يرضوه، كما في قول الشاعر:

نَحْنُ بما عِنْدَنا وأنتَ بِمَا   عِنْدَكَ راضٍ والرَّأْيُ مُختلِفُ

أي نحن بما عندنا راضون، وأنت بما عندك راضٍ(٣).

---

(١) التحرير والتنوير، المجلد السادس، جـ١٠، ص ٢٤٥ .

(٢) الكشاف ٢ / ١٩٩، البحر المحيط ٥ / ٦٤ .

(٣) البحر المحيط ٥ / ٦٤ .

وعلى كل هذه الأوجه لا يكون في الآية مخالفة للقاعدة؛ بل فيها - إلى جانب موافقة القاعدة - لمحة بلاغية، وإيجاز بليغ على نحو ما أوْضَحْنا.

٤) ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ فِي رَبِّهِمۡۖ﴾ (الحج: ١٩)؛ حيث أُعِيدَ ضمير الجمع في (اختصموا) على مثنى (خصمان) والصواب - في زعمهم - أن يقال: هذان خصمان اختصما.

كلمة (خصمان) مثنى، مفرده (خَصْم) وهو اسم جمع معناه (فريق)، أي: هذان فريقان. فجاء اسم الإشارة مثنى مراعاةً للفظ، وجاء الضمير جمعًا مراعاةً للمعنى؛ إذ إنَّ كل خَصْم يضم أفرادًا، ومثله قول اللَّه تعالى: ﴿وَمِنۡهُم مَّن يَسۡتَمِعُ إِلَيۡكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنۡ عِندِكَ﴾ (محمد: ١٦) فأفرد ضمير "يستمع" مراعاة للفظ (مَنْ) المفرد، وجمع ضمير (خرجوا) مراعاة لمعنى (مَنْ) الدال على الجمع[١].

ولو قيل: هؤلاء خصمان اختصما، أو: هذان خصمان اختصما لجاز، وقد قرأ ابن عبلة: "هذان خصمان اختصما"[٢].

والقراءة المتواترة ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ﴾ فيها لمحة بلاغية؛ حيث جاء اسم الإشارة بلفظ المثنى إيماءً إلى الفَرْق بينهما، وأنهم لَمَّا وقعت الخصومة والاشتباك صاروا كأن بعضهم يموج في بعض، فقيل: (اختصموا) تعبيرًا عن هذا التداخل والتشابك بين أفراد الفريقين.

---

(١) الكشاف ٣ / ٩ .

(٢) البحر المحيط ٦ / ٣٦٠ .

وما سبق يُقال أيضًا في قول اللّه تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ (الحجرات: ٩).

٥) ﴿وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾ (التحريم: ٣)؛ حيث جاء الضمير مفردًا في (نبأت) وهو يعود على (بعض أزواجه)، والصواب ـ في زعمهم ـ أن يقال: (نبأن به).

ولو أن صاحب هذه الشبهة راجع المعاجم اللغوية لَمَا أجهد نفسه بإيرادها، ولعلم أن كلمة (بعض) يراد بها الجزء من الشيء.

وكل طائفة من الشيء بعضه[1]، ويصدق هذا على القليل والكثير.

والمراد بـ **(بعض أزواجه)**: حفصة - رضي اللّه عنها[2]، وهي واحدة، فعاد الضمير إليها مفردًا في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ﴾.

إذن فلا مخالفة في الآية، ولا مُسوِّغ لجمع الضمير، بل الإفراد واجب هنا. ومثل هذا قول لبيد:

أو يَعْتَلِقْ بَعْضَ النفوسِ حِمامُها

يشير إلى نفسٍ واحدة هي نفسه.

• توهُّم عدم المطابقة بين التميز والمميَّز:

أي جريان التمييز على نسق كلام العرب في العدد والمعدود، وقد ظن المتوهِّم وجودَ مخالفة للقاعدة النحوية في قول اللّه تعالى: ﴿وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ﴾ (الكهف: ٢٥)؛ حيث إنَّ تمييز

(١) انظر: مقاييس اللغة، اللسان "ب ع ض".

(٢) الكشاف ٤ / ١٢٦، البحر المحيط ٨ / ٢٩٠.

العدد (ثلاثمائة) يجب إفراده، فاللغة تقول: عندي ثلاثمائة كتاب، لا ثلاثمائة كتب، والصواب ـ في زعمهم ـ أن يقال: ثلاثمائة سنة.

● **وقد جهل صاحب هذه الشبهة أمرين:**

الأول: أن كلمة (سنين) في الآية على هذه القراءة بتنوين (ثلاثمائةٍ) ليست تمييزًا، بل هي عطف بيانٍ، والتقدير: فلبثوا في كهفهم سنينَ ثلاثَمائةٍ، فكلمة (سنين) تفسير للعدد، وهي منصوبة بالفعل (لبثوا)، ومنه قول عنترة:

فيها اثنتانِ وَأَربَعونَ حَلوبَةً سودًا كَخافِيَةِ الغُرابِ الأَسحَمِ

فجعل (سُودًا) مكان (سوداء).

الثاني: أن من العرب من يضع السنين في موضع سنة، وعلى هذا قراءة حمزة، و الكسائي، وطلحة، ويحيى، والأعمش، والحسن، وابن أبي ليلى، وخلف وابن سعدان، وابن عيسى الأصبهاني، وابن جبير الأنطاكي: (ثلاثمائةِ سنين) بغير تنوين في (ثلاثمائة) وإضافة (سنين) إليها. والمراد في هذه القراءة: ثلاثمائة سنة؛ لأن العرب قد تضع الجمع في موضع المفرد[١].

وعلى كلتا القراءتين فلا خطأ في الآية ولا مخالفة.

● **توهُّم عدم المطابقة بين المبتدأ والخبر:**

زعموا أن القرآن الكريم، قد خالف قاعدة المطابقة في العدد بين المبتدأ والخبر، ولهم على ذلك الشواهد التالية:

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢ / ١٣٨، البحر المحيط ٦ / ١١٧ .

١) قوله تعالى: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ضَيۡفِي﴾ (الحجر: ٦٨)؛ حيث جاء المبتدأ جمعًا (هؤلاء) والخبر مفردًا (ضيفي)، والصواب ـ في زعمهم ـ أن يقال: هؤلاء ضيوفي.

وتقدم مثل هذا في الكلام على قول اللّه تعالى: ﴿هَٰذَانِ خَصۡمَانِ ٱخۡتَصَمُواْ﴾. فكلمة (ضيف) مثل (خَصْم) تستعمل للواحد وللجمع[١]، وهي هنا للجمع.

وعلى هذا فليس في الآية إخلال بقاعدة المطابقة العددية بين ركني الجملة.

٢) قوله تعالى: ﴿هُمُ ٱلۡعَدُوُّ﴾ (المنافقون: ٤)؛ حيث جاء المبتدأ جمعًا، والخبر مفردًا، والصواب - في زعمهم - أن يقال: هم الأعداء.

والذي جَهِلَهُ صاحب هذه الشبهة أن كلمة (عَدُوّ) تستعمل للمفرد والمثنى والجمع[٢]، ومثله في القرآن كثير، من ذلك قوله تعالى:

- ﴿بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾ (البقرة: ٣٦، الأعراف: ٢٤، طه: ١٢٣).
- ﴿فَإِن كَانَ مِن قَوۡمٍ عَدُوّٖ لَّكُمۡ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ مُّؤۡمِنَةٖ﴾ (النساء: ٩٢).
- ﴿وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ﴾ (الكهف: ٥٠).
- ﴿فَإِنَّهُمۡ عَدُوّٞ لِّيٓ إِلَّا رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٧٧﴾ (الشعراء: ٧٧).

---

(١) انظر: تهذيب اللغة، مقاييس اللغة، اللسان (ض ي ف).

(٢) تهذيب اللغة، مقاييس اللغة، اللسان (ع د و).

• ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ (النساء: ١٠١).

وغير ذلك الكثير من الآيات التي استعملت العدوّ جمعًا، فلا مخالفة في الآية إذن.

٣) ويلحق بما سبق الشاهد الثالث الذي أورده المدعون على مخالفة القرآن لقاعدة المطابقة بين المبتدأ والخبر، وهو قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ (الشعراء: ١٦)؛ حيث جاء اسم (إن) مثنًّى، وخبرها مفردًا، والصواب - في زعمهم - أن يقال: إنَّا رسولا رب العالمين.

لقد ورد في القرآن تثنية الرسول في مثل هذا السياق، وهو قوله تعالى: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ (طه: ٤٧).

فالتثنية على معنى المُرْسَل، والإفراد يحتمل أوجهًا نذكر منها:

• أنه على معنى المصدر (الرِّسالة) كما في قول الشاعر:

لَقد كَذَبَ الواشُونَ ما بُحْتُ عِندَهُمْ ... بِسِرٍّ وَلا أَرسَلتُهُم بِرَسولِ

أي: وما أرسلتهم برسالة.

وعلى ذلك فقوله جلَّ شأنه: ﴿فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ جارٍ على المبالغة، كأنه جعلهما معًا نفس الرسالة، ومثله قول العرب: رجلٌ عدلٌ وصدق.

• كما أن كلمة (رسول) تستعمل للمفرد والجمع، ومن استعمالها للجمع قول أبي ذؤيب الهذلي:

أَلِكْني إِلَيها وَخَيرُ الرَسُو ... لِ أَعْلَمُهُمْ بِنَواحي الخَبَرْ

فاستعمل (الرسول) بمعنى الرُّسُل.

• كما أنَّ إفراد (رسول) هنا أُرِيدَ به كونُهما على شريعة واحدة، فهما بمنزلة رسول واحد[١].

• توهُّم عدم المطابقة بين النعت والمنعوت:

زعموا أن القرآن خالف قاعدة المطابقة ـ في العدد ـ بين النعت والمنعوت، وفيما يلي الآيات التي استشهدوا بها:

١) قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ (آل عمران: ١٥)؛ حيث جاء الوصف مفردًا (مطهرة) وموصوفه جمعًا (أزواج)، والصواب ـ في زعمهم ـ أن يقال: وأزواج مطهرات.

٢) قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ (الأعراف: ١٨٠)؛ حيث وصف (الأسماء) وهي جمع، بالمفرد (الحسنى)!

٣) قوله تعالى: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾ (طه: ٥١)؛ حيث وصف (القرون) وهي جمع، بالمفرد (الأولى)!

وهذا جهلٌ منهم بقاعدة لغوية يسيرة تقول: إن جمع التكسير يجوز أن يُعَامَل معاملة المفرد المؤنث، كما يجوز أن يُعَامَل معاملة جمع المؤنث السالم، وعلى الوجه الأول جاءت الآية، والآيتان الأخريان:

﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ (البقرة: ٢٥).

---

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ١٨٠، الكشاف ٣ / ١٠٧ ـ ١٠٨، مفردات الراغب الأصفهاني (ر س ل)، البحر المحيط ٧ / ٨، التحرير والتنوير، المجلد التاسع، ج١٩، ص ١٨٩ .

﴿لَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ (النساء: ٥٧).

ويجوز أن يقال: أزواج مطهرات، وهما وجهان فصيحان[1]، بل ما جاءت به الآية الأولى أفصح الوجهين في هذا السياق؛ لأن جمع التكسير إذا أريد به الكثرة جاء على صيغة الواحدة، وإذا أريد به القلةُ جاء على صيغة جمع المؤنث السالم، والمراد في الآية جمع الكثرة؛ لأنه في مقام وصف نعيم الجنة، وقد ورد في الحديث الصحيح ما يدل على كثرة الأزواج في الجنة[2].

كما أن الأسماء والقرون في الآيتين التاليتين أريد بهما الكثرة؛ لذلك وصفت بالمفرد المؤنث بدلًا من جمع المؤنث السالم الذي يدل على القلة.

● توهُّم عدم المطابقة بين الحال وصاحبها:

زعموا مخالفة القرآن لقاعدة المطابقة العددية بين الحال وصاحبها، وشاهدهم على ذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ (الحج: ٥)؛ حيث جاء الحال بلفظ المفرد، وصاحبها بصيغة الجمع، والصواب - في زعمهم - أن يقال: ثم نخرجكم أطفالًا.

وقد سبق التعرُّض لمثل هذا عند الكلام على اسم الجمع، وأنه يستعمل بصورة واحدة للمفرد والمثنى، والجمع، نحو (خصم - ضيف - عدُوّ).

فكلمة (طفل) مفرد لفظًا، جمع في المعنى.

---

(١) الكشاف ١ / ٢٦٢ .

(٢) البحر المحيط ١ / ١١٧ .

وهناك وجه آخر: أن تكون مفردة، والمعنى: ثم نخرج كل واحد منكم طفلًا[١].

والملاحظ في الاستعمال القرآني أنه جاء بصيغة اسم الجمع (طِفْل) في ثلاثة مواضع: (الحج: ٥، النور: ٢١، غافر: ٦٧).

وفي هذه المواضع جميعًا يراد بالطفل: الذين لم يبلغوا الحلم.

أما الجمع (أطفال) فقد وردت مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَـٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ﴾ (النور: ٥٩).

ونلحظ هنا أن صيغة الجمع (أطفال) مستعملة للدلالة على: الذين بلغوا الحلم.

وهذا سرٌّ من أسرار لغة القرآن؛ حيث يستعمل الألفاظ المترادفة، أو التي شاع استخدامها على الترادف، لكي يشير - بهذا الاختلاف في الصيغة - إلى فارق دلالي دقيق قد لا يخطر بالبال في الوهلة الأولى، ومع تتبع السياقات القرآنية المختلفة، وتأملها تنجلي هذه التمايزات، والملامح الدلالية المرهفة التي تحتملها الألفاظ المختلفة في الصيغة، وإن شاع اتفاقها في المعنى.

● توهُّم عدم المطابقة بين الاسم الموصول وما يعود إليه:

زعموا أن القرآن قد أخطأ في استعمال الاسم الموصول؛ حيث جاء باسم موصول مفرد عائد على جمع؛ وذلك في قول اللّه تعالى: ﴿وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟﴾ (التوبة: ٦٩). والصواب - في زعمهم -

---

(١) الكشاف ٣ / ٦، البحر المحيط ٦ / ٣٥٢ .

أن يقال: وخضتم كالذين خاضوا!

ولو بذل صاحب هذه الشبهة جهدًا يسيرًا، بل لو قرأ الآية من أولها لما أورد هذه الشبهة، والآية بتمامها: ﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ﴾ (التوبة: ٦٩)، أي دخلتم في الباطل (وهو المعبَّر عنه بالخوض) كالباطل الذي دخلوا فيه. ومعنى العبارة بيِّنٌ لا يحتاج إلى مزيد بيان، والاسم الموصول جاء مفردًا؛ لأنه يعود على الخوض لا على الخائضين(١).

وحتى على تقدير ما فهمه صاحب هذه الشبهة من إعادة الاسم الموصول (الذي) على الخائضين، فليس في الآية خطأ، وقد ورد في كلام العرب استعمال (الذي) للجمع، مثل قول الشاعر:

وإنَّ الذي حانتْ بفلجٍ دماؤهُمْ   هُمُ القومُ كلُّ القومِ يا أمَّ خالدِ

ونظم الآية يقطع بصحة التفسير الأول؛ حيث إن هذا يناسب تركيب العبارة، وبناءها على التشبيه:

- فهناك تشبيه استمتاع هؤلاء باستمتاع أولئك: ﴿فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ﴾.
- وهناك تشبيه آخر معطوف على السابق هو تشبيه خوض هؤلاء بخوض أولئك: ﴿وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ﴾.

---

(١) معاني القرآن للفراء ١ / ٤٤١، الكشاف ٢ / ٢٠١، البحر المحيط ٥ / ٦٨ - ٦٩ .

هذا بالإضافة إلى وحدة زمن الأفعال في الآية كلها، وترابط هذه الأفعال بحرف العطف: (فاستمتعوا - فاستمتعتم - كما استمتع - وخضتم - خاضوا).

وأمّا قوله تعالى: ﴿أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ (النور: ٣١). فزعموا أن فيه خطأ؛ لأنه وصف الطفل ـ وهو مفرد في ظنهم ـ باسم موصول جمع هو (الذين)، وقد مضى الكلام عليه في المطابقة بين الحال وصاحبها في قوله تعالى:

﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ (الحج: ٥).

• توهُّم عدم المطابقة بين البدل والمبدل منه:

زعموا أن القرآن خالف قاعدة المطابقة العددية بين البدل والمبدل منه، وذلك في قول اللَّه تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء: ٦٩).

أولًا: كلمة (رفيقًا) هنا ليست بدلًا من (أولئك)، ولكنها حالٌ منها.

ثانيًا: كلمة (رفيق) مما يستوي فيه المفرد، والمثنى، والجمع (كالصديق، والخليط، والعدوّ)[١]، وقد سبق التَّعَرُّض لذلك مرارًا.

• المطابقة في النوع:

زعموا أن القرآن قد خالف قاعدة المطابقة في النوع، وذلك في تراكيب متعددة على النحو التالي:

---

(١) الكشاف ١ / ٥٤٠، البحر المحيط ٣ / ٢٨٨ - ٢٨٩ .

● توهُّم عدم المطابقة بين العدد والمعدود:

أي مخالفة القاعدة الجارية في تمييز العدد، واستدلوا لذلك بثلاث آيات هي:

١) قوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ (البقرة: ١٩٦). والصواب - في زعمهم - أن يقال: تلك عَشْر.

ولقد قلبوا الصواب خطأً، والخطأ صوابًا؛ فالقاعدة المعروفة للجميع تقرر أنَّ الأعداد من ثلاثة إلى عشرة تخالف المعدود في النوع، فنقول: عشرة رجالٍ، وعشر نساءٍ.

وكلمة (عشرة) في الآية تشير إلى الأيام، ومفردها مذكر، فوجب تأنيث العدد جريًا على القاعدة المذكورة.

وأمَّا الوصف (كاملة) ففائدته أنْ لا يُتَوَهَّمَ أن الواو في قوله تعالى: ﴿وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ بمعنى (أو) التخييرية، وأن يُعْلَمَ العددُ جملةً كما عُلِمَ تفصيلًا، فيُحاطَ به من وجهين؛ فيتأكَّد العلم، وأن يُعْلَمَ ـ أيضًا ـ أن المراد بالسبعةِ العددُ المُعَيَّن لا الكثرة (إذْ إن السبعة تُستعمَل في لغة العرب بمعنى العدد المُحَدَّد، كما تُستعمَل أيضًا لإفادة الكثرة دون تعيين).

كما أن صيام ثلاثة أيام في الحجِّ هو بَدَلٌ عن الهَدْى، وزِيدَ عليها صيام سبعة أيام بعد الرجوع من الحجِّ؛ لتُعَادل الأيامُ العشرةُ الهَدْيَ من غير نقصٍ في الثواب؛ وللإشارة إلى هذا التعادُل وصفت العشرة بأنها (كاملة).

كذلك فإنَّ في هذا الوصف بالكمال تاكيدًا للتوصية بصيامها

وعدم التهاوُن بها، فكأنما قيل: تلك عشرة كاملة فراعُوا كَمَالَها ولا تنقصوها[١].

وعلى ذلك فالآية موافقة تمام الموافقة للقواعد العربية، والاضطراب الذي وصموا به القرآن قائم في أذهانهم وناشئ عن جهلهم بأبسط القواعد!

٢) قوله تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ (الأعراف: ١٦٠)؛ حيث جاء العدد مُؤَنَّثًا (اثنتي عشرة)، والمعدود مذكرًا (أسباطًا). كما أن تمييز العدد (١٢) يكون مفردًا لا جمعًا، والصواب - في زعمهم - أن يقال: اثني عشر سبطًا. وعلى هذا ففي الآية مخالفة لقاعدة المطابقة بين التميز والمميَّز في العدد والنوع معًا.

وما زعموه باطل؛ لأن ما بُنِيَ على باطلٍ فهو باطل، وقد بنوا دعواهم على أساس أن (أسباطًا) تمييز، وهذا خطأ؛ لأن في الآية حذفًا، والتقدير: وقطعناهم اثنتي عشرة فرقة (أو قبيلة)، فالتمييز محذوف، وكلمة (أسباطًا) بدل من التمييز المحذوف، وكلمة (أممًا) نعت للبدل، أو بدل بعد بدل[٢].

وعلى ذلك فلا مخالفة في الآية لقاعدة المطابقة سواء من حيث النوع؛ حيث إن التمييز والمميز مؤنثان: (اثنتي عشرة فرقة)، وكلاهما مفرد أيضًا؛ ولهذا الحذف في الآية غرض بلاغي هو

---

(١) روح المعاني، الألوسي ٢/ ٨٣ - ٨٤ .

(٢) البحر المحيط ٤ / ٤٠٦ - ٤٠٧ .

الاستغناء عن التمييز المفهوم من السياق (قبيلة أو فرقة)، وإثبات ما ليس مفهومًا ولا عهد للمخاطبين به، وهو (الأسباط)؛ فالعرب تعرف القبيلة، ولا تعرف السِّبط الذي هو مرادف لمعنى القبيلة عند اليهود.

كما جاءت كلمة (أسباطًا) بصيغة الجمع لتناسب معنى التقطيع والتفرقة.

٣) قوله تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ (التحريم: ٤)؛ حيث جاء بالجمع (قلوبكما) لمعدود مثنى، والصواب - في زعمهم - أن يقال: صغا قلباكما.

والتركيب الذي اختاره الاستعمال القرآني هو الأشهر والأكثر استعمالًا؛ إذ إن للمثنى عند إضافته إلى ضمير المثنى ثلاث صور:

- أن يجمع المضاف فيقال: قلوبكما.
- أن يبقى المضاف على حاله من التثنية فيقال: قلباكما.
- أن يؤتى بلفظ المضاف مفردًا فيقال: قلبكما.

والصورة الثانية هي القياس، إلاّ أن غالب الاستعمال الفعلي الشائع في كلام العرب جاء على الصورة الأولى؛ لأنهم كرهوا الجمع بين تثنيتين (تثنية المضاف، وتثنية الضمير المضاف إليه)[١].

وقد جاءت الآية على الصورة المثلى للتركيب، وهي الصورة التي حبَّذها الاستعمال اللغوي كما نُقِل عن العرب.

---

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٩١ .

• توهُّم عدم المطابقة بين الضمير وما يعود عليه:

زعموا أن القرآن خالف قاعدة المطابقة في النوع بين الضمير ومَعَادِه، واستشهدوا لذلك بالآيتين التاليتين:

١) قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ (الأحزاب: ٣٣)؛ حيث جاء الضمير في (يطهِّركم) مذكرًا، والصواب في ظنهم أن يؤنث فيقال: (ويطهركن)؛ لأنهم توهموا أن المراد بـ "أهل البيت": نساء النبي ﷺ.

وهذا خطأ بَيِّنٌ وقع فيه صاحب الشبهة؛ لأن المراد بأهل البيت: النبيّ ﷺ، وعلي بن أبي طالب، والحسن، والحسين، وفاطمة الزهراء، وأمهات المؤمنين[(١)].

وعلى هذا فالخطاب شمل المذكر والمؤنث، ومعروف أنه إذا اجتمع المذكر والمؤنث غُلِّب المذكر، فالضمير في (عنكم)، و(يطهركم) يشمل هؤلاء جميعًا.

٢) قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ (النحل: ٦٦)؛ حيث جاء الضمير في (بطونه) مذكرًا، وهو عائد على الأنعام وهي مؤنثة، والصواب - في زعمهم - أن يقال: (بطونها).

الضمير في (بطونه) هنا عائدٌ على بعض الأنعام؛ لأن الذكور لا ألبانَ لها، والتقدير: نسقيكم مما في بطون بعض الأنعام. وكلمة (بعض) مذكرة، فعاد الضمير عليها مذكرًا لتخصيص بعضها، أي

---

(١) البحر المحيط ٧ / ٢٣١ - ٢٣٢ .

الإناث التي تدر اللبن.

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ﴾ (المؤمنون: ٢١) فقد جاء الضمير في (بطونها) مؤنثًا ليعم الأنعام كلها، بدليل قوله تعالى بعده: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ فعَمَّ الذكر والأنثى من الأنعام كلها؛ لأن مدار الحديث هنا على عموم منافعها، بينما في آية النحل خُصَّ بَعْضُ الأنعام لاقتصار الكلام على اللبن دون سائر المنافع(١).

● توهُّم عدم المطابقة بين الفعل والفاعل:

زعموا أن القرآن خالف قاعدة المطابقة ـ في النوع ـ بين الفعل وفاعله، وساقوا الشواهد التالية:

١) ﴿فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٧٥)؛ حيث إن الفاعل مؤنث (موعظة)، والفعل مذكر (جاءه)، والصواب - في زعمهم - أن يقال: جاءته.

وكذا قوله تعالى: ﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ (الأعراف: ٣٠)؛ حيث إن الفاعل مؤنث (الضلالة)، والفعل مذكر (حَقَّ)، والصواب - في زعمهم - أن يقال: (حقت) كما في الآية الأخرى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ (النحل: ٣٦).

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ﴾ (هود: ٦٧)؛ حيث إن الفاعل مؤنث (الصيحة)، والفعل مذكر (أخذ) والصواب - في

(١) البحر المحيط ٥ / ٥٠٩، كشف المعاني لابن جماعة، تحقيق/ د . محمد محمد داود، ص ١٣١ - ١٣٢ .

زعمهم - أن يقال: وأخذت، كما في الآية الأخرى: ﴿وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ﴾ (هود: ٩٤).

وقد جَهل صاحب هذه الشبهة القاعدة اللغوية البسيطة التي تقول: إنه لا يجب تأنيث الفعل مع الفاعل إلّا في حالتين:

الحالة الأولى: أن يكون الفاعل ضميرًا، مثل: هند قامت، أو الشمس طلعت.

الحالة الثانية: أن يكون الفاعل مؤنثًا (حقيقيًا) متصلًا بالفعل غير مفصول عنه، كما في: قامت هند، صاحت الدجاجة.

أمَّا إذا كان الفاعل غير ما سبق فأنت مخيَّرٌ بين التذكير والتأنيث، فيجوز أن تقول: طلع الشمس، وطلعت الشمس.

ولك أن تقول: أَعيَى الرجَالَ النساءُ، وأعيَتْ الرجالَ النساءُ.

والفاعل في الشواهد الثلاثة التي جاءوا بها مؤنث مجازي (موعظة - الضلالة - الصيحة)، ويجوز فيها الوجهان حتى وإن لم يُفْصَل بينها وبين فعلها بفاصل.

● توهُّم عدم المطابقة بين المبتدأ والخبر:

زعموا أن هناك مخالفة لقاعدة المطابقة ـ في النوع ـ بين المبتدأ والخبر في قول الله ﷻ: ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ﴾ (المزمل: ١٨)؛ حيث جاء المبتدأ مؤنثًا (السماء)، والخبر مذكرًا (منفطر)، والصواب - في زعمهم - أن يقال: السماء منفطرة به.

لتذكير الخبر هنا عدة أوجه، نذكر منها:

● أنه على تأويل السماء بالسقف.

• أنه على الحذف، والتقدير: السماءُ شيءٌ منفطر به، فكلمة (منفطر) صفة للخبر المحذوف.

• أنَّ السَّماء اسم جنس، مثل الشجر والجراد، ومثل هذه الأسماء يجوز فيها التذكير والتأنيث.

• أن لفظ السماء ممَّا يُذَكر ويؤنث، ومن تذكيره قول الشاعر:

فلو رَفَعَ السَّماءُ إليه قومًا لَحِقْنَا بالنجوم مع السحاب(١)

وعلى أيٍّ من هذه الأوجه فلا مخالفة في الآية.

ويلحق بما سبق تذكير خبر كان مع اسمها المؤنث في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ (مريم: ٢٨)؛ حيث جاء اسم كان مؤنثًا (أمُّك)، وخبرها مذكرًا في زعمهم (بغيًّا). وظنوا الصواب أن يقال: بغيَّة.

وهذا جهل فاحش من قائله؛ لأن كلمة (بَغِيّ) صيغة مبالغة من البغَاء ـ أي الفاحشة ـ على وزن (فعول)، والقاعدة اللغوية المعروفة تقول: إن صيغة (فعول) إذا كانت بمعنى (فاعل) يستوي فيها المذكر والمؤنث، فنقول: رجل صبور، وامرأة صبور، ورجل رءوف، وامرأة رءوف.

كما أن كلمة (بَغِيّ) من الألفاظ الخاصة بالمؤنث، ولذلك لا تلحقها التاء، مثل: حائض، ومرضع وحَصَان.

وعلى ذلك فلا مخالفة في الآية الكريمة.

---

(١) انظر: معاني القرآن للفراء ١/ ٣٨٠، القرطبي ١٩ / ٥١، الكشاف ٤ / ١٧٨، البحر المحيط ٨ / ٣٦٥.

ويلحق بما سبق أيضًا تذكير خبر الحرف الناسخ مع اسمه المؤنث، كما في قول اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: ٥٦)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (الشورى: ١٧).

في تذكير الخبر (قريب) هنا عدة وجوه، نذكر منها:

١) أن كلمة (قريب) لا تؤنث إلا إذا كانت بمعنى قرابة النُّسَب، فيقال: هذه المرأة قريبة فلانٍ، لا يختلف العرب في هذا.

أمَّا إذا كانت بمعنى قرب الزمان، أو المكان؛ فيجوز فيها التذكير والتأنيث، فيقال: دارُك منَّا قريبٌ، والدار مؤنثة، وتذكير قريب على تأويل: هي من مكان قريب. وقد جَمَع الشاعر بين الوجهين في قوله:

عَشِيَّةَ لا عفراءُ منكَ قريبةٌ فتدنو ولا عَفْراءُ مِنْكَ بَعيدُ[(١)]

٢) أنها ذكرت مع الرحمة في آية الأعراف؛ لأن الرحمة بدل عن

---

(١) معاني القرآن للفراء ١ / ٣٨٠: ٣٨١، والبيت لعروة بن حزام العذري، وله رواية أخرى في اللآلي وفي الأغاني على النحو التالي:

عَشِيَّةَ لا عفراء منك بعيدَّةٌ فَتَسْلُو ولا عفراء منك قَرِيب

وبعده قوله:

وإنّي لَتَغْشاني لِذِكْرَاك هزةٌ لها بين جلدي والعظام دبيبُ

مما يرجح هذه الرواية؛ لأن الباء هي الروي.

[انظر حاشية المحققين في الموضع السابق من معاني القرآن]. وعلى كلتا الروايتين، فقد جمع الشاعر بين التأنيث والتذكير لكلمتي (قريب، بعيد). مع إسناد كلٍّ منها لمؤنث (عفراء).

مذكر تأويله: العفو والغفران، أو المطر، أو الثواب[(١)]، وذكرت مع الساعة على معنى البعث، أو على حذف مضاف والتقدير: لعلَّ مجيءَ الساعة قريب[(٢)].

٣) أن كلمة (قريب) جاءت مذكرة على طريق النسب، والمعنى: ذات قرب.

٤) أن كلمة (قريب) نعت لمذكر محذوف، والتقدير: شيءٌ قريب.

٥) أو ذُكرت على تشبيه (قريب) - وهو فعيل بمعنى فاعل - بفعيل الذي بمعنى مفعول، وهذا الأخير يستوي فيه المذكر والمؤنث فيقال: رجل جريح، وامرأة جريح.

٦) أن كلمة (قريب) مصدر على وزن فعيل، مثل الضغيب (صوت الأرنب)، والنقيق (صوت الضفدع)، والمصدر يستعمل بلفظ واحد للمذكر والمؤنث، فيقال: رجلٌ عدل وامرأة عدل، وكذا يقال: رجل قريب وامرأة قريب[(٣)].

وغير ذلك من الوجوه التي تُجيز تذكير كلمة (قريب)، ولعلَّ أرجح هذه الأوجه ما قدَّمنا في أوَّلها، وكلها تصلح جوابًا عن شبهة هذا الواهم.

(١) البحر المحيط ٤ / ٣١٣ .

(٢) الكشاف ٣ / ٤٦٥، البحر المحيط ٧ / ٥١٣ .

(٣) أورد هذه الأقوال أبو حيان في: البحرالمحيط ٤ / ٣١٣، وأورد بعضها الزمخشري في: الكشاف ٢ / ٨٣ .

● توهُّم عدم المطابقة بين النعت والمنعوت:

زعموا أن القرآن خالف قاعدة المطابقة في النوع بين النعت والمنعوت، فأورد النعت مؤنثًا لمنعوت مذكر، واستشهدوا على ذلك بالآيتين التاليتين:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ (ق: ١١)؛ حيث إن المنعوت مؤنث (بلدة)، ونعته مذكر (مَيْتًا).

لفظ (مَيْت) مما يستوي فيه المذكر والمؤنث[١]؛ وذلك لأنه وصف على وزن من أوزان المصدر هو (فَعْل)[٢]، فلمَّا شابه المصدر أخذ حكمه في بقائه على لفظه للمذكر والمؤنث.

والآية الأخرى: قوله تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ (الحاقة: ٦)؛ حيث وصفت الريح وهي مؤنث بكلمة (صَرْصَرٍ)، وهي مذكرة، والصواب - في زعمهم - أن يقال: بِرِيحٍ صرصرة!.

وقد جهل صاحب هذه الشبهة أن لفظ (صرصر) لا يوصَف به إلَّا الريح[٣]، وإذن فلا ضرورة لتأنيثه بالتاء، شأنه شأن الأوصاف الخاصة بالمؤنث مثل: حامل، مرضع، طامث.

وعلى ما تقدَّم لا يكون في القرآن مخالفة لقاعدة المطابقة في النوع بين النعت والمنعوت.

---

(١) اللسان (م و ت .) .

(٢) البحر المحيط ٦ / ٥٠٥ .

(٣) التحرير والتنوير، مجلد ١١، جـ ٢٤ ، ص ٢٥٩ .

● توهُّم عدم المطابقة بين الحال وصاحبها:

زعموا أن القرآن الكريم خالف قاعدة المطابقة في النوع بين الحال وصاحبها، فجاء بحال على صيغة التذكير، مع أن صاحب الحال مؤنث، واستشهدوا لذلك بقول اللَّه تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا﴾ (الأنعام: ٦).

وقد جهل صاحب هذه الشبهة أن صيغة (مِفْعَال) يستوي فيها المذكر والمؤنث؛ فالعرب تقول: ناقة مِمْغَار: إذا كان من عادتها أن يحمرَّ لبنها من داء، وناقة مخراط: إذا كان من عادتها أن تُخْرِط، أي يَخرج لبنها منعقدًا[١].

ووصفوا المرأة التي من عادتها أن لا تتزين بالحلي فقالوا: امرأة معطال، والمرأة التي من عاداتها أن تضع الإناث وصفوها بقولهم: مئناث، والتي من عادتها أن تضع الذكور وصفوها بقولهم: امرأة مذكار، والتي من عادتها أن تلد الحمقى بقولهم: امرأة محماق[٢].

● توهُّم وجود أخطاء نحوية في القرآن الكريم:

زعموا أن في القرآن أخطاء نحوية، من قبيل رفع ما حقه النصب أو الجر، أو نصب ما حقُّه الرفع أو الجر... إلخ. وفيما يلي شبهاتهم والآيات التي استشهدوا بها، والرد عليهم:

١) قوله تعالى: ﴿۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَـٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ

---

(١) المخصص ٤/ ٤٢، المزهر ٢ / ٢١٥، ديوان الأدب ١/ ٣١١ .

(٢) المخصص ٤ / ٤٢، المزهر ٢ / ٣١٥، الأمالي لأبي علي القالي ١ / ٢١، أدب الكاتب ص ٢٥٥، الصاحبي ص ١٩٠ . ١٩١ .

لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ (البقرة: ١٢٤)، زعموا أن القرآن قد أخطأ فنصب الفاعل (إبراهيمَ) ورفع المفعول (ربُّه)، وكذا في (الظالمين) وهو - في ظنهم - فاعل (ينال).

أمَّا قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِۦمَ رَبُّهُۥ﴾ فالفاعل (ربُّه)، والمفعول (إبراهيمَ)، وقُدِّم المفعول لسببين:

السبب الأول: سبب بلاغي، وهو إفادة الاهتمام بمن وقع به الابتلاء؛ إذ من المعلوم أن اللَّه هو المبتلِي، وإبراهيم عليه السلام جد العرب، والقصة مسوقة لدفعهم إلى اتباع سنة أبيهم إبراهيم في امتثال أوامر اللَّه، واجتناب نواهيه.

والسبب الثاني: تركيبي؛ ففي مثل هذا التركيب يتحتم تقديم المفعول على الفاعل؛ كي لا يعود الضمير (المتصل بالفاعل) على متأخر في اللفظ والرتبة؛ إذ لو قيل: (ابتلى رَبُّه إبراهيمَ) لعاد الضمير (الهاء في ربه) على متأخر لفظًا ورتبة (إبراهيم)، وهذا يقود إلى اضطراب تركيبي والتباس دلاليّ؛ لأنه يكون حينئذٍ إضمارًا قبل الذكر[١]، أي وجود ضمير لا صاحب له، وعلى المخاطَب في هذه الحالة أن يفتش عن صاحب الضمير حتى يعثر عليه فيفهم المعنى!

والأمر أيسر من ذلك، فتقديم المفعول على الفاعل كثير مشهور في كلام العرب بحيث لا يحتاج إلى استشهاد.

وأمَّا قوله تعالى: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فالفاعل فيه (عهدي) و(الظالمين) مفعول به، والمعنى: أن العهدَ لا ينال

---

(١) الكشاف ١ / ٣٠٩، البحر المحيط ١ / ٣٧٥ .

الظالمين، أي لا يصيبهم.

وجعْلُ العهد فاعلًا: من باب المجاز العقلي الشائع في اللغة شيوعًا كبيرًا، ولا قيام للغة إلَّا بوجوده بل إن اللغة تنهار انهيارًا كاملًا بغير هذا النوع من المجاز، وإلَّا فكيف نعبِّر عن معانٍ من قبيل: ناله الجهد، حلَّ به التعب، أرهقته المشاكل.. إلخ؟ حيث جُعِل كلٌّ من: الجهد والتعب والمشاكل فاعلًا، والإنسان مفعولًا. وكذلك يَصِحُّ في العهد أن (يَنَالَ) أي يُصِيب فيكون فاعلًا كما في الآية، ويصح أن (يُنَالَ) فيكون مفعولًا، كما في قراءة أبي رجاء وقتادة والأعمش (وكلها قراءات شاذة): "لا ينال عهدي الظالمون"[1]، وكما في قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران: ٩٢).

٢) قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ (طه: ٦٣). زعموا أنه رفع ما حقه النصب؛ حيث جاء اسم إن (هذان) مرفوعًا؛ لأن الألف علامة الرفع للمثنى.

أولًا: في هذه الآية ست قراءات[2]، منها القراءة التي استندوا

---

(١) البحر المحيط ١ / ٣٧٧ .

(٢) الأولى: وهي قراءة المدنيين والكوفيين "إنّ هذان لساحران" بتشديد النون، وهذان بالألف، واللام في ساحران .

الثانية: قراءة الزهري وإسماعيل بن قسطنطين والخليل بن أحمد وعاصم في إحدى الروايتين: "إنْ هذان لساحران" .

الثالثة: قراءة عبد الله بن مسعود "إنْ هذان إلاّ ساحران" .

الرابعة: قراءة عبد الله: "أنْ هذان ساحرانِ." . =

إليها في تخطئة القرآن الكريم، وهي بتشديد نون (إنَّ)، و(هذان) بالألف، مع إثبات اللام في (لساحران)، وهي قراءة المدنيين والكوفيين، وهي قراءة متواترة.

ثانيًا: للعلماء في توجيه هذه القراءة أقوال عديدة نختار منها:

أنها على لغة من لغات العرب تلزم المثنى الألفَ في جميع مواقعه الإعرابية، وتعامله معاملة المفرد المقصور، مثل: رِضَا، عَصَا، ومن ذلك قول الشاعر:

فأطْرَقَ إطراقَ الشجاعِ ولو يَرَى مَسَاغًا لِنَاباهُ الشُّجاعُ لَصَمَّمَا

فقال: (لناباه). وهي لغة فصيحة مشهورة لكثير من العرب مثل: كنانة، وبني الحارث وخثعم، وزبيد، وبني العنبر، وبني الهجيم، ومراد، وعذرة[1].

فهل كل هؤلاء العرب يخطئون في استعمال لغتهم؟ ومن أين يؤخذ الصواب إذن؟ أو ليس النحو العربي استقراءً لما جرى عليه كلام العرب، ووصفًا لطرائقهم في التركيب وغيره من مستويات اللغة؟!

٣) قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ﴾ (البقرة: ١٧٧)؛ حيث جاء المعطوف منصوبًا (الصابرين)، والمعطوف عليه مرفوع (المُوفُون).

= الخامسة: قراءة أُبَيّ: «إنْ هذان إلاّ ساحران.».

السادسة: قراءة الأعمش، والجحدري، والحسن، والنخعي، وابن جير: «إنّ هذين لساحران».

(١) انظر: الكشاف ٢ / ٥٤٣، البحر المحيط ٦ / ٢٥٥.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ (النساء: ١٦٢)؛ حيث إن المعطوف الوحيد المنصوب في الآية هو (المقيمين)، وما سبقه وما تلاه مرفوع: (الراسخون - المؤمنون - المؤتون - المؤمنون).

وادِّعاء وجود خطأ نحوي في الآيتين ليس إلا جهلًا بأساليب اللغة العربية، وأسرار البلاغة فيها، وهو قصور في النظر لا يرى صاحبه سوى المستوى السطحي الظاهر للتركيب، أما على المستوى الأعمق فالكلمتان في الآية منصوبتان على الاختصاص والمدح، والتقدير: وأخصُّ الصابرين، وأخصُّ المقيمين، أو على تقدير: أمدح الصابرين، والمقيمين.

ولهذا الأسلوب غرض بلاغي هو التنبيه على فضل الصبر في الشدائد ومواطن القتال على سائر الأعمال؛ فالصبر مبدأ الفضائل وجامعها؛ إذ لا فضيلة إلا وللصبر فيها أثر بليغ؛ وكذا في (المقيمين) لبيان فضيلة الصلاة على سائر الأعمال المذكورة في الآية، ولِذَا غُيِّرَ إعرابها بالنصب على المدح والاختصاص؛ ليكون ذلك أدعى إلى لفت الأنظار والأسماع، فالكلام عند اختلافه يصير كأنه أنواع متباينة، وعند الاتحاد في الإعراب يكون وجهًا واحدًا[(١)].

وباب النصب على المدح والاختصاص باب واسع في العربية حتى لقد عقد له سيبويه بابًا في كتابه أورد فيه كثيرًا من الشواهد

(١) الكشاف ١ / ٣٣١، ١ / ٥٨٢، البحر المحيط ٢ / ٧ - ٨، ٣ / ٣٩٥ - ٣٩٦ .

والأمثلة من كلام العرب الفصيح[١].

٤) قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٩﴾﴾ (المائدة: ٦٩)؛ حيث رفع المعطوف على منصوب (الصابئون)، على حين جاءت الكلمة نفسها منصوبة في مثل هذا السياق في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ (البقرة: ٦٢)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ (الحج: ١٧).

وجمهور المفسرين قدَّروا قوله تعالى: "والصابئون" مبتدأ وجعلوه مقدمًا من تأخير، وقدّروا له خبرًا محذوفًا لدلالة خبر (إنَّ) عليه، وأنَّ أصل النظم: إنَّ الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى لهم أجرهم إلخ، والصابئون كذلك، جعلوه كقول ضابئ بن الحارث:

فَإِنِّي وَقَيَّارٌ بِها لَغَرِيبُ

وبعض المفسرين قدَّروا تقادير أخرى أنهاها الألوسي إلى خمسة.

والذي سلكناه أوضح وأجرى على أسلوب النظم، وأليق بمعنى هذه الآية.

---

(١) الكتاب، سيبويه ٢/ ٢٣٣ - ٢٣٥ .

وبعد فممّا يجب أن يُوقَن به أن هذا اللفظ كذلك نزل، وكذلك نطق به النبي ﷺ، وكذلك تلقّاه المسلمون منه وقرأوه، وكُتِب في المصاحف، وهم عرب خُلَّص، فكان لنا أصلًا، نتعرف منه أسلوبًا من أساليب استعمال العرب في العطف، وإن كان استعمالًا غير شائع، لكنه من الفصاحة والإيجاز بمكان، وذلك أنَّ من الشائع في الكلام أنه إذا أُتِيَ بكلام مؤكد بحرف (إنَّ) وأُتِي باسم إنّ وخبرها وأريد أن يعطفوا على اسمها معطوفًا هو غريب في ذلك الحكم - جيء بالمعطوف الغريب مرفوعًا؛ ليدلُّوا بذلك على أنهم أرادوا عطف الجمل لا عطف المفردات، فيقدِّر السامع خبرًا بحسب سياق الكلام. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ (التوبة: ٣)، أي ورسوله كذلك، فإن براءته منهم - في حال كونه من ذي نسبهم وصهرهم - أمر كالغريب؛ ليظهر منه أن آصرة الدين أعظم من جميع تلك الأواصر، وكذلك هذا المعطوف هنا، لَمَّا كان الصابئون أبعد عن الهدى من اليهود والنصارى في حال الجاهلية قبل مجيء الإسلام؛ لأنهم التزموا عبادة الكواكب، وكانوا مع ذلك تحق لهم النجاة إن آمنوا بالله واليوم الآخر وعملوا صالحًا، وكان الإتيان بلفظهم مرفوعًا تنبيهًا على ذلك. لكن كان الجري على الغالب يقتضي أن لا يُؤتَى بهذا المعطوف مرفوعًا إلا بعد أن تستوفي (إنَّ) خبرها، إنّما كان الغالب في كلام العرب أن يؤتى بالاسم المقصود به هذا الحكم مؤخرًا، أمَّا تقديمه - كما في هذه الآية - فقد يتراءى للنّاظر أنه ينافي المقصد الذي لأجله خُولِفَ حكم إعرابه، ولكن هذا أيضًا استعمال عزيز، وهو أن يجمع بين مقتضى حالين، وهما:

الدلالة على غرابة المُخبر عنه في هذا الحكم، والتنبيه على تعجيل الإعلام بهذا الخبر، فإن الصابئين يكادون ييأسون من هذا الحكم أو ييأس منهم من يسمع الحكم على المسلمين واليهود. فنبَّه الكلَّ على أنَّ عفو اللَّه عظيم، لا يضيق عن شمولهم، فهذا موجب التقديم مع الرفع، ولو لم يُقَدَّم ما حصل ذلك الاعتبار، كما أنه لو لم يُرفَعْ لصار معطوفًا على اسم (إنَّ) فلم يكن عطفه عطف جملة.

وقد جاء ذكر الصابئين في سورة الحج مقدمًا على النصارى ومنصوبًا، فحصل هناك مقتضى حال واحدة وهو المبادرة بتعجيل الإعلام بشمول فصل القضاء بينهم وأنهم أمام عدل اللَّه يساوون غيرهم[1].

٥) قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (الأنبياء: ٨٠). ظن مثير هذه الشبهة أن كلمة **(شاكرون)** حال، ومن حق الحال أن يُنْصَب، وعلى ذلك الوهم ففي الآية خطأ نحوي؛ حيث جاءت كلمة **(شاكرون)** مرفوعة بالواو، والصواب - عندهم - أن يقال: فهل أنتم شاكرين!! وهذه شبهة لا تستحق الرد عليها؛ لأن صاحب الشبهة لا يعرف أبجديات النحو العربي، وليس في الجملة حَال، **وإعرابها كالتالي**:

- **هل**: حرف استفهام لا محل له من الإعراب.
- **أنتم**: ضمير مبني على السكون في محل رفع مبتدأ.
- **شاكرون**: خبر المبتدأ مرفوع بالواو.

ولا وجه مطلقًا لما ادَّعاه صاحب هذه الشبهة.

---

(١) التحرير والتنوير، مجلد ٤، ص ٢٧٠ - ٢٧١.

٦) قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ نَعْمَآءَ بَعْدَ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ ٱلسَّيِّـَٔاتُ عَنِّيٓ﴾ (هود: ١٠)؛ حيث جاءت كلمة (ضرَّاءَ) منصوبة بالفتحة! والصواب - في زعمهم - أنها مجرورة بالإضافة، فكان ينبغي أن يقال: بَعْدَ ضرَّاءٍ!!

وقد التبس الأمر على صاحب الشبهة فظنَّ أن كلمة (ضرَّاءَ) منصوبة؛ لأنه لا يعرف من علامات الجر سوى الكسرة.

ونقول له: لو أنك راجعت أيَّ كتاب في النحو لعلمت أن كلمة (ضَرَّاءَ) ممنوعة من الصرف؛ لانتهائها بألف التأنيث الممدودة؛ ولذا تُجَرُّ بالفتحة نيابة عن الكسرة، وإعرابها في الآية: مضاف إليه مجرور (**بالفتحة**).

٧) قوله تعالى: ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا۠ ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا۟ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾﴾ (الإنسان: ١٥ - ١٨)؛ حيث جاءت كلمة (قواريرًا) وكلمة (سلسبيلًا) مصروفتين، وهما ممنوعتان من الصرف، وكذا كلمة (سلاسلًا) في قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾﴾ (الإنسان: ٤). وهذا - في زعمهم - خطأ؛ لأنه صرف ما حقُّه المنعُ من الصرف.

أولًا: التنوين في هذه الكلمات (قواريرًا - سلسبيلًا - سلاسلًا) ليس تنوين صرف؛ وإنما هو بدل من ألف الإطلاق في ختام الآيات، وفي (قواريرًا) الثانية على الإتباع، أي التناسب الصوتي بين كلمة الفاصلة والتالية لها، وفي كلمة (سلاسلًا) - على قراءة من

قرأ بتنوينها - إجراء للوصل مجرى الوقف[١].

والغرض من ألف الإطلاق مراعاة الجرس الموسيقي في فواصل الآيات، وهذه خاصة من خصائص النظم القرآني[٢].

ثانيًا: حتى لو افترضنا أن تنوين هذه الكلمات هو تنوين صرف، فليس هذا خطأً، بل إن من العرب من يصرف كل ممنوع من الصرف ما عدا (أفعل من)[٣].

وعلى ذلك يجوز صرف كلمات (قوارير - سلاسل - سلسبيل)، وهذا منقول عن العرب أصحاب هذه اللغة.

وسواء أكان تنوين هذه الكلمات - كما رأينا - تنوين صرف، أو تنوين إطلاقٍ، فلا خطأ في الاستعمال القرآني.

٨) قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾﴾ (المنافقون: ١٠)؛ حيث جاء الفعل (أكنْ) مجزومًا، والصواب أن يكون منصوبًا؛ لأنه معطوف على فعل منصوب (فأصَّدَّقَ).

جُزِمَ الفعل (أكنْ) في الآية الكريمة عطفًا على المَحَلِّ؛ وتقدير الكلام: إنْ أخرتني أصدقْ وأكُنْ[٤]. والعطف على المحلِّ شائع معروف في كلام العرب، قال الشاعر:

---

(١) الكشاف ٤/ ١٩٥ - ١٩٨ .

(٢) البحر المحيط ٨/ ٣٩٧ .

(٣) شرح الرضى على كافية ابن الحاجب ١/ ٣٨ .

(٤) الكشاف ٤ / ١١٢، البحر المحيط ٨ / ٢٧٥ .

فَأَبْلُوني بَلِيَّتَكُم لَعَلِّي أُصَالِحُكُم وأَسْتَدْرِجْ نَوَيًّا[١]

فجاء بأحد الفعلين المعطوفين مرفوعًا (أصالِحُ)، وبالآخر مجزومًا (وأستدرجْ).

والجمع بين الفعلين (فأصدق - وأكن) بالعطف - مع نصب أحدهما بفاء السببية وجزم الآخر بالعطف على محل جواب الشرط - هذا الجمع من بدائع الاستعمال القرآني ؛ لما فيه من إيجاز بليغ مع تمام المعنى في أقل لفظ ممكن ، وذلك أن تقدير الكلام : لولا أخرتني إلى أجل قريب فأَصَّدَّقَ وأكونَ من الصالحين (أي فيكون هذا التأخير سببًا في تصدقي وصلاحي)، ثم عاد السائل فكرَّر سؤاله بصورة الشرط : إنْ تؤخرني إلى أجلٍ قريبٍ أصدقْ وأكُنْ من الصالحين.

فاجتماع وظيفتين نحويتين في الفعلين المعطوفين، أدَّى إلى الدلالة على معنيين دلاليين هما السببية والشرط، في لفظ موجزٍ معجز[٢].

٩) قوله تعالى: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ (الأنبياء: ٣). زعموا أن الآية جاءت بفاعلين (واو الجماعة، الذين) لفعل واحد (أسرَّ). والصواب - في زعمهم - أن يقال: وأسرَّ النجوى الذين ظلموا.

وقد ذكر ابن هشام في هذه الآية أحد عشر وجهًا[٣]، نذكر منها:

- أن الواو علامة جمع فقط، وليست فاعلًا، فهي مثل تاء التأنيث في (قالت)، وهذه لغة طيئ، وعليه قول الشاعر:

---

(١) مغني اللبيب، ص ٦٢٠ ـ ٦٢١ .

(٢) التحرير والتنوير، مجلد ١٣، جـ٢٨، ص ٢٥٤ .

(٣) مغني اللبيب، ص ٤٨٠ ـ ٤٨١ .

يَلُومُونَني في اشتراء النخيـ لِ أهلي فكلُّهُمُ ألْوَمُ

وقول الشاعر:

تَوَلَّى قِتالَ المارِقينَ بِنَفسِهِ وَقَد أسلَماهُ مُبعَدٌ وَحَميمُ

ومنه في الحديث الشريف قوله ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل، وملائكة بالنهار»[١].

- أن الواو هي الفاعل، و(الذين) بدل منها.
- أن الواو فاعل، و(الذين) خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هم الذين.
- أن الواو فاعل، و(الذين) بدل من واو (استمعوه) في الآية السابقة.
- أن الواو فاعل، و(الذين) منصوب على الاختصاص والذم بفعل محذوف والتقدير: أذمُّ أو أعني الذين ظلموا.
- أن الواو فاعل، و (الذين) مجرور على أنه بدل من الناس في قوله تعالى: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ (الأنبياء: ١).

ولعل أرجح هذه التخريجات وغيرها: الأول والثاني، وهو ما يُشعِر به صنيع كثير من المفسرين؛ حيث بدأوا بهما، كالزمخشري[٢]، وأبي حيان[٣]، وقالا تعليقًا على كون الواو فاعلًا، و(الذين) بدلًا منها:

---

(١) البخاري (فتح الباري: ٦٨٧٨، ٦٩٣٢)، ومسلم (بشرح النووي: ٥٤، ٨٢٢، ١٠٠١، ١٤٦٦).

(٢) الكشاف ٢ / ٥٦٢.

(٣) البحر المحيط ٦ / ٢٩٧.

أبدل (الذين ظلموا) من واو (أسروا)؛ إشعارًا بأنهم الموسومون بالظلم الفاحش فيما أسرُّوا به.

يُضاف إلى ما تقدَّم أن مجيء الآية على هذه الصورة من التركيب فيه فائدة بلاغية؛ حيث جاءت على نسق الاستئناف البلاغي، وهو أن تتقدم جملة من الكلام تثير في ذهن السامع تساؤلًا يَدِبُّ في نفسه؛ فتأتي جملة أخرى تجيب عن هذا التساؤل الذي ليس له صورة لفظية في الكلام، وإنما هو مُقَدَّرٌ ورودُه في ذهن السامع أو القارئ، فكأن جملة ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى﴾قد أثارت في ذهن المخاطب سؤالًا هو: من الذين أسروا النجوى؟ فكان الجواب: ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ وفي هذا الأسلوب إشارة إلى تقبيح نجواهم ووسم فعلهم هذا بأنه ظلم[١].

● ادِّعاء وجود اضطراب في بعض التراكيب القرآنية:

من ذلك ما زعموه من وجود لبس في:

● استخدام الضمائر:

زعموا أن هناك اضطرابًا في استعمال القرآن للضمير، في الآيات التالية:

١) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ (المائدة: ١١١)؛ حيث جاء الضمير المستتر في الفعل (اشهد) للمفرد المخاطب، والصواب - في زعمهم - أن يقال: قالوا آمنَّا ونشهد بأننا مسلمون!! وذلك - في دعواهم - لأن الفعل (اشهد) عائد على المتكلم الجمع (الحواريين).

(١) الكشاف ٢/ ٥٦٢ .

وهذه الشبهة تدل على جهل فاحش من صاحبها بأبسط قواعد اللغة، من جهة التركيب، ومن جهة المعنى:

• من جهة التركيب: الفعل (اشهد) خطاب من الحواريين للَّه الواحد الأحد، أي: آمنَّا، واشهد يا رب، لنا بهذا الإيمان.

• ومن جهة المعنى: لو أنهم قالوا كما اقترح صاحب الشبهة: آمنَّا ونشهد بأننا مسلمون، لكان في هذا الكلام تكرارٌ ولغو لا فائدة منه؛ لأن قولهم (آمنَّا) يعادل قولهم (شهدنا بأننا مسلمون) وما الفارق بين إقرار المرء بإيمانه، وأن يشهد لنفسه بهذا الإيمان؟!

أما نظم الآية الكريمة فتضمن شيئين:

• إقرارهم بالإيمان: (قالوا آمنا).

• دعاؤهم اللَّه ﷻ أن يشهد لهم بهذا الإيمان: (واشهد بأننا مسلمون).

ولعل صاحب هذه الشبهة قد اشتبه عليه الفعل (واشهد) فظنَّه فعلًا مضارعًا، ومنشأ هذا الوهم جهله بالفارق بين همزة المضارع، وهمزة فعل الطلب، فهمزة المضارع همزة قطع (وأَشْهَدُ) وهمزة فعل الطلب همزة وصل (واشهَدْ) وهو ما جاء في الآية.

فكيف يتصدى من جهل هذا الفرق اليسير لنقد القرآن الكريم، ويدَّعي وجود اضطراب في بنائه التركيبي؟!

٢) قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٨ لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٩﴾ (الفتح: ٨ - ٩).

زعموا أن في الآيتين اضطرابًا في استخدام الضمائر من وجهين:

الأول : أن هناك انتقالًا من مخاطبة الرسول ﷺ (أرسلناك. . .) إلى مخاطبة المؤمنين (لتؤمنوا).

الثاني : أن ضمير الغائب في (تُعَزِّروه، تُوقِّروه) يعود على الرسول المذكور آخرًا، وفي (تسبحوه) عائد على اللَّه المذكور أولًا.

ويؤيدون شبهتهم بقولهم: فلو كان الضمير في الأفعال الثلاثة (تعزروه - وتوقروه - وتسبحوه) عائدًا على النبي ﷺ فهذا كفر؛ لأن التسبيح لا يكون لغير اللَّه سبحانه.

وإن كان الضمير في الأفعال الثلاثة عائدًا على اللَّه ﷻ فهذا أيضًا كفر؛ لأن اللَّه ﷻ لا يحتاج إلى من يعزره ويقويه.

وليس في الآيتين اضطراب، بل هو فنٌّ بلاغي يسمى الالتفات، وهو الانتقال من حالة خطاب إلى حالة أخرى، كالانتقال من الغائب إلى المتكلم، أو من خطاب المفرد إلى خطاب الجمع. وهو أسلوب عربي معروف، ومنه قول النابغة:

أَلا زَعَمَت بَنو عَبسٍ بِأَنّي ... أَلا كَذَبوا كَبيرُ السِنِّ فانِ

وهو التفات من معنى إلى معنى آخر، ومنه قول شاعر الحماسة:

فإنَّك لم تبعدْ على متعهِّدٍ ... بلَى كلُّ مَنْ تَحْتَ التراب بعيدُ(١)

وإذن فالتحول من خطاب النبي ﷺ إلى خطاب المؤمنين ليس اضطرابًا؛ لأن النبي ﷺ خُوطب بالرسالة والشهادة، والبشارة

---

(١) أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، د. حسن طبل، دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٩٨م، ص ١٨ ـ ٢١ .

والنذارة في قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا﴾ وخوطب المؤمنون بالغاية من تلك الرسالة في قوله: ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ وهو التفات جَلِيٌّ في التركيب والمعنى.

أما عن ضمائر الغائب في الأفعال الثلاثة: (وتعزروه ـ وتوقروه ـ وتسبحوه) فليس فيها اضطراب؛ لأنها جميعًا عائدة إلى اسم الجلالة ومعنى (تعزروه): تعزروا دينه، أي تُقَوُّوه وتنصروه. ولا شبهة للكفر في نصر دين اللَّه ﷻ وتقويته، قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ (محمد: ٧). ومعنى (تُوَقِّرُوه): تُعَظِّمُوه.

وهذا هو الوجه الراجح في مرجع الضمائر، واقتصر عليه الزمخشري[١]، ورجَّحه أبو حيَّان[٢]، وأيَّده الطاهر بن عاشور بقوله: ضمائر الغيبة المنصوبة الثلاثة عائدة إلى اسم الجلالة؛ لأن إفراد الضمائر مع كون المذكور قبلها اسمين ـ دليل على أن المراد أحدُهما، والقرينة على تعيين المراد (أنه اللَّه سبحانه) ذكرُ (وتسبحوه)؛ ولأن عطف "ورسوله" على لفظ الجلالة اعتداد بأن الإيمان بالرسول ﷺ إيمان باللَّه، فالمقصود هو الإيمان باللَّه[٣].

٣) قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ وَفَرِحُواْ بِهَا جَآءَتۡهَا رِيحٌ عَاصِفٞ﴾ (يونس: ٢٢)؛ حيث انتقل الكلام من ضمير المخاطب (كنتم) إلى ضمير الغائب (بهم - فرحوا) والصواب - في ظنِّهم - أن يقال: حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بكم بريح

(١) الكشاف ١ / ٥٤٢ .

(٢) البحر المحيط ٧ / ٩١ .

(٣) التحرير والتنوير، مجلد ١٢، جـ٢٦، ص ١٥٦ .

طيبة، وفرحتم بها.. وبذلك يستمر الكلام على نسق واحد، وتتوحد الضمائر.

جاءت الآية الكريمة على نسق أسلوب بلاغي يُعْرَف بالالتفات، وهو ما أشرنا إليه في الآية السابقة.

وها هنا بدأت الآية بتوجيه الخطاب للناس كافَّة (مؤمنين وغير مؤمنين)، امتنانًا بنعمة التسيير في البحر، وهي شاملة لجميع الناس، فَحَسُنَ خطابهم بذلك، ثم التفت من الخطاب إلى الغيبة؛ لأن هذه الحالة (حالة جرى السفن) هي حالة غياب، فالسفن حملت راكبيها، وغابت بهم في خضم الأمواج، واستمر الكلام بضمير الغائبين في قوله تعالى: ﴿وَفَرِحُواْ بِهَا﴾؛ لأنه يخص الباغين الذين لم يشكروا نعمة اللَّه، فأخرج اللَّه ﷻ المؤمنين من الخطاب وأفرده للكافرين لئلا يشترك المؤمنون مع الكافرين في هذا العقاب والهلاك في البحر[(١)].

هكذا جاء الالتفات في الآية من ضمير المخاطبين إلى ضمير الغائبين متوافقًا مع المعنى، فلما كان السياق خاصًّا بالنعمة جاء ضمير المخاطب الجمع لجميع السامعين، فلمَّا تَهَيَّأت للانتقال إلى ذكر الضراء حدث الانتقال من ضمير الخطاب إلى ضمير الغيبة بما يخلص وقوع الضراء بالمشركين.. ثم استمر ضمير الغيبة في الآية التالية خاصًّا بالمشركين وحدهم: ﴿فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمۡ إِذَا هُمۡ يَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۗ﴾ (يونس: ٢٣)؛ فَتمخَّض الضمير للمشركين[(٢)].

---

(١) البحر المحيط ٥ / ١٣٨ ـ ١٣٩ .

(٢) التحرير والتنوير، مجلد ٦، جـ١١، ص ١٣٥ .

ليس في الضمائر اضطراب إذن، بل إن تركيب الآية على هذه الصورة جاء متَّسقًا تمام الاتساق، فجاء كل ضمير مطابقًا لحال صاحبه، هذا إلى ما في الانتقال من الخطاب إلى الغياب من تفريق بين حالين: حال المؤمنين الذين شكروا نعمة اللّٰه، وحال المشركين الذين امتحنوا بخطر الهلاك في البحر فارتفعت أصواتهم بدعاء اللّٰه ﷻ ثم لَمَّا أنجاهم استمروا في بغيهم وطغيانهم. وكانت الضمائر على النحو التالي:

كنتم : خطاب عام يشمل جميع السامعين من مؤمن وكافر، ثم أخرج المؤمنين وأفرد الضمير لغير المؤمنين، بهم، أنجاهم، هم، يبغون، فرحوا.

ثم عاد الخطاب إلى جميع الناس، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (يونس: ٢٣).

● زمن الفعل:

في القرآن الكريم تَنَوُّعٌ أسلوبيٌّ في أزمنة الأفعال، فنجد الماضي مُعَبَّرًا عنه بلفظ دالٍّ على الحاضر، أو المستقبل، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ (آل عمران: ٥٩)؛ حيث عَبَّر بالمضارع **(يكون)** بدلًا من الماضي **(كان)**، وقد زعموا أن هذا خطأ.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ (الصافات: ١٠٢)؛ حيث عبَّر باللفظ الدالِّ على الحاضر **(أَرَى)**، وهو حكاية حالة

ماضية، والصواب - في زعمهم - أن يقال: إنِّي رأيت.

والتعبير عن الماضي بلفظ الحاضر شائع معروف في كلام العرب، قال رؤبة:

لَقَدْ أَتَى فِي رَمَضانَ الماضِي   جارِيَةٌ في دِرْعِها الفَضْفاضِ
تُقَطِّعُ الحَدِيثَ بِالإيْماضِ   أَبْيَضُ مِنْ أُخْتِ بَنِي إِباضِ

وقال امرؤ القيس:

مَطَوْتُ بِهِم حَتى تَكِلَّ مَطِيُّهُمْ   وحتَّى الجِيَادُ مَا يُقَدْنَ بِأَرْسَانِ

وليس العدول عن لفظ إلى غيره عبثًا، بل له أسرارٌ بلاغية، وهي ـ فيما يخص الشواهد التي أمامنا ـ استحضار الحال الماضية في الذهن، حتى كأنها مشاهدة وقت الإخبار[١].

فقوله ﷻ: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ حكاية حال ماضية، فالأمر (كن) عبارة عن إيجاد الصورة التي صار بها الإنسان إنسانًا[٢]، وصيغة المضارع (فيكون) جاءت بدلًا من الماضي لغرض التعبير عن تجدد الخلق واستمراره في ذرية آدم، وإثارة ذهن المشاهد لاستحضار هذه الصورة كأنها ماثلة أمامه في اللحظة الحاضرة.

ونزيدهم شواهد من كتاب اللّه على التعبير عن الماضي بلفظ الحاضر:

• ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ

---

(١) مغنى اللبيب، ص ٩٠٥ .

(٢) البحر المحيط ٢ / ٤٧٨ .

ٱلرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج: ٣١) . فعبَّر بالمضارع (يشرك) للدلالة على التجدد والاستمرار؛ فالوصف التالي حال متجددة لكل من يشرك بالله، ثم عَبَّر بالماضي (خَرَّ)؛ لدلالة الماضي على الثبوت والوقوع، فهو أمر لا فِكَاكَ منه، ثم جاء الفعلان التاليان بلفظ الحاضر (تَخْطَفُهُ - تَهْوِي) لاستثارة الذهن كي يستحضر هذه الحال، وكَأَنَّها ماثلة متجددة أمامه أبدًا.

• ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ۝٩﴾ (فاطر: ٩)؛ حيث جاءت ثلاثة أفعال بصيغة الماضي (أرسل - فسقناه - فأحيينا)، بينما جاء فعل واحد بصيغة المضارع (فتثير)؛ وقصد بلفظ الحاضر هنا استحضار تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الباهرة في إثارة السحاب: يبدو أولًا قطعًا، ثم تتضامُّ القطع متقلِّبة بين أطوارٍ حتى تصير ركامًا[1].

وهكذا تفعل العرب بكل فعل فيه نوعٌ من التميُّز والخصوصية أو الأهمية، كما في قول تأبَّطَ شرًّا:

بأنِّي قَدْ لَقِيتُ الغُول تَهْوِي ... بِسَهْبٍ كَالصَحِيفَةِ صَحْصَحانِ

فَأَضْرِبُها بلا دَهَشٍ فَخَرَّتْ ... صريعًا لليدينِ ولِلْجِرَانِ

ميز الفعل (فأضربها) بصيغة الحاضر؛ لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التي تشجع فيها - بزعمه - على ضرب الغول، كأنَّه يُبَصِّرُهم إيَّاها ويُطْلِعُهُم عليها كأنها مُشَاهَدَة الآن، تعجيبًا من جرأته وثباته وشجاعته[2].

(١) مغني اللبيب، ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .
(٢) الكشاف ٣ / ٣٠١ - ٣٠٢ .

وأمَّا سائر الأفعال فجاءت بصيغة الماضي؛ لأن المقصود منها إثبات وقوع هذه الأفعال وتحقُّقها، أما الحالة التي قصد استحضارها في الأذهان فهي حالة تشكل السحاب، وتجمعه حتى يصير مطرًا، وقد عُبِّرَ عن هذه بلفظ الحاضر.

ومما قد يظنه الجاهلون اضطرابًا في استخدام الأفعال: تعبير القرآن عن الحاضر بلفظ الماضي، نحو قوله ﷻ:

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (الأحزاب: ٢٧).

وقوله ﷻ: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٤٠).

وفي كثير من الآيات التي فيها وصف اللَّه ﷻ بلفظ (كان)، والمراد التعبير عن أَزَلِيَّة هذا الوصف[1].

وغير ذلك الكثير في كتاب اللَّه تعالى، وفي كلام العرب من التعبير عن الحاضر بلفظ الماضي، والتعبير عن الماضي بلفظ الحاضر. ولكل استعمال سياقه الذي يخلع عليه دلالةً بعينها تناسب المقام.

● حروف الجر:

زعم بعضهم أن ثمة اضطرابًا وتعارضًا في استخدام القرآن لحروف الجر[2]، واستدلوا لذلك بقول اللَّه ﷻ: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا﴾ (الأنعام: ١٦٤). فعلَّق فعل الكسب بحرف الاستعلاء (على). بينما في موضع آخر علق الكسب مرة باللام وأخرى بعلى،

---

(١) مفردات الأصفهاني (كان).

(٢) راجع بتفصيل: القرآن وتفاعل المعاني/ محمد محمد داود. - القاهرة: دار غريب، ٢٠٠٢م.

وهو قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة: ٢٨٦) وهذا - في ظنهم - تناقض.

في آية البقرة اقترن كسب الخير بحرف الملك (اللام)، واكتساب الشر بحرف الاستعلاء (على) ؛ لأن الشر أوزار وأثقال يحملها صاحبه فهي (عليه) وهو تحتها يعاني وطأتها، بينما الخير مما تَفْرح به النفوس وتُسَرّ، فهو (لها) بمنزلة الملك[(١)].

وأما آية الأنعام فاقترن فعل الكسب فيها بحرف الاستعلاء (على) فقط ؛ لأن سياق هذه الآية خاصٌّ بعاقبة الكسب، والمعنى: لا تكسب نفس شيئًا يكون عاقبته على أحد غيرها. وجاءت الآية جوابًا عن قولهم للمؤمنين: ﴿ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾ (العنكبوت: ١٢) ؛ ولذا كان الجواب بيان عاقبة الخطايا، وأن كل نفس (عليها) ما كسبت من آثام[(٢)].

فليس لما ادَّعَوْه أساس يقوم عليه، اللهم إلا جهلهم بأهمية السياق، وأنه لا يجوز عزل أي عنصر لغويّ عن سياقه، أو لعله تجاهل منهم لدور السياق في الدلالة، بهدف إثارة الشبهات، والتعمية على المقاصد الحقيقية.

● حروف العطف:

زعموا أن القرآن الكريم قد استخدم حروف العطف في غير موضعها، واستدلُّوا لزعمهم بقول الله ﷻ: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ

---

(١) البحر المحيط ٢ / ٣٦٧ .

(٢) الكشاف ٢ / ٦٤ - ٦٥، البحر المحيط ٤ / ٢٦٣ .

ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ (النساء: ٣). حيث إن الواو تدل على الجمع، وبذلك فإن الآية تدل على إباحة الزواج بتسع نساء (مثنى + ثلاث + رباع) = تسع نساء!!

والأمر ليس كما زعموا؛ لأن الأعداد التي تُجْمَعُ قسمان:

القسم الأول: قِسْمٌ يُؤْتَى بِهِ لِيُضَمَّ بعضُه إلى بعض، وهو الأعداد الأصول، ومنه قوله تعالى: ﴿فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖ فِي ٱلۡحَجِّ وَسَبۡعَةٍ إِذَا رَجَعۡتُمۡۗ تِلۡكَ عَشَرَةٞ كَامِلَةٞۗ﴾ (البقرة: ١٩٦)، وقوله تعالى: ﴿وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗۚ﴾ (الأعراف: ١٤٢)، فها هنا جاءت الواو للجمع بين الأعداد.

والقسم الثاني: يراد به الانفراد لا أن ينضم بعضه إلى بعض، وهو الأعداد المعدولة، كما في الآية التي استدلوا بها، وكما في قوله ﷻ: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ مَّثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۚ﴾ (فاطر: ١) أي: منهم جماعة ذوو جناحين، وجماعة ذوو ثلاثة أجنحة، وجماعة ذوو أربعة أجنحة، فكلُّ جنسٍ مفردٌ بعدده.

ومن ذلك قول الشاعر:

ولكنَّما أهْلِي بِوَادٍ أنيسُهُ ... ذِئَابٌ تَبَغَّي الناس مَثْنَى ومَوْحَدُ

وهو لا يريد ضم المثنى إلى الموحد، بل وصف مهاجمة الذئاب للناس بحالتين: حالة انفراد كل واحدٍ منها، وحالة اجتماع كل واحد مع آخر[1].

---

(١) مغني اللبيب، ص ٨٥٧ - ٨٥٨.

وإذن فالمراد من الآية إباحة التعدد على أيٍّ واحدة من الصور المذكورة: مثنى، ثلاث، رباع.

ولا يجوز هنا التعبير بـ(**أو**) بدلًا من الواو؛ لأنه بدخول (**أو**) يصبح المعنى أنهم جميعًا لا ينكحون إلا على واحدة من الصور المذكورة، فإمَّا أن يتزوج كل رجل اثنتين، وإمَّا أن يتزوج كل رجل ثلاثًا، وإمَّا أن يتزوج كل رجل أربعًا. وليس هذا هو المراد، بل المراد إباحة أيِّ صورة من صور التعدد لكل من شاء أن يكون له أكثر من زوجة[١].

وقد أجمع الفقهاء على عدم إباحة أكثر من أربع؛ لأنهم فهموا المراد من الآية، وعَلِموا أن الأسلوب العربي لا يجيز الجمع في الأعداد المعدولة، بل حين تأتي هذه الأعداد معطوفة بالواو، فالمراد إفراد كل عدد منها، على نحو ما بينًّا في الآيات السابقة.

● **أسماء الإشارة:**

زعموا أن هناك اضطرابًا وتعارضًا في الاستخدام القرآني لأسماء الإشارة، واستدلوا لدعواهم بقول الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ (البقرة: ٢) وقوله ﷻ: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾ (الأنعام: ٩٢). حيث أشار ﷻ إلى القرآن في الآية الأولى بأداة الإشارة للبعيد (**ذلك**)، وفي الآية الثانية بأداة الإشارة للقريب (**هذا**).

وإننا نلتمس العذر لصاحب هذه الدعوى؛ لأنه قد خفي عليه تنوع أساليب التعبير في العربية؛ بل وفي اللغات عامة، ولهذا التنوع

(١) انظر: الفقه على المذاهب الأربعة، عبدالرحمن الجزيري ٤/ ١٢٠ .

مقتضياته؛ فلكل عبارة سياقها الذي يقتضي وجهًا بعينه من وجوه التركيب، ينسحب هذا على أدوات الإشارة وغيرها.

فقد يُشَار إلى القريب بالأداة الموضوعة للإشارة إلى البعيد؛ إذا أريد تعظيم المشار إليه وبيان عُلُوِّ منزلته، كما أن تبادل البعيد مع القريب وارد في العربية.

وفي الإشارة إلى القرآن العظيم باسم الإشارة **(ذلك)** في الآية الأولى ملمحان بلاغيان:

الأول: تعظيم القرآن، وهذا على حَدَّ قول الشاعر:

أَقولُ لَهُ وَالرُّمحُ يَأطِرُ مَتنَهُ تأمَّلْ خُفَافًا إِنَّني أَنَا ذلكا(١)

والثاني: زيادة التنبيه، وهذا الغرض البلاغي لا يتحقق إلَّا بالمخالفة، أي أن يؤتى بأداة الإشارة للبعيد في حين أن المشار إليه حاضر ماثل، كما في البيت المذكور.

وقد صرح النحاة بجواز استعمال **(هذا)**، **(ذلك)** في مثل هذا السياق، ومن ذلك قول ابن مالك:

"وقد ينوب ذو البعد عن ذي القرب لعظمة المشير أو المشار إليه، وذو القرب عن ذي البعد لحكاية الحال، وقد يتعاقبان مشارًا بهما إلى ما وَلِيَاهُ من الكلام"(٢).

والقرآن الحكيم استعمل أداة البعد في آية البقرة لما سبق بيانُه.

---

(١) التحرير والتنوير ١/ ٢٢٠ ـ ٢٢١، والبيت لخفاف بن ندبة، أحد شعراء العرب وفرسانهم المشهورين.

(٢) شرح التسهيل لابن مالك ١/ ٢٤٨.

وأمَّا في الآية الثانية فجاء باسم الإشارة للقريب (**هذا**)؛ لأنه قد سبق الكلام على الكتب السماوية المنزلة قبل القرآن، في قوله ﷻ:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾﴾ (الأنعام: ٩١).

ثم استؤنف الكلام على كتاب آخر غير "الكتاب الذي جاء به موسى"، وهو القرآن الكريم الذي ينزل عليهم (**الآن**): ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ﴾، فأشير إليه بإشارة القريب كي لا يضطرب الكلام ويلتبس؛ إذ لو قيل: "وذلك كتاب أنزلناه مبارك"، لكان الكلام استمرارًا لما قبله، وحينئذٍ يكون المشار إليه هو كتاب موسى المذكور.

من هنا آثر القرآن الانتقال إلى الحديث عن القرآن بلفظ الإشارة للقريب (**هذا**) ليصرف الأذهان عما سبق ذكره ويلفتها إلى الكتاب الذي يتنزل عليهم، الحاضر بين أيديهم لترغيبهم في العكوف عليه وتدبر آياته.

فلكل تركيب لغوي سياقه الذي يقتضي مقتضيات تعبيرية بعينها، حتى وإن تساوت أساليب التعبير في نقل المعنى، يظل لكل تركيب خصوصيته (**البلاغية**) الزائدة على مجرد نقل المعنى.

وإذن فليس ثمة تعارض بين الإشارة إلى القرآن الكريم مرة بـ(**ذلك**)، وأخرى بـ(**هذا**)، بل حكم عالية وملامح بلاغية رائعة.

● أسلوب القسم:

زعموا أن هناك تناقضًا في الاستعمال القرآني لأسلوب القسم، واستدلوا لزعمهم بقول الله ﷻ: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ۝١﴾ (البلد: ١) وقوله ﷻ: ﴿وَهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ ٱلۡأَمِينِ ۝٣﴾ (التين: ٣).

فجاء فعل القسم منفيًّا في آية البلد، ثم جاء مثبتًا في آية التين - وهذا - في ظنهم - تناقض.

أولًا: القسم في كلتا الآيتين مثبتٌ وليس منفيًّا، والمشكلة في فهمكم لمعنى (لا) في أسلوب القسم.

ثانيًا: (لا) في مثل هذه المواضع داخلة في الكلام لتقويته وتأكيده، وليس لنفيه، نحو قوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذۡ رَأَيۡتَهُمۡ ضَلُّوٓاْ ۝٩٢ أَلَّا تَتَّبِعَنِۖ أَفَعَصَيۡتَ أَمۡرِي ۝٩٣﴾ (طه: ٩٢ - ٩٣). وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسۡجُدَ إِذۡ أَمَرۡتُكَۖ﴾ (الأعراف: ١٢)، ويوضحه ما في الآية الأخرى: ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ (ص: ٧٥)، والسياق واحد في الآيتين، فتكون (لا) في الآية الأولى داخلة للتقوية والتأكيد، ولهذا الاستعمال نظائر في كلام العرب، منها قول الأحوص:

وَتَلْحَيْنَنِي في اللَّهْوِ أنْ لا أُحِبَّهُ ... وَلِلَّهْوِ دَاعٍ دائبٌ غيرُ غافِلِ

أي: أن أُحِبَّه، بزيادة (لا) للتأكيد.

ثالثًا: من العلماء من ذهب إلى أن (لا) في مثل هذه المواضع نافية، ولكنها ليست نافية للقسم، بل لشيء تقدم، وهو ما حكى عنهم كثيرًا من إنكار البعث، فقيل لهم: (لا) - أي ليس الأمر كما زعمتم - ثم استؤنف القسم.

وصح ذلك لأن القرآن كله كالسورة الواحدة، ولهذا يذكر الشيء في سورة وجوابه في سورة أخرى، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۝٦﴾ (الحجر: ٦). وجاء الرد عليه في قوله تعالى: ﴿مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ (القلم: ٢)(١).

رابعًا: من العلماء من ذهب إلى أن عبارة **(لا أقسم) صيغة تحقيق** وتوكيد للقسم، وأصلها أنها امتناع من القسم تَحَرُّجًا وخشية من الحنث، فشاع استعمال ذلك في كل قسم يراد تحقيقه، واعتبر حرف **(لا)** كالمزيد(٢).

وعلى كل فإن **(لا)** ليست نافية للقسم بل مؤكدة له، سواء أخذنا بقول من قال: إنها كالمزيد، أو بقول من قال: إنها نفي لشيء تقدم، وعلى ذلك فلا تعارض بين قوله تعالى: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ۝١﴾، وقوله ﷻ: ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣﴾.

● حذف جواب الشرط:

زعموا أنَّ هناك مخالفة تقود إلى اللبس في الاستعمال القرآني لأسلوب الشرط، وذلك بسبب إغفال ذكر جواب الشرط أحيانًا، واستدلوا لزعمهم بقول الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٥﴾ (يوسف: ١٥).

وبادئ ذي بدء نقول لهم: إن حذف جواب الشرط شائع كثيرًا في

---

(١) مغني اللبيب، ص ٣٢٧ ـ ٣٢٨ .

(٢) التحرير والتنوير، مجلد ١٤، جـ ٢٩، ص ١٤١ .

كلام العرب، وقد تكرر في عديد من آيات الله ﷻ، كقوله تعالى:

• ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾﴾ (الأنعام: ٣٥)، تقدير جواب الشرط المحذوف: ما آمنوا.

• ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ (الرعد: ٣١)، تقدير جواب الشرط المحذوف: لَمَا آمنوا به.

• ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (يس: ٤٥)، تقدير جواب الشرط المحذوف: أعرضوا.

• ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ (النور: ١٠)، تقدير جواب الشرط المحذوف: لهلكتم.

• ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾﴾ (السجدة: ١٢). تقدير جواب الشرط المحذوف: لرأيت أمرًا فظيعًا[1].

أمَّا جواب (لَمَّا) في آية يوسف التي أمامنا ففيه ثلاثة احتمالات:

الأول: أنه مثبت في الآية رقم (١٧) وهو: قالوا، أي لَمَّا ذهبوا به وكان كيت وكيت، قالوا يا أبانا.

الثاني: أنه مثبت في الآية نفسها، وهو (وأوحينا)، والواو زائدة، كما في قول امرئ القيس:

---

(١) مغني اللبيب، ص ٨٤٩ - ٨٥٠، وفيه المزيد من الشواهد على حذف جواب الشرط.

فَلَمّا أَجَزنا ساحَةَ الحَيِّ وَانتَحى   بِنا بَطنُ خَبتٍ ذي حِقافٍ عَقَنقَلِ

فجواب الشرط (انتحى)، والواو زائدة.

الثالث: أن الجواب محذوف يدل عليه ما قبله، والتقدير: فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب - جعلوه فيها[1].

ومثل هذا الحذف كثير في القرآن، وهو من الإيجاز الخاص بالقرآن، فهو تقليل في اللفظ لظهور المعنى[2].

وعلى أيٍّ من الاحتمالات تسقط دعواهم اضطراب الاستعمال القرآني لأسلوب الشرط، وتظهر أغراض بلاغية رائعة.

• وضع الاسم الموصول موضع المصدر:

زعموا أن هناك اضطرابًا تركيبيًّا في قول اللَّه ﷻ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ (البقرة: ١٧٧)؛ حيث إن المبتدأ (البرّ) في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ دالٌّ على معنى لا على ذات، ولكن جاء خبره (مَنْ) وهو اسم موصول دال على ذات.

وفي هذا اضطراب، والصواب - في ظنهم - أن يقال: ولكن البرَّ أن تؤمنوا.

وقد أعدت صياغة الشبهة؛ لأنهم صاغوها بطريقة خاطئة، فقالوا: أتى باسم الفاعل بدل المصدر. وليس في الآية اسم فاعل.

---

(١) البحر المحيط ٥ / ٢٨٧ .

(٢) التحرير والتنوير، مجلد ٦ ، ج١٢، ص ٢٣٣ .

وموضع الاشتباه عندهم هو مجيء (مَنْ) ـ وهو اسم دالٌّ على ذات ـ خبرًا عن معنى: (البَرّ).

وتركيب الآية على هذا النحو مجازيٌّ؛ لأنه لا يخبر عن معنى بذات، ولكن الآية لها تخريجات منها:

١) أنها من باب الوصف بالمصدر نحو: زيدٌ عدلٌ، أي كأنه العدل لشدة تحريه العدل.

٢) على تقدير مضاف محذوف من الأول، والتقدير: ولكن صاحبَ البر مَنْ آمَنْ.

٣) على تقدير مضاف محذوف من الثاني، والتقدير: ولكن البِرَّ برُّ من آمن.

ورجَّح كثير من النحاة هذا التقدير الأخير، ومنهم سيبويه وقطرب، وأبو حيان[1]، والزمخشري[2]، وابن هشام[3].

وفي كلام العرب نظائر لهذا، نحو قول الخنساء:

تَرْتَعُ مَا رَتَعَتْ حتَّى إِذَا ادَّكرتْ فإنَّمَا هِيَ إِقْبَالٌ وإدْبَار[4]

تريد أن تصف سرعة الفرس، فجعلت الفرس هي الإقبال والإدبار نفسهما.

وفي الآية بمجيئها على هذا النسق التركيبي معنى دقيق مرهف لمن

---

(١) انظر: البحر المحيط ٢ / ٣ .

(٢) الكشاف ١ / ٣٣٠ .

(٣) مغني اللبيب،ص ٢٠١ ـ ٢٠٢، ٨١٤ .

(٤) أنشده الزمخشري في: الكشاف ١ / ٣٣٠ .

تأمل، وهو أن الإيمان متمكن في قلوب المؤمنين، فلو قيل: ولكن البر أن تؤمنوا، لكان الإيمان المدعو إليه مجرد فكرة، ولكن لما أخبر عن هذا المعنى (الإيمان) بالذوات التي تحمله (مَنْ) التحم الإيمان بالمؤمن، والمؤمن بالإيمان، فصار إيمانًا عمليًا متمكنًا في القلوب.

وإذا كانت الشبهات المذكورة سابقًا قد تَبيَّنَ تهافتها وسقوطها وضعفها، واتضح ما فيها من جهل أحيانًا، وغش وتدليس أحيانًا أخرى، فإن من الغريب أن نجد في شبهاتهم فوق ذلك ما يشير إلى تطاولهم، مثال ذلك ادعاؤهم أن القرآن الحكيم قد أقر بجنون النبي ﷺ وذلك في قول الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ﴾ (الأعراف: ١٨٤ - ١٨٥). ويفسرون هذه الآية بقولهم: هل نسوا ما بصاحبهم من جنة كما نسوا أن يتفكروا في ملكوت السماوات والأرض؟!

وهذا محض افتراء وتلفيق وخداع؛ فقد فَسَّروا (ما) في الآية الأولى على أنها موصولة (بمعنى الذي)، وعلى هذا التفسير يكون المعنى:

أو لم يتفكروا الذي بصاحبهم من جِنَّة؟!

والصحيح الذي لا يجهله أحدٌ ممن يعرف شيئًا عن قواعد العربية أن (ما) في الآية نافية، والمعنى: أو لم يتفكروا أنه ليس بصاحبهم من جنة، وما هو إلا نذير مبين.

وأما الاستفهام في الآية الثانية فهو استفهام إنكاري ينكر عليهم أنهم لم يتفكروا في خلق السماوات والأرض، كما أنكر عليهم في الآية السابقة أنهم اتهموا النبي ﷺ ولو أنهم تفكروا لعلموا أن ليس به من

جِنَّة، وأن خلق السماوات والأرض دليل على وجود الخالق سبحانه.

ثم كيف يُعْقَل أنْ يُقرَّ القرآن بجنون النبي ﷺ المنزل عليه القرآن؟!

أليس هذا تناقضًا في الدَّعْوى؟!

هل يُعقَل أن يبعث المولى ﷻ رسولًا ثم بعد ذلك يحكم بجنونه؟! إنّ ذلك لمستَبعد جدًّا، حتى في حياتنا اليومية حينما يختار أحد الناس رسولًا إلى غيره.

فكيف يُحال في حق البشر فعل ذلك ويُقال بفعله في حق اللَّه - تعالى اللَّه عن ذلك علوًّا كبيرًا - وحاشا لرسول اللَّه ﷺ أن يُوصف بذلك.

إن صاحب الدعوى يقتطع من الآيتين أجزاءً يُفسرها على هواه فيقول عن قوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾: هل نَسُوا ما بصاحبهم من خَبَل وجنون.؟! ويقول عن قوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مثلما قال عن سابقتها من أنهم نسوا أن ينظروا في عجائب السماوات والأرض.

ويُضاف إلى الاقتطاع سوء الفهم والتفسير الخاطئ، فهو يُفسر قوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا﴾، ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا﴾ بمعنى: هل نَسُوا، وهذا عين الخطأ.

وأصحاب الفهم السليم يقرأون الآية كلها ويفهمون معناها، ولو فكَّر صاحب الدَّعوى قليلًا لاستراح كثيرًا.

فالآية الأولى بها عبارة: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ﴾، وبها أيضًا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، فكيف يجتمع الضِّدَّان؟! ومعلوم في مبادئ المنطق والعقل أن الضدَّين لا يجتمعان.

يُضاف إلى ذلك وجود "ما" في الآية وهي حرف نفي، ولكنَّ صاحبنا فهمها على أنها اسم موصول.

وبعد هذا الإعياء من الاقتطاع، والتَّلفيق، ومحاولة لَيّ عنق النص القرآني واستنطاقه بعكس ما يعنيه، بعد هذا فقد أثار صاحبنا شفقتنا؛ لذلك نلفت نظره إلى التفسير الصحيح للآية، وكما يتضح من سبب نزولها أن اللّه ﷻ استنكر على الكفار أن يصفوا الرسول ﷺ بالجنون دون أن يُفَكِّروا ويُعْمِلُوا أذهانهم في كلامه ومنهجه؛ لأن الرسول لم يَنْهَهُم إلا عن كل رذيلة، ولم يَدْعُهُم إلاّ إلى كل فضيلة، فهل هكذا يكون المجانين؟! ثم يُقرر ﷻ في عبارة قاطعة أنه ﷺ بريءٌ من أيّ شبهة جنون فيقول ﷻ: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ﴾، أي: ليس به أدنى جنون و"ما" في الآية كما قُلْنا سابقًا نافية، وليست موصولة كما يزعمون، وتتضح بلاغة الآية في توظيف إمكانيات اللغة، وتوظيف مفرداتها للهدف الذي جاءت من أجله، فاستخدم - سبحانه - كلمة "صاحبهم" التي تدل على معرفتهم التَّامة به، وأنهم أعلم الناس بأنَّه ليس مجنونًا.

كما جاءت كلمة (جِنَّة) نكرة لتُفيد العموم والشُّمول، أي ليس به أي شبهة جنون[١].

---

(١) تفسير الطبري، طبع مصطفى البابي الحلبي: القاهرة، ١٩٦٨، ٩/١٣٦، تفسير البغوي، تحقيق/ خالد عبد الرحمن العك، مروان سوار، دار المعرفة: بيروت، ٢/٢١٩، الفخر الرازي (مفاتيح الغيب)، دار الفكر: بيروت - ط٣، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥، ٨/٧٩-٨١، البحر المحيط، دار الفكر: بيروت، ٤/ ٤٣١-٤٣٢، تفسير أبي السعود، دار إحياء التراث العربي: بيروت، ٣/ ٢٩٨-٢٩٩، روح المعاني ٥/١٢٧-١٢٨، في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق: القاهرة، ط ١١، ١٤٠٥هـ. ١٩٨٥م، ٣/١٤٠٥ - ١٤٠٧.

الفصل الثاني

ويضم:

- شبهات صرفية
- شبهات دلالية
- شبهات بلاغية

شبهات صرفية

زعم بعضهم أن القرآن الكريم قد استعمل جمع القلة مكان جمع الكثرة، وذلك في الآيتين التاليتين:

١) قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿١٨٤﴾﴾ (البقرة: ١٨٣ - ١٨٤)؛ حيث جاء جمع المؤنث السالم (معدودات) - وهو من جموع القلة - وَصْفًا لعدد من أعداد الكثرة (٣٠ يومًا أو نحوها). والصواب - في زعمهم - أن يقال: أيامًا معدودة.

أولًا: لم يتفق النحاة على أن جمعي التصحيح (جمع المذكر السالم، وجمع المؤنث السالم) من جموع القلة، بل الراجح عند أكثر النحاة أنهما لمطلق الجمع من غير نظر إلى القلة أو الكثرة؛ فيصلحان لكل منهما[١].

ثانيًا: قد يستعار جمع القلة ليعبر به عن الكثرة، والعكس، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٖ﴾ مع وجود جمع القلة (أقراء)[٢].

ثالثًا: بافتراض أن جمع المؤنث السالم من صيغ جموع القلة،

---

(١) شرح الرضى على الكافية ٢/ ١٩١ .

(٢) السابق .

فإن للوصف به في الآية فائدة بلاغية، هي التسهيل على المكلف بأن أيام الصوم قليلة يسيرة، هذا على تفسير الصيام المراد هنا بصيام رمضان، وهو مذهب جمهور المفسرين.

ومن المفسرين من ذهب إلى أن المراد بالصيام في هذه الآية، صيام ثلاثة أيام من كل شهر[١]، وعلى هذا القول فلا مشكلة في استخدام كلمة (معدودات) إن قلنا إنها من صيغ جموع القلة.

رابعًا: أن البديل لوصف الأيام (ثلاثين أو ثلاثة) هو كلمة (معدودة)، وهي مفردة، وجَلِيٌّ لمن يعقل أن المفرد أدل على القلة من جمع القلة!

خامسًا: أن الوصف بمعدودات أو معدودة ـ هو في حد ذاته ـ تقليل وحصر للعدد، كما يقال: دراهم معدودة، أي قليلة منحصرة.

٢) قوله تعالى: ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾ (يوسف: ٤٣). زعموا أن الصواب أن يقال: سبع سنابل خضر، ولم يعلِّلوا ما ذكروه.

أولًا: كلمة (سنبلة) لها ثلاث صيغ للجمع: سنبل: وهو اسم جنس جمعي. وسنابل: وهو جمع كثرة. وسنبلات: وهو جمع مؤنث سالم، وهو لمطلق الجمع من غير نظر إلى القلة أو الكثرة، كما ذكرنا، وقد يعبِّر عن القلة عند بعض النحاة.

وقد اختار القرآن الكريم أدق الصيغ الثلاثة في وصف العدد (سبع) فلو قيل: (سنابل) - كما زعمتم - لكان خطأ؛ لأنه استخدام

(١) الكشاف ١ / ٣٣٤، البحر المحيط ٢ / ٣٠ .

لجمع الكثرة في عدد أقل من عشرة، ولا يصح استعمال جمع الكثرة إلا فيما زاد على عشرة.

ثانيًا: لو كان مرادهم أن كلمة (سنبلة) لا تجمع جمعًا مؤنثًا سالمًا، فهذا خطأ صريح؛ لأن كل اسم آخره تاء (سواء أكان مؤنثًا أم مذكرًا، عاقلًا أو غير عاقل) ـ يصح جمعه بألف وتاء[١].

كذلك ادعوا أن القرآن الكريم استعمل جمع الكثرة في موضع يناسبه جمع القلة، وذلك في قول اللّٰه تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ (البقرة: ٨٠).

والصواب ـ في زعمهم ـ أن يقال: أيامًا معدودات، وقد بنوا زعمهم هذا على افتراضين:

الافتراض الأول: أن (معدودة) يوصَف بها العدد الكثير، و(معدودات) يوصَف بها العدد القليل. وهذا غير صحيح كما تقدم؛ لأن (معدودات) لمطلق الجمع قليلًا كان المعدود أم كثيرًا، وأمَّا (معدودة) فهي وصف للأيام، والأيام جمع تكسير يصح وصفه بالمفرد كما يصح وصفه بجمع المؤنث السالم، وفي كلتا الحالتين يفيد الوصف قلة عدد الأيام؛ لأنها منحصرة في العدِّ.

الافتراض الثاني: أن مدة عذاب اليهود في النار سبعة أيام، وحينئذٍ يناسبها الوصف بجمع المؤنث السالم الدال على القلة في رأي بعض النحاة.

---

(١) شرح الرضى على الكافية ٢/ ١٨٨ .

لكن هذا التأويل للأيام المعدودة فاسدٌ؛ لأنه مَبْنَيٌّ على أن اليهود سيعذبون في النار يومًا مقابل كل ألف عام، وعدد أيام الدنيا سبعة آلاف عام، فتكون مدة عذابهم سبعة أيام.

وهذا جهل وترديد للخرافات القديمة؛ لأن الدنيا عمرها - حسب آخر تقديرات أهل العلم - خمسة عشر مليارًا من الأعوام، هذا ما انتهت إليه علوم الفلك والكونيات الحديثة[1]، وعلى زعمهم هذا فإنهم سيعذَّبون خمسة عشر مليار يوم، ولعلَّ هذا قليل على مااقترفوه من جرائم!

وعلى كلا القولين اللذين ادَّعاهما اليهود في مدة العذاب المقدَّر عليهم[2]، فإنه يصح وصف كليهما بـ (معدودة) - كما في آية البقرة - كما يصح وصفهما بـ (معدودات) كما في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ (آل عمران: ٢٤).

وعلى هذين القولين لليهود، وجه ابن جماعة الآيتين فقال: قوله

(١) انظر: المفهوم الحديث للزمان والمكان، ب. س. ديفيز، ترجمة: د. السيد عطا، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٨، ص٢٣٩، تاريخ موجز للزمان (من الانفجار الكبير حتى الثقوب السوداء)، ستيفن هوكنج، ترجمة / د. مصطفى إبراهيم فهمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة - ٢٠٠١، ص ٥٢، فكرة الزمان عبر التاريخ، مجموعة من العلماء، تحرير: كولن ويلسون، جون جرانت، ترجمة: فؤاد كامل، سلسلة عالم المعرفة: الكويت، رقم ١٥٩، شعبان - رمضان ١٤١٢هـ، مارس ١٩٩٢، ص٢٤٩، مولد الزمان (كيف قاس علماء الفلك عمر الكون)، جون جريبن، ترجمة/ د. مصطفى إبراهيم فهمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مكتبة الأسرة - ٢٠٠١، ص ٣٤٥.

(٢) وردت هذه الأقوال لليهود في: الكشاف ١/ ٢٩٢، البحر المحيط ١/ ٢٨٨.

تعالى في سورة البقرة: ﴿وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ وفي آل عمران: ﴿مَّعْدُودَاتٍ﴾، و"معدودة" جمع كثرة، و"معدودات" جمع قلة. جوابه أن قائلي ذلك من اليهود فرقتان: إحداهما قالت: إنما نعذَّب بالنار سبعة أيام، وهي عدد أيام الدنيا، وقالت فرقة: إنما نعذَّب أربعين يومًا، وهي أيام عبادتهم العجل، فآية البقرة تحتمل قصد الفرقة الثانية، وآية آل عمران الفرقة الأولى[(١)].

وكلام ابن جماعة هنا يسلِّم بأن (معدودة) جمع كثرة، و(معدودات) جمع قلة. وقد بيَّنَّا أن الراجح عند النحاة التسوية بينهما في وصف جمع التكسير، وأن كليهما دالٌّ على الجمع من غير نظر إلى القلة أو الكثرة، كما أن المراد بهذين القولين تقليل مدة العذاب بقرينة العدد؛ فإن الوصف بأي من اللفظين مؤذن بالقلة؛ لأن المراد بالمعدود: الذي يَعُدُّه الناس إذا رأوه أو تحدثوا عنه، وقد شاع في العرف والعوائد أن الناس لا يعمدون إلى عدِّ الأشياء الكثيرة، دفعًا للملل أو لأجل الشغل سواء عرفوا الحساب أم لم يعرفوه؛ لأن المراد العد بالعين واللسان لا العد بجمع الحسابات[(٢)].

(١) كشف المعاني، ابن جماعة، تحقيق د. محمد محمد داود، ص ٦١ .

(٢) التحرير والتنوير ١/ ٥٧٩ ـ ٥٨٠ .

شبهات دلالية

زعموا أن في القرآن الكريم مخالفات دلالية، وحصروها فيما يلي:

• التناقض في معاني الألفاظ:

ادعوا أن القرآن يستخدم اللفظ الواحد في المعنى ونقيضه، واستدلوا لذلك بقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ (البقرة: ٤٦). فمدح الذين ﴿يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾، وفي قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ (النجم: ٢٨). والظن هنا مذموم. وهذا - في زعمهم - تناقض.

ولو أنهم راجعوا كتب اللغة - بل لو كان عندهم طرف من المعرفة بمبادئ علم اللغة - لما أوردوا هذه الشبهة الواهية.

فمن المسلمات المعروفة في علم اللغة: ظاهرة الاشتراك اللفظي، أو تعدد المعنى، وقد أفردت لهذه الظاهرة كتب كاملة نذكر منها:

- الأشباه والنظائر، لمقاتل بن سليمان البلخي.
- المنجد في اللغة، لكراع النمل.

ومن أنواع المشترك اللفظي في العربية ما يعرف بالأضداد. وهي كل لفظٍ يعبر عن معنى وضده، ومن الكتب التي أفردت لهذه الألفاظ:

- الأضداد، لابن السكيت.
- الأضداد، للأصمعي.

- الأضداد، للسجستاني.
- الأضداد، للصغاني.
- الأضداد، لابن الأنباري.

وغير ذلك الكثير من الكتب التي أفردت لتلك الظاهرة اللغوية المعروفة، حتى إنه لا يكاد كتاب في علم اللغة يخلو من الإشارة إليها باستفاضة أو بإيجاز.

وفي الإنجليزية تسمى هذه الظاهرة "Polysemy"، "Homonymy" يقول "ليش" في تعريفها: Homonymy: كلمتان أو أكثر تشتركان في النطق والهجاء، و"Polysemy": كلمة واحدة لها معنيان أو أكثر[١].

وهل هناك أحد - ممن يدعي المعرفة باللغة - لا يعرف أن كلمة (عين) - على سبيل المثال - لها معانٍ متعددة يحددها السياق، مثل: حاسَّة الإبصار، عين الماء، الجاسوس، حقيقة الشيء (نحو: عين اليقين، الشخص عينه)، الحسد (أصابته عين... إلخ)[٢].

وقد نال لفظ (العين) حظًّا عظيمًا من اهتمام اللغويين، وعكف بعضهم على حصر دلالته، فوصل بها أحدهم إلى ما يزيد على المائة[٣]،

---

(١) Semanttics, CS, P. ٢٨، نقلًا عن: علم الدلالة بين النظر والتطبيق، د. أحمد نعيم الكراعين، ص ١١٧..

(٢) جسد الإنسان والتعبيرات اللغوية (دراسة دلالية ومعجم)، د. محمد محمد داود، ص ١٧٣: ١٩٤.

(٣) انظر التاج (ع ي ن).

كما تردد هذا اللفظ كثيرًا في كتب المشترك اللفظي[١]، وغيرها من كتب اللغة[٢]، كأحد الألفاظ المهمة التي تمثل ظاهرة الاشتراك اللفظي أصدق تمثيل[٣].

وكلمة (ظن) من المشترك اللفظي باتفاق علماء اللغة، يقول ابن فارس:

"الظاء والنون أُصَيْلٌ صَحِيحٌ يدلُّ على معنيين مختلفين: يقين، وشك؛ فأما اليقين فقول القائل: ظننت ظنًّا، أي أيقنت، قال اللَّه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾، أراد - واللَّه أعلم - : يوقنون. والعرب تقول ذلك وتعرفه، قال دريد ابن الصمة:

عَلانِيَةً ظُنّوا بِأَلفَي مُدَجَّجٍ   سَراتُهُمُ في الفارِسيِّ المُسَرَّدِ

أراد: أيقنوا. وهو في القرآن كثير[٤].

ومن هذا الكثير في القرآن ما أورده مقاتل بن سليمان، وبدأ به في تفسير الظن، فقال: الظن على ثلاثة وجوه: فوجه منها الظن بمعنى

---

(١) انظر: أبو عبيد، كتاب الأجناس من كلام العرب، تحقيق امتياز الرامفوري، المطبعة القيمة، الهند، ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٨م، ص ٨ . ، أبو العميثل الأعرابي: المأثور من اللغة، تحقيق د . محمد عبد القادر أحمد، مكتبة النهضة المصرية، ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م، ص ٦٣ .

(٢) انظر: إصلاح المنطق ص ٥٦، والمزهر ١ / ٣٧٢ ـ ٣٧٥ .

(٣) د . عبد الكريم محمد حسن جبل، في علم الدلالة، دراسة تطبيقية في شرح الأنباري للمفضليات، الإسكندرية، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٧، ص ٢٩٨ . والحواشي الثلاث السابقة عن هذا المرجع .

(٤) مقاييس اللغة (ظن)، وانظر: المحكم، تهذيب اللغة، الصحاح، اللسان (ظ ن ن) .

اليقين، وذلك في قوله ﷻ: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ (ص: ٢٤) يعني: أيقن داود أنما ابتليناه: وقال في الحاقة: ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ۝٢٠﴾ (الحاقة: ٢٠)، يعني: إني أيقنت، وقال في البقرة: ﴿إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ٢٣٠) يعني: إن أيقنا.

ثم ذكر الوجهين الآخرين، وهما: الشك، والتهمة[1].

ويزيدنا الراغب الأصفهاني إيضاحًا لهذه المسألة فيقول: الظن اسم لما يحصل عن أمَارةٍ، ومتى قَوِيَتْ أدَّتْ إلى العلم، ومَتَى ضَعُفَتْ جدًّا لم يتجاوز حدَّ التوهم. ومما ساق الراغب من الآيات التي استُعمل فيها الظن بمعنى اليقين

- سوى ما ساقه مقاتل، وآية البقرة التي نحن بصددها - الآيات التالية:

- ﴿وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ﴾ (يونس: ٢٤).
- ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ۝٣٩﴾ (القصص: ٣٩).
- ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ (ص: ٢٤).
- ﴿وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (فصلت: ٢٢).
- ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ﴾ (فصلت: ٢٣).
- ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم﴾ (الحشر: ٢).
- ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ (الفتح: ٦)، يفسره ما بعده وهو

(١) الأشباه والنظائر في القرآن الكريم، مقاتل بن سليمان، ص ٣٢٧ - ٣٢٨.

قول الله ﷻ: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ﴾ (الفتح: ١٢).

- ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾﴾ (القيامة: ٢٨).
- ﴿أَلَا يَظُنُّ أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾﴾ (المطففين: ٤).... إلخ[١].

وقد أطبق جمهور المفسرين قاطبة على أن قول الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ رَبِّهِمْ﴾ (البقرة: ٤٦) يعني: يوقنون؛ لأنه وصف للخاشعين، ومَنْ وُصِفَ بالخشوع لا يَشُكُّ أنه مُلاقٍ ربَّه، ويؤيِّده أن في مصحف عبد الله بن مسعود ﷺ: " الذين يعلمون"، ومثله قوله تعالى: ﴿إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾﴾ (الحاقة: ٢٠)، وقوله تعالى: ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ (الكهف: ٥٣)؛ فالظن في هذه المواضع ونظائرها بمعنى اليقين[٢].

وقد فسر العلامة الطاهر بن عاشور هذا الاشتراك في لفظ الظن تفسيرًا حسنًا فقال: "حقيقة الظن: علم بما لم يتحقق؛ إمَّا لأن المعلوم لم يقع بعد، ولم يخرج إلى عالم الحسِّ، وإمَّا لأن علم صاحبه مخلوط بشك. وبهذا يكون إطلاق الظن على المعلوم المتيقَّن إطلاقًا حقيقيًا، وعلى هذا جرى الأزهري في التهذيب، وأبو عمرو، واقتصر على هذا المعنى ابن عطية"[٣].

وإذن فالسياق - وغيره من قرائن فهم المعنى - هو الذي يحدد

(١) مفردات الأصفهاني، (ظن).

(٢) الكشاف ١/ ٢٧٨، ٤/ ١٥٣، البحر المحيط ١/ ١٨٥، ٨/ ٣٢٥، التحرير والتنوير ١/ ٤٨٠ . ٤٨١، الفتوحات الإلهية ١/ ٤٨ .

(٣) التحرير والتنوير، مجلد ١٤، ج٢٩، ص١٣٠ .

معنى اللفظ، وبخاصة المشترك اللفظي، ولله دَرُّ علمائنا إذ منعوا غير العالم بحقائق اللغة وأسرارها من التعرض لكتاب اللّٰه بالتفسير، وليس هذا نوعًا من الكهانة ولا احتكار العلم، بل مجرد منهج وضوابط ينبغي الإحاطة بها كما هو الشأن في كل علم من العلوم، فمثلًا قد يكون اللفظ مشتركًا، وهو يعلم أحد معنييه، والمراد المعنى الآخر[١].

والمشترك اللفظي في القرآن الكريم مظهر من مظاهر الإعجاز اللغوي في هذا الكتاب العظيم؛ حيث كانت الكلمة الواحدة تنصرف إلى عشرين وجهًا، أو أكثر أو أقل، ولا يوجد ذلك في كلام البشر[٢]، إلا مع اضطراب دلاليّ والتباس يشق على المخاطَب ويضيع معه المعنى.

وقد استنفد القرآن الكريم ما في المشترك اللفظي من جوانب إيجابية ـ دون أن تشوبه شائبة من سلبيات هذه الألفاظ ـ ومن الجوانب الإيجابية للمشترك اللفظي في القرآن الكريم:

- استغلال الغموض كخاصة من خواص الأسلوب مما يثير فضول السامع أو القارئ إلى التوقف للحظات أول الأمر لفهم المعنى المراد وإزالة ما قد يشوبه من غموض أو خفاء، فيتحقق الرضا والارتياح ويتمكن المعنى في النفس.

- تحقيق نوع من الموسيقى الداخلية، والملاءمة اللفظية الناتجة

---

(١) البرهان في علوم القرآن ١/ ٢١٥، الإتقان ٢/ ٤٩٠ .

(٢) البرهان ١ / ١٠٢ .

عن استخدام اللفظ بمعنيين في آية واحدة أو آيتين متجاورتين كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ (الروم: ٥٥)، وقوله تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ (النور: ٤٣ - ٤٤).

- يعتمد القرآن على المجاز بعلاقاته المختلفة، وبخاصة علاقة المشابهة لتحقيق الأداء اللغوي الرفيع، بالإضافة إلى ما تحققه الاستعارة من حسن التصوير، وتوضيح المعنى، والإيجاز في الأداء، وجعل التعبير أكثر أدبية. وقد تمضي الاستعارة خطوة إلى الأمام حين تعبر عن المعقول والمعنوي بالمحسوس فيصبح كأنه أمر ملموس مرئي من خلال خلعها على الجمادات صفات الكائن الحي.

ولكن الاستعمال القرآني للمشترك اللفظي لم يترك القارئ في حيرةٍ وارتباك، بل كان المعنى المقصود واضحًا لمن تأمَّل، اعتمادًا على عدد من القرائن التي تحدد المعنى المراد، نذكر منها:

- المخالفة بين المصادر حين يكون الفعل من المشترك اللفظي.
- المخالفة بين الجموع حين يكون المفرد من المشترك اللفظي.
- الاعتماد على السياق اللغوي.
- الاعتماد على السياق غير اللغوي.
- مخالفة الرسم الإملائي.

أما المخالفة بين المصادر حين يكون الفعل من المشترك اللفظي فمن أمثلته في القرآن الكريم الفعل "صام" الذي يدل على معنى الإمساك عن الطعام والشراب، كما يدل على معنى الصمت وعدم الكلام.

وقد حرص القرآن على أن يميز في المصدر بين النوعين، فاستخدم للأول كلمة "صيام" كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ (البقرة: ١٨٣)، واستخدم للثاني كلمة "صوم" كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرۡتُ لِلرَّحۡمَٰنِ صَوۡمٗا فَلَنۡ أُكَلِّمَ ٱلۡيَوۡمَ إِنسِيّٗا﴾ (مريم: ٢٦).

وأما المخالفة بين الجموع للإشارة إلى تعدد معنى المفرد فقد أخذ شكلين في القرآن هما:

النوع الأول: دلالة المفرد على أكثر من معنى باعتباره من ألفاظ المشترك اللفظي.

فمن أمثلة النوع الأول ما يأتي:

أعين وعيون: كلا اللفظين مفرده "عين"، وقد ورد هذا المفرد في القرآن بمعنى آلة البصر كقوله تعالى: ﴿وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ﴾ (المائدة: ٤٥)، كما ورد بمعنى عين الماء، كما في قوله تعالى: ﴿فِيهَا عَيۡنٞ جَارِيَةٞ ١٢﴾ (الغاشية: ١٢).

فإذا نظرنا إلى الجمع وجدناه قد ورد في القرآن بصيغتين اثنتين هما: (أعين) و(عيون). وإذا تتبعنا جميع الآيات التي استُخدِم فيها الجمعان - وعددها اثنتان وعشرون آية للجمع(أعين)، وعشر آيات للجمع (عيون) - اكتشفنا أن سر هذا التنوع هو تخصيص كل جمع لأحد المعنيين دون الآخر.

فلم ترد أعين في القرآن الكريم إلَّا جمعًا للعين الباصرة، مثل:

﴿تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ﴾ (المائدة: ٨٣)،

﴿سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ﴾ (الأعراف: ١١٦)، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ (الأعراف: ١٧٩).

كما لم يرد الجمع (عيون) فيه إلَّا جمعًا لعين الماء، مثل:

﴿جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ (الحجر: ٤٥، الشعراء: ٥٧، ١٤٧، الدخان: ٢٥، ٥٢، الذاريات: ١٥).

ولا يصح هنا أن يكون السبب هو إرادة القلة مع الجمع (أعين)، والكثرة مع الجمع (عيون) كما يقول النحاة؛ إذ لا يستساغ معنى القلة في آيات مثل: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ سَحَرُوٓاْ أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ (الأعراف: ١١٦)، ومثل: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ (الزخرف: ٧١)، لأن معنى الكثرة هو الأنسب والأكثر ملاءمة للسياق هنا.

النوع الثاني: دلالة المفرد على أكثر من معنى نتيجة تخصيص المعنى العام للفظ في اتجاهين مختلفين يراد بكل منهما نوع معين من أفراد هذا المعنى العام، وهو ما يمكن أن يسمى بالاختلاف في تطبيقات الاستخدام، لكن دون أن تختلف المعاني اختلافًا كليًا لتصير الكلمة من المشترك اللفظي.

ومن أمثلة النوع الثاني:

حمير وحُمُر: ورد لفظ (الحمير) في القرآن الكريم مرتين هما: قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٨﴾ (النحل: ٨)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ (لقمان: ١٩).

أما لفظ (الحمر) فقد ورد مرة واحدة في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ۝٥٠ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ۝٥١﴾ (المدثر: ٥٠ - ٥١).

وواضح من سياق الآيات أن القرآن قد استخدم لفظ (الحمير) حين أراد الأهليَّ منها فهي التي تستخدم للركوب. أما لفظ الحمر فالمراد به الحمر الوحشية بدليل السياق كذلك، لأن القسورة ـ سواء فسرت بالأسد أو بالرماة والصيادين ـ لا توجد عادة داخل المساكن والبيوت. ويدل على ذلك أيضًا قول ابن عباس: إن المراد في الآية الحمر الوحشية.

وأما الاعتماد على السياق اللغوي فمن أمثلته:

تفسير كلمة "الفاحشة" باللواط في قوله تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾ (النمل: ٥٤) بقرينة الكلام السابق في الآية نفسها: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ﴾ ، وتفسيرها بالزنا في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِي يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ (النساء: ١٥) بقرينة الكلام التالي: ﴿فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾.

أمَّا ما يعتمد على السياق غير اللغوي، فعادة ما يتوقف فهمه على معرفة أسباب النزول من ناحية، وعلى الرجوع إلى التفسير بالمأثور من ناحية أخرى، ومن أمثلته في القرآن الكريم: لفظ "إنسان" الذي أريد به آدم نفسه في قوله تعالى:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤﴾ (الرحمن: ١٤) قال القرطبي: باتفاق من أهل التأويل يعني آدم[١].

---

(١) القرطبي، ١٧/ ١٦٠

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ (الإنسان: ٢)، قال القرطبي: أي ابن آدم من غير خلاف[1].

وأريد به شخص بعينه في آيات أخرى منها أبو جهل في قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ (العلق: ٦، ٧)، وعتبة بن أبي لهب في قوله تعالى: ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ۝١٧﴾ (عبس: ١٧)، وأمية بن خلف أو الوليد بن المغيرة في قوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ۝٦٧﴾ (مريم: ٦٧).

وأما اختلاف الرسم الإملائي فمن أمثلته في القرآن الكريم الفعل "طغى" الذي كتب بالياء حين جاء بمعنى التجاوز في العصيان، كما في (طه: ٢٤، ٤٣، النجم: ١٧، النازعات: ١٧، ٣٧)، وكتب بالألف حين جاء بمعنى علا وفاض، كما في (الحاقة: ١١)[2].

ونخلص مما سبق إلى أن الظن يستعمل في القرآن الكريم ـ وفي كلام العرب ـ بمعنى الشك تارة، وبمعنى اليقين تارة أخرى، ويتحدد معناه تبعًا للسياق وللقرائن الأخرى على نحو ما قدمنا.

والشبهة التي أثاروها حول الآية السابقة أثاروها ـ أيضًا ـ حول قول الله ﷻ: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ (البقرة: ١٩١)، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ (الإسراء: ٦٠)، حيث ذمَّت الفتنة في الآية الأولى، ولم تُذمَّ في الآية الثانية، قالوا: كيف يكون ذلك ومعنى الفتنة واحد؟

---

(١) القرطبي ١٩/ ١٢٠ .

(٢) الاشتراك والتضاد في القرآن الكريم: دراسة إحصائية، د . أحمد مختار عمر، ص ١٢٤ . ١٢٥ .

أولًا: الفتنة ليست بمعنى واحد، ولكنها ترد بمعانٍ متعددة، ومن معانيها في القرآن الكريم:

١) الاختبار، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ (ص: ٣٤).

٢) التحريق بالنار، كما في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ (البروج: ١٠).

٣) الضلال، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ (الحديد: ١٤).

٤) الكفر، كما في قوله تعالى:

﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٩٣).

٥) الخداع، كما في قوله تعالى:

﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ (المائدة: ٤٩).

وغير ذلك من المعاني، وأصل مادة (ف ت ن): إدخال الذهبِ النارَ لتظهر جودته من رداءته، ثم استُعير لكل شدة[١]، كالاختبار كأن المختبَر يحرق بالنار، والضلال والكفر لأنهما مدعاة لدخول النار، والخداع لأنه نوع من البلاء الشديد لمن وقع به.

ثانيًا: معنى الفتنة في قوله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ (البقرة: ١٩١) المحنة والبلاء الذي أصاب المسلمين بأيدي المشركين، وهو

---

(١) المفردات، مقاييس اللغة، اللسان (ف ت ن)، العمدة في غريب القرآن: ص (٨٠، ٩٦، ١٢٢، ٢٠٥، ٢٥٧، ٢٨١)، الكشاف: ١ ص (٣٠١، ٣٤٢، ٤١٣، ٦٣٣)، ٢ص (٥٦٠)، ٣ ص (١٩٥، ١٩٦، ٣٥٥)، ٤ ص (١٤، ١٧٠).

إخراجهم من أرضهم وديارهم، وصدُّهم عن المسجد الحرام، وابتلاؤهم بصنوف العذاب ليرتدُّوا عن دين اللَّه، وهذا أشدُّ من أن يقتلوا بسيوف المشركين(١).

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ (الإسراء: ٦٠)، فالمراد بالفتنة فيه: الاختبار والابتلاء، وذلك حين أخبر النبي ﷺ الناسَ أنه قد أُسْرِيَ به من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليلة البارحة، فارتدَّ لذلك قوم من ضعفاء المسلمين، وراح المشركون يسخرون من رسول اللَّه ﷺ، فتلك هي الفتنة التي أريد بها تمحيص القلوب، وتمييز المؤمن من الكافر والطيب من الخبيث(٢).

وفرق بين هذه الفتنة وتلك، فالفتنة التي في قوله تعالى: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ هي من فعل البشر، والتي في قوله تعالى: ﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ هي من عند اللَّه ﷻ، وقد جرى القرآن الحكيم على ذم الفتنة التي من فعل الإنسان؛ لأنها مفسدة عظيمة، وأما الفتنة التي من اللَّه ﷻ فهي على وجه الحكمة الإلهية، ويتجلَّى هذا بوضوح في قوله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ (العنكبوت: ٢ ـ ٣). أي: أَحَسِبَ الذين أجروا كلمة الشهادة على ألسنتهم وأظهروا القول بالإيمان أنهم يتركون بذلك غير ممتحنين، بل يمتحنهم اللَّه بضروب من المحن حتى يبلو صبرهم وثبات

(١) الكشاف ١/ ٣٤٢، البحر المحيط ٢/ ٦٦، التحرير والتنوير ٢ / ٢٠٢ .
(٢) الكشاف ٢ / ٤٥٥، البحر المحيط ٦ / ٥٤ .

أقدامهم وصحة عقائدهم؛ ليتميز المخلص من غير المخلص، والراسخ في الدين من المضطرب[(١)].

وقد جرت سُنَّة اللَّه في خلقه أن يختبر عباده، وإلَّا بطَلَ التكليف، فالدين يبيِّن لنا الخير والشر، ولكلٍّ وجهةٌ هو مولِّيها، والبلاء والاختبار في الدنيا ركن ركين، وسنَّة كونية إلهيَّة.

● اشتباه الدوال:

من العجيب أن يتصدَّى لنقد القرآن الكريم مَنْ لا علم له بالعربية، فتشتبه عليه الدوالُّ ويشرع في التلبيس على الناس بما لَبَّسَ عليه شيطانه وجهله.

من ذلك ما ادعاه بعضهم من أن القرآن الكريم نص على دخول الرسول الكريم ﷺ النار، وذلك في قوله ﷻ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝﴾ (مريم: ٧١).

ومعنى هذا النص - في زعمهم - هو: ما من أحدٍ من الناس إلَّا داخل جهنم، وحيث إن الرسول ﷺ داخل في هذا العموم؛ فإن الحكم ينطبق عليه أيضًا.

والمسألة أيسر من هذا، فلو راجعَ هذا المدعي معنى الورود في اللغة لوجد أنَّ: وَرَدَ الماء وغيره ورودًا وورد عليه، أي: أشرف عليه، دخله أو لم يدخله، وكل من أتى مكانًا - مَنْهَلًا أو غيره - فقد ورده[(٢)]

(١) الكشاف ٣ / ١٩٧ .

(٢) المحكم، مقاييس اللغة،اللسان (و ر د) .

وإذن فاللغة تنكر تفسير الورود بالدخول، بل هو بلوغ المكان والوصول إليه.

وهذا إمام من أئمة اللغة والتفسير هو أبو إسحاق الزجاج يقول في هذه الآية:

هذه آية كثر الاختلاف فيها، فقال كثير من الناس إن الخلق جميعًا يردون النار فينجو المتقي ويترك الظالم، وكلهم يدخلها. وحجة من قال بهذا القول أنه جرى ذكر الكافرين فقال: ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ﴾، ثم قال بعدُ: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، فكأنه على نظم ذلك الكلام عامٌّ. ودليل من قال بهذا القول أيضًا قوله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ (مريم: ٧٢)، ولم يقل: وندخل الظالمين، وكأنَّ (نَذَر) للشيء الذي حصل في مكانه.

وقال قوم: "إن هذا إنما يُعْنَى به المشركون خاصة، واحتجُّوا في هذا بأن بعضهم قرأ: "وإنْ منهم إلَّا واردها"[(١)].

ويكون على مذهب هؤلاء ﴿ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ أي نخرج المتقين من جملة من ندخله النار.

وقال قوم: إن الخلق يَرِدُونها فتكون على المؤمن بردًا وسلامًا، ثم يخرج منها فيدخل الجنة، فيعلم فَضْل النعمة لِمَا يشاهِدُ فيه أهل العذاب وما رأى فيه أهل النار.

---

(١) هذه قراءة ابن عباس وعكرمة (الكشاف ٢ / ٥٢٠، القرطبي ١١/ ١٣٨، البحر المحيط ٦/ ٢١٠، روح المعاني ١٦ / ١٢١، معجم القراءات القرآنية ٣ / ١٧٦).

وقال ابن مسعود والحسن وقتادة: إن ورودها ليس دخولَها، وحُجَّتُهم في ذلك جيدة جدًّا من جهات: إحداهنَّ أن العرب تقول: وردت ماءَ كذا، ولم تدخله، وقال الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ﴾ (القصص: ٢٣).

وتقول إذا بلغت البلد ولم تدخله: قد وردتُ بلد كذا وكذا.

ثم خلص الزجاج إلى قوله:

والحجة القاطعة في هذا القول ما قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ۝١٠١ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ (الأنبياء: ١٠١ - ١٠٢). فهذا - والله أعلم - دليل أن أهل الحسنى لا يدخلون النار، وفي اللغة: وردت بلد كذا وكذا، إذا أشرفت عليه، دخلته أو لم تدخله، قال زهير:

فلمَّا وَرَدْنَ الماء زُرْقًا جِمَامُهُ   وَضَعْنَ عِصِيَّ الحاضِرِ المتخيِّمِ

المعنى: بلغن إلى الماء أي أقمن عليه. فالورود هنا - بالإجماع - ليس بدخول[١].

وقد أجمع المفسِّرون قاطبة سواء من قال إن معنى الورود: الدخول، أو من قال إن المراد به المرور أو القرب، على أن المؤمن لا يصيبه حرُّ النار؛ لأن الله ﷻ يحجب عنه إحراقها فتكون عليه بردًا وسلامًا[٢].

---

(١) معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣ / ٣٤٠ - ٣٤٢.

(٢) انظر: تفسير الطبري ١٦ / ١٠٨ . ١١٤، تفسير ابن كثير ٣ / ١٣٦ - ١٣٨؛ الكشاف ٢/ ٥٢٠، تفسير الفخر الرازي، مجلد ١١، جـ٢١، ص ٢٤٣-٢٤٦، =

ومن الوجوه التي تحتملها الآية وأوردها المفسرون أن الخطاب للمشركين فقط على طريقة الالتفات عن الغيبة في قوله تعالى: ﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿لَنُحْضِرَنَّهُمْ﴾، عدل عن الغيبة إلى الخطاب ارتقاءً في المواجهة بالتهديد.

لما ذكر انتزاع الذين هم أولى بالنار من بقية طوائف الكفر عطف عليه أن جميع طوائف الشرك يدخلون النار، دفعًا لتوهم أن انتزاع من هو أشد على الرحمن عتيًّا هو قصارى ما ينال تلك الطوائف من العذاب؛ بأن يحسبوا أن كبراءهم يكونون فداءً لهم من النار أو نحو ذلك، أي وذلك الانتزاع لا يصرف بقية الشيع عن النار فإن اللَّه أوجب على جميعهم النار.

فالخطاب في (وإن منكم) التفات عن الغيبة، وفي قوله: (لنحشرنهم) و(لنحضرنهم)؛ عدل عن الغيبة إلى الخطاب ارتقاء في المواجهة بالتهديد حتى لا يبقى مجال للالتباس المراد من ضمير الغيبة فإن ضمير الخطاب أعرف من ضمير الغيبة. ومقتضى الظاهر أن يقال: وإن منهم إلا واردها. وعن ابن عباس أنه كان يقرأ: "وإن منهم " وكذلك قرأ عكرمة وجماعة.

فالمعنى: وما منكم أحد ممن نزع من كل شيعة إلا وارد جهنم حتمًا قضاه اللَّه فلا مبدل لكلماته، أي فلا تحسبوا أن تنفعكم

= البغوي ٣ / ٢٠٣ ـ ٢٠٥، النسفي ٣ / ٤٢ - ٤٣، تفسير ابن عطية ٩ / ٥١١ ـ ٥١٦، زاد المسير ٥/ ٢٥٥ - ٢٥٧، تفسير أبي السعود ٥ / ٢٧٦، تفسير الآلوسي، مجلد ٨، جـ١٦، ص ١٢١ - ١٢٤، البحر المحيط ٦/ ٢٠٩ـ٢١٠، مفردات الأصفهاني (و ر د).

شفاعتهم أو تمنعكم عزة شيعكم، أو تلقون التبعة على سادتكم وعظماء أهل ضلالكم، أو يكونون فداء عنكم من النار.

وهذا نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (الحجر: ٤٢ - ٤٣)، أي الغاوين وغيرهم.

فليس الخطاب في قوله ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم على معنى ابتداء كلام؛ بحيث يقتضي أن المؤمنين يردون النار مع الكافرين ثم يُنْجون من عذابها؛ لأن هذا معنى ثقيل ينبو عنه السياق؛ إذ لا مناسبة بينه وبين سياق الآيات السابقة؛ ولأن فضل اللّه على المؤمنين بالجنة وتشريفهم بالمنازل الرفيعة ينافي أن يسوقهم مع المشركين مساقًا واحدًا، كيف وقد صدر الكلام بقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ (مريم:٦٨). وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ (مريم: ٨٥ ـ ٨٦)، وهو صريح في اختلاف حشر الفريقين.

فموقع هذه الآية هنا كموقع قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ (الحجر: ٤٣) عقب قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ (الحجر: ٤٢). فلا يتوهم أن جهنم موعد عباد اللّه المخلصين مع تقدم ذكره لأنه ينبو عنه مقام الثناء.

واتفق جميع المفسرين على أن المتقين لا تنالهم نار جهنم. واختلفوا في محل الآية فمنهم من جعل ضمير " منكم" لجميع المخاطبين بالقرآن. ورووه عن بعض السلف فصدمهم فساد المعنى ومنافاة حكمة اللّه والأدلة الدالة على سلامة المؤمنين يومئذ من لقاء

أدنى عذاب، فسلكوا مسالك من التأويل، فمنهم من تأول الورود بالمرور المجرد دون أن يمس المؤمنين أذى، وهذا بعيد عن الاستعمال، فإنَّ الورود إنما يراد به حصول ما هو مُودَعٌ في المورد لأن أصله من ورود الحوض. وفي آي القرآن ما جاء إلا لمعنى المصير إلى النار كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٩٩﴾﴾ (الأنبياء: ٩٨ - ٩٩)، وقوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾﴾ (هود: ٩٨)، وقوله تعالى: ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾﴾ (مريم: ٨٦). على أن إيراد المؤمنين إلى النار لا جدوى له فيكون عبثا، ولا اعتداد بما ذكره له الفخر مما سماه فوائد.

ومنهم من تأوَّل ورود جهنم بمرور الصراط، وهو جسر على جهنم، فساقوا الأخبار المروية في مرور الناس على الصراط متفاوتين في سرعة الاجتياز. وهذا أقل بُعدًا من الذي قبله.

ومن الناس من لفق تعضيدًا لذلك الحديث الصحيح: " أنه لا يموت لمسلم ثلاثة من الولد فيلج النار إلا تحلة القسم"، فتأول تحلة القسم بأنها ما في هذه الآية من قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ (مريم: ٧١)، وهذا محمل باطل؛ إذ ليس في هذه الآية قسم يتحلل، وإنما معنى الحديث: أن من استحق عذابًا من المؤمنين لأجل معاصٍ، فإذا كان قد مات له ثلاثة من الولد كانوا كفارة له فلا يلج النار إلا ولوجًا قليلًا يشبه ما يفعل لأجل تحلة القسم، أي التحلل منه. وذلك أن المُقْسِم على شيء إذا صعب عليه بر قسمه أخذ بأقل ما

يتحقق فيه ما حلف عليه، فقوله: "تَحِلَّة القَسَم" تمثيل[١].

وسواء أخذنا بهذا التفسير أو بغيره مما تقدم ذكره، فالمؤمن لا تناله نار جهنم باتفاق جمع المفسرين.

• التغيير في أسماء الأعلام:

زعموا أن القرآن الكريم يخطئ في إيراد بعض الأعلام، واستدلوا لذلك الزعم بالآيات التالية:

١) قوله تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ۝١٣٠﴾ (الصافات: ١٣٠) بعد قوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝١٢٣﴾ (الصافات: ١٢٣)، وذلك للسجع المتكلَّف في زعمهم.

ونقول على وجه الإجمال: إن للعرب في النطق بالأسماء الأعجمية تصرفات كثيرة؛ لأنه ليس من لغتهم، فهم يتصرفون في النطق به على ما يناسب أبنية كلامهم[٢].

والنبي (إلياس) هو المعروف في التوراة باسم (إيليا)، ويُسمَّى في بلاد العرب باسم (إلياس) أو (مار إلياس)[٣].

وكما سُمِّي (إيليا) في العربية باسم (إلياس) سُمِّي أيضًا إلياسين، كما سمي (إدريس): إدريسين[٤].

---

(١) التحرير والتنوير، مجلد ٨، ص ١٤٩ - ١٥٢ .

(٢) التحرير والتنوير، مجلد ١١، جـ٢٣، ص ١٦٧ .

(٣) التحرير والتنوير، مجلد ٤، جـ٧، ص ٣٤٠ .

(٤) الكشاف ٣ / ٣٥٢ .

وقد يكون (إلياسين) مكونًا من جزأين: آل، ياسين، ويشهد لذلك قراءة نافع وابن عامر: "سَلامٌ عَلَى آلِ ياسِين" وعلى هذا يكون (ياسين) إمَّا اسمًا آخر لإلياس، وأضيف إلى (آل) مرادًا به الشخص نفسه، تقول العرب: آل أبي بكر، وهم يريدون أبا بكر(١).

وإمَّا أن يكون (ياسين) أبا إلياس، فيكون آل ياسين: أبناء ياسين، وأتباعه ومن بينهم إلياس.

وعلى كلا الوجهين، وعلى كلتا القراءتين، لا وجه للاعتراض؛ فإما أن يكون (إلياسين)اسمًا آخر لإلياس (وكلاهما إيليا)، وإما أن يكون المراد بإلياسين: أتباع ياسين (أبي إلياس).

٢) قوله تعالى: ﴿وَطُورِ سِينِينَ ۝٢﴾ (التين: ٢)، زعموا أن كلمة (سينين) هنا اسم جمع، وأن القرآن حرَّفها عن (سيناء) لأجل السجع فقط.

وقد ورد الاسمان (سيناء وسينين) في القرآن الكريم علمًا على الموقع المعروف في مصر. قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْـَٔاكِلِينَ ۝٢٠﴾ (المؤمنون: ٢٠).

وقرئ (سِيناء) بالكسر والمد، وقرئ (سِينَا) بالكسر مع القصر أي بدون همزة. وكلها علم للمكان المعروف بمصر، ومثلها (سينين)(٢).

وجميعها لغات صحيحة في العربية، ولا وجه لتفضيل بعضها على بعض، ما دام جميعها شائعًا في كلام العرب سائرًا على ألسنتهم.

---

(١) مقاييس اللغة (أول).

(٢) القرطبي ١٢/ ١١٤: ١١٥، التحرير والتنوير، مجلد ١٥، ج٣،ص٤٢١.

٣) قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ (الأنعام: ٧٤).

زعموا أن والد إبراهيم اسمه (تارح) [سفر التكوين ١١/٣٧]، وأن القرآن الكريم أخطأ في تسميته (آزر).

و (آزر) في الآية إما أن يكون تعريبًا لتارح، كما تتصرف اللغات بالأعلام المنقولة عن لغات أخرى، وإما أن يكون لقبًا له بمعنى الهرم، أو الضحَّاك، أو الضالّ، المعوجّ عن طريق الخير، في اللغة الفارسية القديمة[١].

والأرجح أن يكون هذا اسم أبيه في العربية، سمي باسم البلد الذي جاء منه، ففي معجم ياقوت: "آزر - بفتح الزاي وبالراء - ناحية بين سوق الأهواز ورامهرمز، وفي الفصل الحادي عشر من سفر التكوين من التوراة أن بلد تارح أبي إبراهيم هو "أور الكلدانيين" وفي معجم ياقوت: "أور" - بضم الهمزة وسكون الواو - من أصقاع رامهرمز من خوزستان. ولعله هو أور الكلدانيين أو جزء منه أضيف إلى سكانه. وفي سفر التكوين أن تارح خرج هو وابنه إبراهيم من بلده أور الكلدانيين قاصدين أرض كنعان، وأنهما مرَّا في طريقهما ببلد "حاران" وأقاما هناك ومات تارح في حاران، فلعلَّ أهل حاران دَعَوْه (آزر)؛ لأنه جاء من صقع آزر[٢].

وإذن فتارح اسم أبي إبراهيم في العبرية، و (آزر) اسمه في العربية بنسبته إلى المكان الذي جاء منه.

---

(١) مفردات الأصفهاني (أزر)، التحرير والتنوير، مجلد ٤، جـ٧، ص ٣١٠ - ٣١١.

(٢) التحرير والتنوير، مجلد ٤، جـ٧، ص ٣١١ - ٣١٢.

ومثل هذا يقال في اعتراضهم على تسمية البلد الحرام (مكة)، و(بكة)، فكلاهما اسمان لمسمًّى واحد على لغتين مختلفتين.

وكذا في تسمية النبي ﷺ محمدًا وأحمد:

"**أحمد**" اسم علم منقول من صفة، وهذه الصفة يراد بها التفضيل؛ أي: أحمد الحامدين لربّه، و"**محمد**" منقول من صفة أيضًا، وهي في معنى محمود، فالمحمَّد الذي حُمِد مرة بعد مرة، و"**أحمد**" سابق لـ "**محمد**"، ثم إنه لم يكن محمدًا حتى كان أحمد، فقد حَمِد ربه فشرَّفه بأن جعله محمَّدًا؛ أي: محمودًا، ولهذا تقدَّم ذِكْر "**أحمد**" على "**محمَّد**" فذكره عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال: ﴿ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ (الصف/٦).

ثم ما المشكلة في أن يكون لأي إنسان اسمان أو أكثر؟ أليس إسرائيل هو نفسه يعقوب عَلَيْهِ السَّلَامُ؟! وأليس اسم "مصر" في اللغات الأوروبية "Egypt"؟! كما أن المملكة المتحدة اسم لدولة أوربية، وإنجلترا اسم آخر لتلك الدولة، فهل في ذلك اضطراب في التسمية؟!!

● التقارب الصوتي ليس تقاربًا في المعنى:

زعم بعضهم أن الحجَّ معناه الحَكّ! وأن الشهرستاني قد ربط في كتابه "الملل والنحل" بين (**الحكّ، والاحتكاك**) من ناحية، و(**الحَجّ**) من ناحية أخرى؛ حيث ذكر أن النساء كُنَّ يَحْكُكْنَ فروجهنَّ بالحجر الأسود حتى في أوقات حيضِهِنّ.

وهذا زعم باطل فاسد من وجوه:

الأول: قوانين اللغة والواقع اللغوي:

فإن من بدهيات علم اللغة أن التقارب الصوتي ليس بالضرورة تقاربًا

في المعنى، وقد بنى مثير هذه الشبهة دعواه على وجود تقارب صوتي بين الحجّ والحكّ، حيث الجيم والكاف مخرجهما من حَيِّز واحد.

ولو صَحَّت هذه الدعوى لكان هناك تقارب **(أو تماثل على زعمهم)** في المعنى بين كل من:

أَكَل - أَجَل.

رَكَل - رَجَل

نجح - نكح... إلخ.

وهذا لا يقوله عاقل ناهيك عن أن يكون عارفًا بقوانين اللغة. كذلك فإن الواقع اللغوي - أي الاستعمال الفعلي للفظين (الحجّ والحكّ) يقطع بعدم وجود أي علاقة بينهما، وسوف ننقل كل ما يتعلق بالمادتين (ح ج ج)، (ح ك ك) لنرى ما أوردته المعاجم اللغوية في هذا الصدد، ولنطالع معًا:

الحج: القصد، والكفُّ، والقُدُوُمُ، وسَبْرُ الشَّجَّة بالمحجاج: للمِسْبَار، الغلبة بالحُجَّة، وكثرة الاختلاف والتردد، وقصد مكة للنسك، وهو حاج وحاجج، والجمع: حُجَّاج، وحجيج وحَجٌّ، وهي حاجَّة من حواجّ، وبالكسر الحِجّة: الاسم، والحِجة: المرة الواحدة، (**شاذ؛ لأن القياس الفتح**)، والسَّنَة، وشحمة الأذن، الحَجّة: خرزة أو لؤلؤة تتعلق، وبالضم الحُجَّة: البرهان، والحِجَاج: الجَدِل، وأحججته: بعثته ليحج، وحجَّةِ اللّه لا أفعل، بفتح أوله وخفض آخره: يمين لهم، وحَجْحَج: أقام، ونكَص، وكفَّ، وأمسك عما أراد، والحَجَوَّج: الطريق يستقيم مرة

ويعوجُّ أخرى، والْحُجُجُ: الطرق المحفرة والجراح المَسْبُورة، والحَجَاجُ: الجانب، وعَظْم ينبت عليه الحاجب، وحاجب الشمس، وأحجُّ: أحق، وحجّاج: اسم، والتحَاجّ: التخاصم.

هذه هي معاني كلمات مادة (ح ج ج) كما وردت في المعاجم، حتى التي ألَّفها غير المسلمين لم تذكر خلاف هذه المعاني، فمن أين جاء الشهرستاني - إن صحت نسبة هذا النص إليه - بهذا المعنى، الذي انفرد به، ولم يقل به أحد غيره.

ولنأتِ إلى مادة (ح ك ك)، حيث نجد:

الحكُّ: إمرار جِرْم على جِرْم، وتحاكّ الشيئان: اصطكّ جرماهما فحك أحدهما الآخر، واحتك بالشيء: أي حَكّ نفسه عليه، والحِكَّة: الجرَب، والحُكاكة: ما تَحَاكَّ بين حجرين إذا حَكّ أحدهما بالآخر لدواء ونحوه، والتحاكّ: التساوي في الشرف، والحاكّة: السِّنُّ؛ لأنها تحك صاحبتها أو تحكّ ما تأكله، والتحكك: التحرش والتعرض، والمحاكّة: كالمباراة، وحكَّ الشيء في صدري وأحك واحتكّ: عمل، والأول أجود، والحكّاكات: ما يقع في قلبك من وساوس الشيطان، والحَكَكُ: مشية فيها تحرك شبيه المرأة القصيرة إذا تحركت وهزت منكبيها.

فهل هناك إشارة من قريب أو بعيد إلى ما ادَّعى أصحاب هذه المزاعم من أن النساء كُنَّ يفعلْنَ هذا الفعل القبيح في أطهر الأماكن، وأقرب ما يكون فيها المرء من ربّه.

الثاني: الواقع نفسه: فنحن لم نسمع منذ الأَزَل ولم نر هذا الفعل من حُجَّاج بيت اللَّه الحرام، فإن كان هذا المدعى قد رأى هذا فلِمَ لمْ يُطْلِعَنا عليه أو يصوره لنا، أو يَدْعُنَا إلى مشاهدته؟

الثالث: لعل مُرَوِّجَ هذا الزَّعم الفاسد قد ربط بين الحج في الإسلام وبين ما كان عليه أهل الجاهلية؛ فقد كانوا يحجُّون عَرَايَا؛ لأنهم كانوا يعتقدون عدم صحة الطَّواف في ثوبٍ عصى الإنسانُ فيه ربَّه، وكان النسوة يفعلْنَ، فيضعْنَ أيديهُنَّ على مواطنَ عوراتهن، وتقول الواحدة منهن:

اليَومُ يَبْدُو بَعْضُهُ أو كُلُّهْ   وَمَا بَدَا مِنْهُ فَلاَ أُحِلُّهْ

فجاء الإسلام ورفض هذه العادات رفضًا قاطعًا، فقال ﷺ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَـٰذَا﴾ (التوبة:٢٨)، وفي الحديث: "فلا يَحُجَّنَّ بعد اليوم مشرك، ولا يَطُوفَنَّ بالبيت عُرْيَان". أفيصح بعد هذا أن نربط بين عفن الجاهلية، وطُهْر الإسلام؟.

● الزعم بوجود غريب الألفاظ في القرآن الكريم:

زعم بعضهم أن القرآن الكريم يأتي بألفاظ غريبة ليست معروفة في لغة العرب، ومثلوا لذلك بالكلمات الآتية:

- الخرطوم، في قول اللَّه تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ۝١٦﴾ (القلم: ١٦)، وقالوا: إنه لم يرد أي ذكرٍ - ولو على سبيل الفكاهة - أن أنف الإنسان يسمى (الخرطوم).

وهذا كذب صراح، فلو كَلَّف مثير الشبهة نفسه أيسر جهد وفتح أي معجم ونظر في مادة (خ ر ط م)، لوجد الآتي:

الخرطوم: الأنف، والخَطْمُ من كل طائر: منقاره، ومن كل دابةٍ: مقدم أنفه وفمه[١].

هذا ما أجمع عليه أهل اللغة، ومُصَنِّفُو المعاجم، فكيف زعمتم أنه لم يرد أي ذكر - ولو على سبيل الفكاهة - أن أنف الإنسان يُسَمَّى الخرطوم؟!

وأما الألفاظ الغريبة التي ساقوها شواهد لزعمهم بأن القرآن الكريم صعب على الأفهام، بما يتنافى مع الغاية من الكتب السماوية التي تهدي الناس وترشدهم، الأمر الذي يقتضي السهولة والوضوح لا الغرابة والغموض، فإن تلك الشواهد التي احتجوا بها، وزعموا أنها غريبة حتى على المفسرين، فهي الألفاظ الآتية:

أبًّا، غسلين، حنانًا، أوَّاه، الرقيم، كلالة، مبلسون، أخبتوا، حنيذ، حصحص، يتفيأ، سَرِيًّا، المسجور، قمطريرًا، عسعس، سجِّيل، الناقور، فاقرة، إستبرق، مدهامَّتان.

وسوف نبين معاني هذه الكلمات من أقوال المفسرين في الجدول الآتي:

---

(١) المحكم، الصحاح، تهذيب اللغة، المصباح المنير، جمهرة اللغة، مقاييس اللغة، اللسان، القاموس المحيط (خ ط م، خ ر ط م). أساس البلاغة (خ ر ط، خ ط م)، المخصص جـ ١/ ١٢٨ باب الأنف.

الكلمة	الآية	السورة	معناها
أبًّا	٣١	عبس	الأبُّ: هو ما تأكله البهائم من العشب، وقال الضحاك: هو التين خاصة، ويؤيد ذلك قوله ﷺ بعد هذه الآية: ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمۡ وَلِأَنۡعَٰمِكُمۡ ٣٢﴾ (عبس: ٣٢).
غِسلين	٣٦	الحاقة	الغسلين: الماء الحار.
وحنانا	١٢	مريم	أي: تعطفًا ورحمة.
أوَّاه	٧٥	هود	كثير التأوه إشفاقًا من الذنوب، وهو فعَّال، من: أوَّهَ فلانٌ تأويهًا، وتأوَّه تأوُّهًا، إذا قال: أوّه.
الرَّقيم	٦	الكهف	اللوح الذي كانت فيه أسماء أصحاب الكهف، وسُمّي بذلك؛ لأن أسماءهم كانت مرقومة فيه، وقيل: الوادي الذي كان فيه الكهف، وقيل: اسم القرية التي خرجوا منها، وقيل: اسم كلبهم، وهذه الخلافات لا تدل على عدم فهم الكلمة أو غموضها، فالكلمة في معناها الأصلي: اللوح الذي يكتب فيه، ومنه قوله ﷺ: ﴿كِتَٰبٌ مَّرۡقُومٌ ٩﴾ (المطففين: ٩)، وانتقل الاسم من المعنى الأصلي إلى إطلاقه على أشياء ومسميات واختلاف المفسرين حول الأشياء والمسميات لا حول الكلمة نفسها.

الكلمة	الآية	السورة	معناها
الكَلالة	١٢	النساء	هو الميت الذي ليس له ولد وما نزل، ولا والد وما صعد.
مُبْلِسون	٧٧	المؤمنون	آيسون من الشرِّ الذي أصابهم.
أخبتوا	٢٣	هود	اطمأنوا إليه، وانقطعوا لعبادته، من الخبت وهي: الأرض المطمئنة.
حَنيذ	٦٩	هود	أي: مشوي، وقيل: يقطر دسمه بدليل قوله ﷺ: ﴿بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ (الذاريات: ٢٦).
حصحص	٥١	يوسف	أي: بان وظهر، من قولهم: حصَّ شعره إذا جزَّه حتى يظهر جلد الرأس.
يَتَفَيَّأ	٤٨	النحل	أي: يرجع من (فاء) إذا رجع.
سَرِيًّا	٢٤	مريم	السَّريُّ: هو النهر الصغير كالجدول، قالوا: كان قد جفَّ ثم أرسل اللَّه فيه الماء، وقيل السَّريُّ: هو السخي من الرجال، والمقصود به عيسى عليه السلام، أي: قد وهب لك ولدا كريمًا صالحًا، فهناك معنى قاطع واضح يحكم الكلمة هذا المعنى هو: العطاء؛ فسريان الماء في النهر، ووهب الولد عطاء
المَسْجُور	٦	الطور	أي: بعضه في بعض من الماء.
قمطريرًا	١٠	الإنسان	القمطرير: هو أشد ما يكون من الأيام وأطول ما يكون من البلاء.
عسعس	١٧	التكوير	هو بداية الليل أو نهايته.

الكلمة	الآية	السورة	معناها
سِجِّيل	٨٢	هود	هو الشديد من الحجارة أو الطين المطبوخ حتى يصير كالآجر
الناقور	٨	المدثر	آلة للنقر، وهو إخراج الصوت.
فَاقِرة	٢٥	القيامة	اسم للداهية، سُمِّيَت بذلك؛ لأنها تقصم فقرات الظهر وتكسره.
إستبرق	٥٤	الرحمن	السندس هو الخفيف من الديباج، والإستبرق: الغليظ منه.
مدهامَّتان	٦٤	الرحمن	أي: أن الجنتين قد اسودَّتا من شدة الخضرة.

وبعد أن سقنا بعض الكلمات التي زُعم أنها غريبة حتى على المفسرين نقول: إنَّنا عَلِمْنَا معناها من المفسرين، وهذه الكلمات كانت مفهومة في عصر نزول الوحي، ولا شك أن لكل عصرلغته، وأن اللغة تتطور، فما كان واضحًا في عصر لا يشترط أن يكون واضحًا في العصور الأخرى.

وإذا رد أحدهم على هذا الكلام فقال: إن الصحابة لم يفهموا كل معاني القرآن وعُمِّيَت عليهم كسيدنا عمر بن الخطاب ﷺ الذي لم يعرف معنى كلمة "الأبّ" مثلًا، قلنا: إن سيدنا عمر أراد أن يعلِّمنا أن المسلم عليه أوَّلًا أن يؤمن بالقرآن إيمانًا مطلقًا حتى وإن استغلق على فهمه بعضٌ منه، فما لا يفهمه هو قد يفهمه غيره، وما لا يفهمه الآن قد يفهمه غدًا؛ ليظل القرآن كنزًا يغترف منه المسلم؛ فيهتدي بنور اللَّه إلى أسراره ولطائفه ودقائقه؛ فيزداد إيمانًا وإعجابًا

بهذا الكتاب الكريم. وهذه الكلمات التي زُعِمَت غرابتها عرفتها العرب في أشعارها وكلامها، والقرآن نزل على هؤلاء العرب، وما ادَّعوا غرابةً في ألفاظه أبدًا، بل أعجبوا بحلاوته وطلاوته، والصحابة متفاوتون في العلم، فكانوا تخصُّصات، وسيدنا عمر كان أعلم الصحابة بأمور المال، أما التفسير فهناك ابن عباس أعلم منه، ومعاذ أعلمهم بالحلال والحرام وهكذا، وكأن سيدنا عمر يريد أن يعلِّمنا أنَّ على كل إنسان أن يتكلم فيما يحسنه وفي تخصُّصه؛ فلا يتكلم في غَيرِ فنِّه، فمن تكلم في غير فنه أتى بالعجائب؛ لأنه يكون كما قال الشاعر:

يَا بَارِيَ القَوْسَ بَرْيًا لَيْسَ يُصْلِحُهَ　　　لا تَظْلِمِ القَوْسَ أَعْطِ القَوْسَ بَارِيهَا

فسيدنا عمر يُقَدِّر التخصُّص؛ حتى إنه أراد أن يعلم الصحابة ذلك فسألهم عن تفسير قوله ﷻ: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ فلم يعلموا، وسأل ابن عباس ففسَّرها لهم، وفي الصحابة أشياخ بدر، فما غَمُضَ وغَرُبَ على الصحابة وَضَح لابن عباس وهو أصغرهم سنًّا، وذلك فضل اللَّه يؤتيه من يشاء[(١)].

ومجمل القول أن الألفاظ الغريبة في القرآن الكريم هي ألفاظ نادرة، وهي ليست بغريبة على علماء اللغة والعارفين بها، ورب كلمة غريبة عند إحدى قبائل العرب، ليست بغريبة في قبائل أخرى؛

---

(١) النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، د. محمد عبد اللَّه دراز، ص٨٣، الكشاف ٤/ ٤٢٠، البحر المحيط ٨/ ٦٠٧، حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشكِّكين، جماعة من العلماء، إشراف: د. محمود حمدي زقزوق، وزارة الأوقاف، مصر، ٢٠٠٤م، ص١٠٦.

ومن هنا كانت غرابة بعض الألفاظ على الصحابة ـ رضي اللَّه عنهم ـ فإن القرآن الكريم شمل لغات العرب كلها أَوْ جُلَّها، بل إن النبي ﷺ كان يكلم وفود القبائل بلغاتهم لا بلغة قريش فحسب، وقد تعجب لذلك عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه وهو مَنْ هُوَ في العلم باللغة والفصاحة والبلاغة!

وإذن فوقوع ألفاظ غريبة - على ندرتها - في القرآن الكريم لا ينفي معرفة العرب بهذه الألفاظ، ولا يتنافى مع الغاية من الرسالات السماوية وهي الهداية والإرشاد، وما يزال القرآن العظيم يُتْلَى فيفهم منه كل إنسان بقدره، مهما كان حظُّه من العلم يسيرًا، وكائنًا ما كان عمره أو ثقافته أو بيئته.

ثم أين هذه الألفاظ (الغريبة) في القرآن الكريم من آلاف الغرائب والأوابد في اللغة؟!

ونسوق لكم مثالًا واحدًا لكلمة معروفة للعرب قاطبة هي "اللبن"، ومن مرادفاتها:

لبن أُمْهُجانٌ، وأُمْهَج بالفتح وأُمْهُوج أيضًا: اللبن الخالص. والماضر: اللبن الحامض ومنه سُمِّيَت المضيرة، ومثله الخاثر. والضَّيَاح: اللبن الممزوج بالماء. والرِّسْل: اللبن الحليب نفسه. والمذيق: اللبن الممزوج بالماء، والصريح الخالص منه. والعُجَالِط والعُجَلِط: الرائب الغليظ. والرُّوبة بغير همز: اللبن الحامض الذي قد رُوِّبَ به الحليب. والعَكِيُّ بتشديد الياء: اللبن الحامض. والهُجْمة والهَجِيمة: اللبن قبل أن يحمض. والحاذر: اللبن الحامض، فإذا تقطَّعَ وصار اللبن ناحية والماء ناحية فهو مُمْذَقِرٌ، فإن

تكَبَّدَ بعضه على بعض وحمض فلم يتقطع فهو إذْك. والعُثَلِط والهُدَبِد: ما خَثَر منه وتلبَّد. والصَّقْر: أحمض ما يكون من اللبن، فإذا صُبَّ عليه حليب فهو الرَّائثة والْمُرِضَّة. والعكيس: اللبن الحليب يُصَبُّ على مَرَق. والنَّخِيسة: لبن الضأن يُصَبُّ على لبن المعز. والصَّحيرة: الحليب المسخن حتى يحترق. والسَّمْهَج والسَّمْلَج: اللبن إذا كان حلوًا دسمًا. والمِلْعاز والمِلْهاز: اللبن يختلط بعضه ببعض عند المخض. والصَّرْب والصَّرَب: أحمض ما يكون من اللبن. والسَجَاج: أرَقُّ ما يكون من اللبن، والْمَهْو والْمَسْجُور مثله. والنَّسْء: الحليب إذا مزج بالماء، والنَّسِيُّ مثله(١).

وقد أهمل القرآن الكريم كل هذه الألفاظ الغريبة، وأورد كلمة (اللبن) فقط من بين هذه الألفاظ، وإن إيثار القرآن الحكيم للفظ السهل الواضح لهو أمر بَيِّن لكل من طالع شيئًا من شعر العرب ونثرهم وأقوالهم، ثم قارن بين هذه الاستعمالات اللغوية وبين اللفظ القرآني الفصيح المبين.

● دعوى وجود ألفاظ أعجمية في القرآن الكريم:

أثار كثير من المشككين قضية وجود ألفاظ أعجمية في القرآن الكريم، زاعمين أن تسمية القرآن بهذا الاسم مأخوذة عن السريانية، وأن تسميته بالفرقان تسمية عبرية، ثم ذكروا كلمات أخرى زعموا أنها أعجمية.

---

(١) نظام الغريب في اللغة، عيسى الربعي، ص٦١ - ٦٥ .

أما عن تسمية القرآن:

فهذه القضية سائدة بائدة، سائدة عند المشككين، يتلقونها بألسنتهم، ويقولونها بأفواههم، مُنبئِين عن جهل مُرَكَّب يفضحه كلامهم؛ لأنها مبنية على شفا جرف هار، وستنهار بأيسر مجهود ـ إن شاء اللَّه ـ وذلك على النحو الآتي:

أولًا: حول تسمية القرآن:

إنَّ الزَّعم بأن كلمة "الفرقان" ذات أصل عبريٍّ وأنَّها تعني "**المُخلِّص والمنجِّي**"، وأن كلمة "القرآن" مشتقة من كلمة **(قريانا)** السريانيَّة والتي معناها "**القراءة المقدسة**"، وأنها عُدِّلت إلى وزن "فعلان" حتى تناسب الذوق العربي. كلام باطل إذا علمنا أن كلمتي "**فرقان، وقرآن**" أصولهما عربية.

فأما كلمة **(فرقان)** فتدور معانيها حول التفرقة والتمييز عن طريق معرفة ما يميِّز كل عنصر؛ وغالبًا ما تستخدم في مقامات التفرقة بين الحق والباطل؛ فتكون حجَّة وبرهانا[١] ولذلك هي عربية أصيلة في أصالتها.

أمَّا كلمة **(القرآن)** فهي في الأصل مصدر على وزن "**فُعلان**"

---

(١) تقول المعاجم: فرَّق . بين القوم: أحدث بينهم فرقة، وبين المتشابهين: ميز بعضهما من بعض، والفارق: ما يميز بين أمر وآخر، والفاروق: من يفرِّق بين الحق والباطل . وهو نعت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ، والفرقان: هو القرآن كما في القرآن: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَـٰلَمِينَ نَذِيرًا ۝١﴾ (الفرقان: ١)، والفرقان: يوم بدر، والفرقان: كتاب يفرق به بين الحق والباطل . انظر: (المقاييس، اللسان، الوسيط، ف ر ق)

بالضم كالغفران والشكران والتكلان، نقول: قرأته قراءةً وقُرْآنًا بمعنى واحد أي: تلوتُه تلاوة، وقد جاء استعمال القرآن بهذا المعنى المصدري في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾ (القيامة: ١٧ - ١٨)، ثم صار علمًا لذلك الكتاب الكريم، وهذا هو الاستعمال الأغلب، ومنه قوله ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: ٩)، ويطلق بالاشتراك اللفظي على مجموع الكتاب، وعلى كل قطعة منه، فإذا سمعت من يتلو آية من القرآن صح أن نقول: إنه يقرأ القرآن(١).

وحتى لو سلمنا أن الكلمتين (قرآن ـ فرقان) عبريتان أو سريانيتان ـ كما يزعمون ـ فلنا أن نتساءل: أليست العبرية والسريانية من الأسرة السامية التي تُعدُّ العربية إحدى فصائلها؟ وعلماء الساميات يقررون كلمات كثيرة مشتركة بين اللغات السامية حتى عصرنا الحاضر، ولذلك فَرَدُّ الكلمة إلى أصلها الساميّ أو اشتراك أكثر من لغة ساميَّة في كلمة من الكلمات لا ينفي أصالة الكلمة في هذه اللغة.

• الكلمات الأعجمية والغريبة في القرآن:

إن هذه المسألة تثار دومًا للتشكيك في أن القرآن وحي من عند اللَّه، والادّعاء بأن النبي ﷺ تعلمه من غيره، وهو ادّعاء قديم حكاه القرآن في قوله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ

---

(١) رُوعِيَ في تسميته قرآنًا كونه متلوًا بالألسن، كما روعي في تسميته كتابًا كونه مدونًا بالأقلام، فكلتا التسميتين من تسمية شيء بالمعنى الواقع، وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، نعني . أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعًا

﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ۝١٠٣﴾ (النحل: ١٠٣)[١].

ولا خلاف بين الأئمة في أنه ليس في القرآن كلام مركَّب على أساليب غير العرب، وأن فيه أسماء أعلام غير عربية كإسرائيل وجبريل وعمران ونوح ولوط، واختلفوا: هل وقع فيه ألفاظ غير أعلام مفردة من غير كلام العرب، فذهب القاضي أبو بكر بن الطيب وغيره إلى أن ذلك لا يوجد فيه، وأن القرآن عربيٌّ صريح، وما وُجد فيه من الألفاظ التي تُنسَب إلى سائر اللغات إنما يتَّفق فيها أن تواردت اللغات عليها، فتكلمت بها: العرب، والفرس، والحبشة وغيرهم. وذهب بعضهم إلى وجودها فيه، وأن تلك الألفاظ لقلَّتها لا تُخرِج القرآن عن كونه عربيًا مبينًا، ولا تُخرِج رسول اللَّه ﷺ عن كونه متكلِّمًا بلسان قومه.

قال ابن عطية: "فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ أنها في الأصل أعجمية، لكن استعملتها العرب وعرَّبتها، فهي عربية بهذا الوجه،

(١) ورد في سبب نزول الآية أن كفار مكة ادَّعوا أن النبي ﷺ تعلم القرآن من سلمان الفارسي رضي الله عنه .
وقيل: إن النبي ﷺ كان يجلس إلى غلام للفاكه بن المغيرة يقال له: جبر، وكان جبر يقرأ الكتب فقالت قريش: واللَّه ما يعلِّم محمدًا إلا جبر النصراني، وقيل: كان بمكة رجل نصراني يقال له أبو ميسرة يتكلم بالرُّومية، فربما قعد إليه رسول اللَّه ﷺ فقال الكفار: يتعلم منه؛ فأنزل اللَّه ﷻ تكذيب هذه الأقوال . ويعلق القرطبي على هذه الأقوال فيقول عن النبي ﷺ: إنه ربما جلس إليهم في أوقات مختلفة؛ ليعلمهم مما علمه اللَّه، وكان ذلك بمكة، وقال النحاس: "وهذه الأقوال ليست بمتناقضة؛ لأنه يجوز أن يكونوا أومأوا إلى هؤلاء جميعًا وزعموا أنهم يعلمونه" (القرطبي ١٠/ ١٧٧ - ١٧٨) .

وقد كان للعرب العاربة ـ التي نزل القرآن بلسانها ـ بعض مخالطة لسائر الألسنة، بتجارات قريش، وكسَفَر مسافر بن أبي عمرو إلى الشام، وكسَفَر عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص وعمارة بن الوليد إلى الحبشة، وهكذا".

وقد ناقش الدكتور عبد الرحمن بدوي مزاعم المستشرقين في هذا الصدد وخلص إلى قوله: "ولكي نفترض صحة هذا الزعم فلا بد أن محمدًا كان يعرف العبرية والسريانية واليونانية، ولا بد أنه كان لديه مكتبة عظيمة اشتملت على كل الأدب التلمودي، والأناجيل المسيحية، ومختلف كتب الصلوات، وقرارات المجامع الكنسية، وكذلك بعض أعمال الآباء اليونانيين وكتب مختلف الكنائس والملل والنِّحل المسيحية"، ويعلق الدكتور عبد الرحمن بدوي على ذلك فيقول: "هل يمكن أن يُعقل هذا الكلام الشاذ لهؤلاء الكُتَّاب؟! وهو كلام لا برهان عليه.

إن حياة النبيِّ محمد ﷺ قبل ظهور رسالته وبعدها معروفة للجميع. ولا أحد قديمًا أو حديثًا يمكنه أن يؤكد أن النبيَّ ﷺ كان يعرف غير العربية، إذن كيف يمكن أن يستفيد من هذه المصادر كما يدَّعون؟!

والكل يتفق على أن اللغات: العربية والعبرية والسريانية تنتمي إلى سلالة لغوية واحدة هي سلالة اللغات السامية، ولا بد من أجل هذا أن يكون بينها الكثير من التشابه والتماثل. ومن ثم فإن القول بأن إحدى اللغات قد استعارت ألفاظًا بعينها من أخواتها هو ضرب من التعسُّف لا دليل عليه.

ويمكن أن تكون هذه الألفاظ قد وجدت في العربية قبل زمن النبي ﷺ بوقت طويل، واستقرت في اللغة العربية حتى أصبحت جزءًا منها، وصارت من مفرداتها التي يروج استخدامها بين العرب.

كما أن من المستحيل الآن - بسبب غموض التاريخ للغات السامية - أن نحدد من اقتبس هذه الألفاظ المشتركة من الآخر: العربية أم العبرية[1].

نأتي الآن إلى مسألة الكلمات الأعجمية في القرآن، ونجملها في النقاط الآتية:

إنَّ نسبة الكلمات التي يقال عنها: إنها أعجمية في القرآن قليلة جدًّا بالقياس إلى نسبة الكلام العربي؛ وهذه النسبة القليلة لا تُخرج القرآن عن عربيته أبدًا، وآية ذلك أننا لو سمعنا أو قرأنا كلامًا عربيًّا به بعض الكلمات الأعجمية القليلة فهذا لا يجعلنا نقول: إن هذا الكلام أعجمي.

لقد أجهد المشككون أنفسهم في حصر الكلمات الأعجمية في القرآن، وهذا أوقعهم في خلط كبير؛ حيث إنهم حشدوا كلمات ظنُّوا أعجميتها وهي عربية، ومن أمثلة ذلك كلمات: الزكاة، السكينة، السِّجِّيل، الجِنّ، الحُور، العِين، السُّورة، الصِّراط، هذه الكلمات عربية أصيلة في عربيتها، فمثلًا **(الزكاة)** من: زكا يزكو فهو زاكٍ، وأصل هذه المادة هي الطُّهر والنَّماء، وكذلك (السكينة) بمعنى: الثبات والقرار، ضد الاضطراب، ولها

---

(١) (١٣٥) الدفاع عن القرآن ضد منتقديه، د. عبد الرحمن بدوي، ص٣٧، ٤٢، ٦١، ٦٢.

جذر لغوى عميق في اللغة العربية، يقال: سَكَنَ بمعنى: أقام، ويتفرع عنه: يسكن، ساكن، مَسْكَن، أسكن. وكلمة (**سِجِّيل**) عربية أيضًا ومعناها: الشديد من الحجارة، أو الطين المطبوخ حتى يصير بمنزلة "الآجر"، وذكر أبو عبيدة أن الشاعر استخدم هذه اللفظة بمعنى الشديد في قوله:

وَرَجْلَةٍ يَضْرِبُون البِيضَ ضَاحِيَةً ... ضَرْبًا تَوَاصَى بِه الأَقْدَامُ سِجِّيلا

أما كلمة (**الجن**) فليست مأخوذة من اللغة الفارسية - كما يزعمون - فهي من جَنَّ الظَّلام، أي اشتد، وجنَّ الشيءُ: استتر، وَجَنَّ الميتَ: كفَّنَه وقبَرَه، وَجُنَّ الرجلُ جُنونًا أي: استتر عقله، ومن هذا المعنى - الستر - أخذت كلمة الجن؛ لأنه استتر عن أعين الناس.

أمَّا كلمة (**الحور العين**) فقد استعملها العرب قبل نزول القرآن الكريم، فالحور جمع حوراء، وهى: الشديدة سواد العين الشديدة بياض العين مع رِقَّة جفونها، وفي هذا المعنى يقول الشاعر الكميت:

وَدَامَتْ قُدُورُكَ للسَّاغبيـ ... ـنَ في الْمَحِلِّ غَرْغَرْةً وَّاحْوِرَارًا

وقيل: **الحَوَر** أن تَسْوَدَّ العينُ كلُّها مثل أعين الظباء والبقر، وليس في بني آدم حور، وإنما قيل للنساء: الحور العين؛ لأنهنَّ شُبِّهنَ بالظَّباء والبقر.

أما **العِينُ** فهي جمع عيناء، ومعناها: واسعة العينين، وهي صفة غالبة في البقر الوحشيِّ فعرف بها، وفي ذلك قال لبيد:

وَالعِينُ سَاكِنَةٌ عَلَى أَطْلائِها ... عُوذًا تَأَجَّلَ بِالفَضَاءِ بُغَامُهَا

فهذه الكلمة - كما تَبيَّن - عربية، ولكنّ المشككين يزعمون أنها

زرادشتيَّة، وهو كلام باطلٌ.

أما بقيَّة الكلمات التي قالوا إنها أعجمية - وهي كذلك - فهي لا تقدح في عربية القرآن - كما تبيَّن - حيث إنها تمثلت في مفردات لا في تراكيب، والتراكيب هي التي تُعَبِّر عن نظام اللغة في أصواتها وصرفها ونحوها ودلالتها.

• دعوى وجود ألفاظ تجرح الحياء في القرآن الكريم:

ادَّعى المشكِّكون أنَ في القرآن الكريم ألفاظًا تخدش الحياء، واستدلُّوا لذلك بالكلمات الآتية:

- المَنِيّ في قوله ﷻ : ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ (القيامة: ٣٧).

- الفَرْج، كما في قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ (النور: ٣١).

- الحور العين، كما في قوله تعالى:

﴿وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ (الدخان: ٥٤، الطور: ٢٠).

- الترائب، في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾﴾ (الطارق: ٧).

وإنَّها لدعوى ساقطة، فلقد نزل القرآن الكريم على النبي ﷺ بحضرة رجال، كان منهم قوم أحرص الناس على أن يجدوا فيه مغمزًا، وعليه مطعنا، فلو كان هذا يعدُّ عندهم جرحًا للحياء أو قبحًا لَعلِقُوا به ولأسرعوا باتِّهام القرآن به، ولكن القوم علموا وجهلتم، فلم ينكروا ما أنكرتم.

ونحن ندعو الذين يزعمون هذا الزَّعم أن يتأملوا معنا دقَّة القرآن وبلاغته في اختيار هذه الألفاظ للتعبير عن الدلالات المقصودة منها؛ كما ندعوهم أيضًا إلى أن يأتوا لنا ببديل هذه الألفاظ للتعبير عن هذه الدلالات - بهذه الدقة القرآنية - إذا كانت الألفاظ التي استخدمها القرآن لا تعجبهم.

● **المَنِيّ:**

من خلال مطالعة المعاجم نجد أنَّ هذا اللفظ يعني النُّطفة، وهو سائل ثمين تسبح فيه الحيوانات المنوية، ونجد أن كل موضع أو سياق ورد فيه هذا اللفظ في القرآن الكريم إنما كان حكايةً لخَلْق الإنسان بأسلوب مهذَّب، وليس فيه ما يخدش الحياء، فالقرآن الذي يصور لنا العلاقة بين المرأة والرجل في قوله ﷻ: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (البقرة:١٨٧)، يُصوِّرها باستعارة بديعة؛ حيث شبه الزَّوجين وهما في مخدعهما باللباس المشتمل على لابسه، والمراد قربُ أحدهما من الآخر واشتماله عليه كما تشتمل الملابس على الأجسام، أين هذا من الكلام الفاضح الذي نقرؤه صباحَ مساء في الروايات الفاضحة، وأغلفة المجلاّت والصحف، وما يُشاهد في القنوات الفضائية من ممارسة الفاحشة بدون تستُّر كالحيوانات؟!

ولنتساءل: ما البديل إذا أردنا أن نتحدث عن قضية خلق الإنسان غير هذا اللفظ إن كنتم ترون أنه خادش للحياء؟

● **الفَرْج:**

تذكر المعاجم العربية أن **الفرج** هو: الثَّغر، والشقُّ بين شيئين،

وما بين الرِّجْلَيْن، وكُنِّي به عن السَّوْءَة، وغلب عليها وكثُر حتى صار كالصريح، وهو قُبُل الإنسان أو دُبُره[(١)].

ولعل هذا أهذبُ لفظ يمكن أن يُطْلَقَ على الْعَوْرَة، وإلا فما البديل الأكثر تهذيبًا، أو مراعاةً للحياء إذا كان لفظ الفَرْج يجرح الحياء؟!

● **الحور العين:**

كان الأَوْلى بِمَن ظَنَّ أن هذا اللفظ لفظٌ فاضح أن يرجع إلى أيّ تفسير أو معجم عربيّ؛ ليجد نفسه مسكينًا يجهل معنى أبسط كلمات القرآن، ومنها (الحور العين).

فالحور: جمع حَوْراء، وهي شديدة بياض بياض العين، شديدة سواد سوادها.

والعِين: جمع عيناء، وهي واسعة العين التي استدارت حدقتها. ورقَّت جفونها، وابْيَضَّ ما حواليها.

وهذا الوصف - كما قال اللغويون والمفسِّرون - لا يكون في بني آدم، وإنما قيل للنساء: (**حور عين**)؛ تشبيهًا لهنَّ بالظِّباء والبقر في جمال عيونها.

وهذا الوصف ورد في القرآن الكريم لإحدى النِّعم التي يتنعم بها المؤمنون في الجنة جزاءً بما كانوا يعملون في الدنيا.

إنَّ اللفظ الذي يجرح الحياء، أو اللفظ القبيح، هو ذلك الذي

---

(١) اللسان (ف ر ج).

يستحيي المرء أن يتلفظ به أمام الناس، والسؤال: هل يستحيي أحد من التلفُّظ بـ(**الحور العين**) أمام أحد؟!

• الترائب:

لقد أثار صاحبنا شفقتنا عليه بعدما أضنى نفسه في البحث والتنقيب في القرآن ليضع يده على لفظٍ فاضحٍ أو خادش للحياء؛ لكنه خرج صفر اليدين، وليُثبت ذكاءه راح يلتقط كلمةً من هنا أو هناك مدَّعيًا أنها فاضحة أو خادشة للحياء، ومن هذه الكلمات لفظ "**الترائب**" في قوله ﷻ: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴿٧﴾﴾ (الطارق: ٧)، وكان الأَوْلى به ما دام يريد أن يُثبت ذكاءه أن يُطالع كُتب التفسير، أو حتَّى المعاجم؛ ليتعلَّم أولًا، ثم ليزداد إعجابه بالقرآن الكريم، ولا يزال هكذا يطالع ويتدبَّر ويتأمَّل، فيتعلَّم ويتبصَّر حتَّى يجد نفسه من أشدّ المحبين للقرآن وأصدق الموقنين به، وأوَّل من يصحِّح خطأ المتوهمين ويزيل لبس من أساء الفهم: أن كلمة "**الترائب**" أربع أضلاع من يَمْنة الصدر، وأرْبعٌ من يَسْرته. وقيل: هي عِظام النحر والصَّدر، وهذه الكلمة وردت في القرآن الكريم للتعبير عن المكان الذي ينشأ فيه الماءُ الذي يكون منه الولد. فهو في الرَّجل في قوله ﷻ: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ﴾، وهو في المرأة يخرج من بين الترائب. وفي هذا ما فيه من الإعجاز العلمي الذي نُحيل الجميع إلى مطالعته. والسؤال التقليدى: ما الذي يجرح الحياء في هذا اللفظ؟ وإن كان فما البديل؟ ولماذا سكت عنه العرب؟

وإذا كان صاحبنا يعتبر (**المنيّ، الفرج، الحور العين، الترائب**) ألفاظًا جارحة، فماذا يمكن أن يقول عَمَّا جاء في الكتاب المقدس

من تصوير نبي اللَّه إبراهيم ﷺ في سفر التكوين بأنه يتاجر بعرض امرأته، ويُلَقِّنها الكذب وينكر فحولته، وهي توافقه على ذلك وتسلم قيادها لفرعون (سفر التكوين: ١٢)؟ أو ما اتُّهم به داود ﷺ من أنَّه يضاجع النساء زِنًا، وأنه يزني بالمتزوجات ويحبلهن (الإصحاح الحادي عشر من سفر صموئيل الثاني)، ثم تتوالى المشاهد الجنسية الفاضحة لتصل إلى ذروتها مع سيدنا لوط ﷺ، الذي اتُّهِمَ بأنه يُمارس الجنس مع بناته فيحبلن منه، يقول الكتاب المقدس:

"فحبلت ابنتا لوط من أبيهما" (سفر التكوين ١٩: ٣٠ - ٣٨).

أو ما جاء في سفرٍ كامل نسبوا فيه لنبي اللَّه سليمان ﷺ أنه يتغزَّل، **وحاشاه**، في محبوبته، ويتناولها بوصف دقيق لتفاصيل جسدها، فيقول:

"شعرك كقطيع معز، عيناك حمامتان من تحت نقابك، أنفك كبرج لبنان. خدُّك كفلقة رمانة تحت نقابك، تحت لسانك عسل ولبن.... إلخ " (نشيد الإنشاد).

والسؤال: هل يمكن تعليم الأطفال مثل هذا الكلام؟! إنَّنا نُحفِّظ القرآن الكريم للأطفال، وليس فيه كلمة واحدة نخجل منها، فماذا يمكن أن يقولوه للأطفال إذا سألوهم عن معنى: "وسكبوا عليهما زناهم"؟!!

ثم ماذا يمكن أن يقولوه أيضا لو أن فتاة سألت عن معنى: (فحبلت ابنتا لوط من أبيهما)؟!

ونكتفي بهذا القدر الذي يظهر الفرق الواسع والبَوْن الشاسع بين التزام النص القرآني، وبين انحطاط التخاريف البشرية وسقوطها على مدى آلاف السنين[١].

---

(١) اللسان، الوسيط (ت ر ب، ح و ر، ع ي ن، ف ر ج، م ن ي)، الكشاف ٢/ ٦١، ٣/ ٥٠٧، ٤/ ٢٤١؛ البحر المحيط ٦/ ٤٤٧، ٨/ ٤٠، ٨/ ٤٥٥ .

شبهات بلاغية

أثار المشككون شبهات حول بلاغة القرآن الكريم، وأوردوا شبهاتهم تلك بلا ضابط، ولا منهج، وها نحن نوردها بعد إخضاعها لمنهج بلاغي منظم:

● دعوى التناقض:

زعموا أن في القرآن الحكيم تناقضات، مثلوا لها بالآيات التالية:

١) قول اللّه تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ (الأنفال: ١٧)؛ إذ كيف ينفي عن المسلمين القتل مع أنهم قتلوهم يوم بدر؟ وكيف ينفي عن النبي ﷺ الرمي مع أنه أثبته له في الآية نفسها؟!

نعم في الآية إثبات ونفي للقتل والرمي:

- فالمنفيُّ هو حقيقة الرَّمْيِ والقتل، أي إزهاق الأرواح؛ لأن هذا بيد اللّه ﷻ وحده.

- والمثبَت هو الجِهاد بالرَّمي وقتال العدوِّ، وهو من كسب العباد.

- فقوله ﷻ ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ﴾ معناه: لم تأخذوا أرواحهم، ولكنكم قاتلتوهم فقتلهم اللّه، على غرار قول اللّه تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ (التوبة: ١٤).

- وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ يقص علينا ما كان من أمر النبي ﷺ حين أتاه جبريل عليه السلام وأمره أن يقذف جموع المشركين

بقبضة من التراب، فلما التقى الجمعان قَبَضَ النبيُّ ﷺ قَبْضَةً مِنْ تُرَابٍ مِنْ الأَرْضِ ثُمَّ اسْتَقْبَلَ بِهِ وُجُوهَهُمْ فَقَالَ: «شَاهَتْ الْوُجُوهُ»، فَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْهُمْ إِنْسَانًا إِلاَّ مَلأَ عَيْنَيْهِ تُرَابًا بِتِلْكَ الْقَبْضَةِ، فَوَلَّوْا مُدْبِرِينَ، فَهَزَمَهُمْ اللَّهُ ﷻ[١].

إذن فالنبي ﷺ رمى بقبضة التراب امتثالًا لأمر اللَّه ﷻ، ولكن هذا الرَّمْيَ لا يمكن أن يكون له ما كان من أثر حتى زلزلت صفوف المشركين وانهزموا، فأثبت الرمي للنبي ﷺ؛ لأن صورة الرمي وجدت منه، ونفاه عنه لأن أثره الذي لا يطيقه البشر، هو من فعل اللَّه ﷻ على الحقيقة.

ولو أن صاحب هذه الشبهة راجع نظرية الكسب في الفلسفة الإسلامية وعلم الكلام - لَمَا قال ما قال. ومجمل هذه النظرية - لمن أراد أن يعلم - أن العَبْدَ مأمور بالفعل من جهاد وغيره، ولكن تحقيق الفعل وبلوغه غايته ليس من شأن العبد، إنه بأمر اللَّه تعالى.

ونظرية الكسب هذه موقف وسط بين الجبرية المطلقة والاختيار المُطْلَق، وهو موقف عقلانيٌّ يُعْلِي من شأن الفعل والاختيار الإنساني وفي الوقت نفسه لا يُفْرِط في إطلاق العنان للإنسان؛ ومن الواضح الذي لا ريب فيه أن ثمة أحداثًا تقع بغير إرادة الإنسان، فالمرء قد يحاول مراتٍ ومراتٍ في أمرٍ ما، ولا يصل إلى النتيجة المرجوَّة، وقد يريد الخير فلا يحصد سوى الشرِّ، والعكس صحيح. إذن فنحن مأمورون بفعل الخيرات، أمَّا النتائج المترتبة على الفعل فأمرها بيد اللَّه ﷻ.

---

(١) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين، رقم ٣٢٢٨ .

فهذه دعوة إلى العمل والجهاد، مع تفويض الأمر للَّه ﷻ، إذ لا فاعل على الحقيقة سواه جل شأنه[(١)].

٢) قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ (الجمعة: ٢) فمدح العرب في هذه الآية، وذمَّهم في آية أخرى هي قوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ (التوبة: ٩٧).

أما قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾؛ فليس بمدح للعرب، ومعنى الأميين باتفاق المفسرين: مشركو العرب، وكل من لا كتاب لهم[(٢)].

وفي الآية تذكير للعرب بنعمة اللَّه عليهم؛ إذ أخرجهم من أميتهم وجاهليتهم بما أنزل عليه من آياته البينات.

وأما قوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا﴾؛ فليس بذم للعرب، ولكن لصنفٍ واحد من العرب هم الأعراب، وهم أهل البدو، وهم أشد كفرًا ونفاقًا من أهل الحضر؛ لجفائهم وقسوتهم وتوحشهم، ونشأتهم في جوٍّ بعيد عن العلم والعلماء؛ ولذلك عقب على هذا الحكم بقوله تعالى: ﴿وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾؛ لبعدهم عن مهبط الوحي ومصادر العلم والمعرفة[(٣)].

---

(١) الطبري ٩/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥، تفسير البغوي ٢/ ٢٣٧: ٢٣٨، الكشاف ٢/ ١٤٩: ١٥٠، القرطبي ٧/ ٣٨٤: ٣٨٥، التفسير القيم لابن القيم، ص٢٨٧: ٢٨٨، ابن كثير٢/ ٤٦٥: ٤٦٦، روح المعاني ٩/ ١٨٤: ١٨٧ .

(٢) الكشاف ١ / ٤١٩، ٤ / ١٠٢، البحر المحيط ٢ / ٤١٣ .

(٣) الكشاف ٢ / ٢٠٩، البحر المحيط ٥ / ٩٠ .

وعلى هذا فلا تناقض أصلًا بين الآيتين؛ لأن الأولى ليست مدحًا للعرب، كما أن الثانية ليست ذمًّا للعرب، بل ذم لصنف واحد منهم من جفاة البدو.

٣) قول اللَّه تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ (يونس: ٦٤)، زعموا أنه يناقض قوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ (النحل: ١٠١).

لقد تعجَّل من ظن هذا التناقض؛ فوقع في الخطأ، وبدا له أن بين الآيتين تناقضًا، وهنا نتساءل: ما معنى التناقض؟ وهل عند الزاعم علم به؟ نقول: إن التناقض يكون بين أمرين عقليين محال الجمع بينهما، ومن ثم يجدر بنا أن نعرف المعنى في الآيتين لنوضح ذلك التوهم، وكما قيل: لو علم السبب لبطل العجب! لنرى:

الآية الأولى معناها: لا تبديل ولا تغيير لأقواله ﷻ ولا إخلاف لوعده، ولا تحويل لسُنَّة اللَّه في الكون؛ فالمقدمات لابد لها من نتائج، وسُنَّة اللَّه لا تتبدل؛ فالصالح يكدُّ ويتعب ويغالب شهواته لينال الجنة، والعاصي ترك النَّفس حسب هواها وتمادى في المعاصي؛ فالجزاء النار.

أما الآية الثانية فمعناها: إذا بدلنا شريعة متقدِّمة بشريعة مستأنفة، وقيل: رفعنا آية وأثبتنا غيرها، وهذا ما يسمى في علوم القرآن (علم الناسخ والمنسوخ). فالآية الناسخة مكان المنسوخة، واللَّه أعلم بما ينزل من المصالح، فلعل ما يكون مصلحة الآن لا يصلح لوقت لاحق[1]، والتدرج في معالجة النفس البشرية من حكمة الباري،

(١) الطبري ١١/ ١٣٨، ١٤/ ١٧٦، تفسير البغوي ٢/ ٣٦٠، ٣/ ٨٤، الكشاف =

وسبحان اللَّه الحكيم الخبير.

فأين التناقض إذن؟! وهل من المُحال الجمع بين سنن اللَّه في الكون وثباتها مع نسخ حكم بحكم آخر يتناسب ومصلحة العباد، أخبرنا - باللَّه عليك - أيها المتوهِّم أين التناقض؟!

٤) قوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝٦ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ (الأعلى: ٦ - ٧)، زعموا أنه يناقض قوله ﷺ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ (الحجر: ٩)؛ حيث إن الآية الأولى تعني - حسب زعمهم - أن الرسول ﷺ ينسى ما شاء اللَّه أن ينسيه إياه، في حين أن الثانية تعني أنه لا ينسى شيئًا مما يمليه اللَّه عليه؛ لأن اللَّه حافِظُه من الضياع والنسيان.

ومَرَدُّ هذه الشبهة الجهل بقواعد العربية وعدم الفهم الصحيح؛ حيث إن (لا) في الآية الأولى نافية وليست ناهية، أي بمعنى: سنقرئك قراءة لن تنسى بعدها أبدًا، وإثبات حرف العلة في آخر الفعل (تنسى) يؤكد أن (لا) نافية؛ وعليه فكلاهما تؤكد الأخرى ولا تناقض.

٥) قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ۝٣٩﴾ (الرحمن: ٣٩)، زعموا أنه يناقض قوله تعالى:

﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٩٢ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (الحجر: ٩٢ - ٩٣).

ونحن نلتمس العذر لمن أورد هذه الشبهة؛ لأن فهمه وقف به عند حد معين، فوقف عند ظاهر الآيتين ولم يتعمق في محاولة فهم كل في سياقه. ولو نظر نظرة في كتب التفسير لما أورد هذه الشبهة. وحاصل

= ٢/٢٤٣، ٢/٤٢٨، القرطبي ٨/٣٥٩، ١٠/١٧٦، الفخر الرازي ٢٠/١١٨، ابن كثير ٢/٦٥٧، ٢/٩٠٩، روح المعانى ١٤/٢٣١: ٢٣٢ .

ما ذكره العلماء في هاتين الآيتين، وآية ثالثة هي قوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ (القصص: ٧٨)، هو ما يلي:

• أن في القيامة مواقف عدة، ففي بعضها يُسْأل وفي بعضها لا يسأل.

• المراد بالسؤال في آية الحجر (٩٢) أن يُسألوا: لِمَ عَمِلْتُم، ، والمراد بنفي السؤال في آية الرحمن (٣٩): ماذا عملتم. فهم يُسْألَون عن السبب الذي دفعهم لارتكاب ما ارتكبوا، ولا يُسْألَون عن كُنْه الذنوب التي ارتكبوها؛ لأن اللَّه ﷻ أعلم بذلك.

• أن المراد بالسؤال: سؤال توبيخ للمجرمين والعصاة، والمراد بنفي السؤال: أنهم لا يُسْألون استعلامًا عما فعلوه(١).

• أنهم يسألون فيُقِرُّون بذنوبهم، ثم يُخْتَم على أفواههم فتنطق أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون(٢).

٦) زعموا أن استعمال القرآن الكريم لأسلوب الحصر فيه تناقض، ومَثَّلوا لذلك بقول اللَّه ﷻ: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ۝٥٥﴾ (الكهف: ٥٥).

حيث زعموا أنه يناقض قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٤﴾ (الإسراء: ٩٤).

---

(١) كشف المعاني لابن جماعة، تحقيق/ د. محمد محمد داود، ص١٢٩ .

(٢) النقاط المذكورة سابقًا وهذه النقطة وردت في: الكشاف ٤/٤٨، البحر المحيط ٨/ ١٩٢ .

فآية الكهف حصرت المانع من الإيمان في شيئين، وآية الإسراء حصرت المانع من الإيمان في شيء آخر مختلف عنهما.

وليس بين الآيتين تناقض للآتي:

هذا النوع من القصر في الآيتين يُسَمَّى: القصر الإضافي أي النِّسْبِي، ونظيره قول اللَّه ﷻ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ (آل عمران: ١٤٤)، ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ (الرعد: ٧)... إلخ.

ولا أحد يشك أن محمدًا ﷺ رسولٌ، ومُعلِّم، وقائدٌ، إلى آخر صفاته ﷺ. ولكن القصر في الآية نسبيٌّ؛ أي هو قصر خاصٌّ بهذا السياق في الرَّد على من زعم له الخلود.

والقصر في آية الكهف خاصٌّ ببعض الأسباب التي منعتهم من الإيمان، وهو طلبهم أن يروا العذاب الذي توعدهم اللَّه به عيانًا، أو أن يَحِلَّ بهم ما حَلَّ بالمكذبين قبلهم من خسفٍ وإغراقٍ وتدمير... إلخ.

وفي آية الإسراء جاء القصر خاصًّا بالسبب الأهم من الأسباب التي حالت بينهم وبين الإيمان وهو استبعادهم أن يكون الرسول بشرًا مثلهم، وطلبهم أن يبعث اللَّه إليهم رسلًا من الملائكة.

ثم إن آية الكهف معناها:

أن الذي منع الناس من الإيمان باللَّه ﷻ وترك ما هم فيه من الشرك حين جاءهم الهدى، سواء أكان هذا الهدى المقصود به القرآن الكريم بما فيه من سُموّ المعاني المُوَجِّه لها، أو الرسول ﷺ، وما منعهم من الاستغفار أيضًا بالتوبة من الذنوب والآثام، ما منعهم

من هذا كلِّه إلَّا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وُعدوا به عيانًا ومواجهةً كما في قولهم: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (الأنفال: ٣٢).

وقد يسأل سائل: إذا كان هؤلاء قد كُتب عليهم العذاب مثل غيرهم من السابقين فأين التكليف، وأين الاختيار؟!

ونُجيب على مثل هذا بأن اللَّه ﷻ سبق في علمه وقضائه أن تجري عليهم سُنّة الأولين، والمُراد بها الإهلاك بعذاب الاستئصال والمسخ والصيحة والخسف والغرق وعذاب الظُّلَّة ونحو ذلك، والطلب هنا ليس سببًا للمنع من الإيمان؛ إذ إن تَعنُّتهم وعنادهم جعلهم طالبين للعذاب، ومن ثم فعدم الإيمان متأصل عندهم.

أما معنى آية الإسراء فهو: أن هناك موانع كثيرة تحول دون إيمان هؤلاء الناس، لعلّ أهمها هو استبعاد أن يكون الرسول المُنزّل إليهم من البشر، أو هو المانع بحسب الحال وسياق الآيات عند سماعهم جواب النبيّ ﷺ ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ (الإسراء: ٩٣)، وطلبهم أن يكون الرسول المُنزَّل من الملائكة، فجاء جواب القرآن في غاية المنطق والعقلانية؛ إذ لو كان في الأرض ملائكة يمشون لكان نزول ملك من السماء رسولًا أمرًا واجبًا، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ (الإسراء: ٩٥).

ويتضح من هذا أن عدم الإيمان مُتقدِّم على الطلب المانع منهم، الذي حصرته الآيتان في: استبعاد أن يكون الرسول من البشر، والإتيان بسنة الأولين، ومن هنا فالأساس عدم الإيمان، ومن ثَمَّ

فلا حرج ولا تعارض بين الحصر في الآيتين[١].

٧) قول اللَّه تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩﴾ (الأعلى: ٩).
زعموا أنه يتعارض مع قوله ﷻ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝٢١﴾ (الغاشية: ٢١)؛ لأن الآية الأولى - في زعمهم - تفيد أن التذكير لا يكون إلَّا في موضع النفع، وهذا ما تفيده "إنْ" الشرطية، أمَّا الثانية فتوجب التذكير على كل حال، سواء أنفعت الذكرى أم لم تنفع.

وليس بين الآيتين تعارض، فالأولى خطاب للنبي ﷺ وأمر إلهي له بالتذكير، فتلك مهمة الرسل، وفيه تعريض بالمشركين، وذلك قوله تعالى: ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ (الأعلى: ٩)، أي: إن نفعت الذكرى في هؤلاء، وهو توبيخ لهم واستبعاد لانتفاعهم بالذكرى؛ لشدة إصرارهم على الكفر، وهذا كما قال الشاعر:

لَقَد أَسمَعتَ لَو نادَيتَ حَيًّا   وَلَكِن لا حَياةَ لِمَن تُنادي

أما الآية الثانية فهي أمر للنبي ﷺ بالتذكير، فتلك مهمة الرسل: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾. ولم تتعرَّض هذه الآية للمشركين بالتوبيخ، بل جاء توبيخهم وتهديدهم بعد ذلك، في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ۝٢٣ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ۝٢٤﴾ (الغاشية: ٢٣ - ٢٤).

ولاشك أن الحكيم حين يخاطب المخالفين يُرَاوح بين اللين تارةً والشدة تارةً أخرى، وهذا ما جرى عليه القرآن الحكيم، فتارة

---

(١) حاشية الصبان، شرح الأشموني على ألفية ابن مالك ١/ ٤١١، القرطبي ٢٠/ ٣٧، ابن كثير ٤/ ٥٠٤، البحر المحيط ٨/ ٤٦٤، النسفي، تحقيق/ سيد زكريا، طبع نزار الباز: مكة، الرياض، ٢٠٠٠م، ٤/ ١٣٢١.

يخاطبهم خطابًا ليِّنًا ممزوجًا بالبشرى، وتارة ينذرهم ويتوعَّدهم. فأين التعارض بين الآيتين؟!

٨) قول اللَّه تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ﴾ (الحج: ٢). تساءل المشككون: كيف يكون الإنسان سكران، وليس بسكران في آن واحد؟ وساقوا هذه الآية الكريمة شاهدًا على دعواهم بوجود تناقض في الذكر الحكيم.

وهذا ظن فاسد يندفع بأدنى تأمل؛ فالآية الكريمة تتكون من تركيبين:

وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى.

الجملة الأولى: مصدرة بالفعل (ترى)، وفاعله مستتر تقديره (أنت)، والمعنى: يبدون في نظرك سكارى.

والجملة الثانية: مصدرة بأداة النفي (ما)، والمعنى: والحقيقة أنهم ليسوا بسكارى كما يبدو ذلك.

ولذلك ختمت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿وَلَـٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾، أي: تراهم سكارى على التشبيه، وما هم بسكارى على التحقيق، ولكن ما رهقهم من خوف عذاب اللَّه هو الذي أذهب عقولهم، وجعلهم يبدون لك في حال السكران المتخبط[١].

٩) قوله تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠١). زعموا أنه يناقض قوله ﷻ: ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ (الصافات: ٢٧).

---

(١) انظر: الكشاف ٣ / ٤ .

معلوم أن هناك نفختين: النفخة الأولى، والنفخة الثانية، فالآية الأولى تتحدث عن أهوال يوم القيامة ومن ذلك النفخة الأولى، فيخبرنا اللَّه ﷻ أنه إذا نُفِخَ في الصور نفخة النشور وقام الناس من القبور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون، أي: لا يفتخرون بالأنساب في الآخرة كما يفتخرون بها في الدنيا، ولا يتساءلون فيها كما يتساءلون في الدنيا: من أي قبيلة أنت؟ ولا من أي نسب؟ ولا يتعارفون؛ لهول ما أذهلهم.

أمّا النفخة الثانية؛ فإذا دخلوا الجنة تساءلوا في الجنة تساؤل راحة وتَنَعّم، فهم يشربون مما يُطاف عليهم به ويتحادثون على الشرب كعادة القوم الشاربين كما قال الشاعر:

وَمَا بَقِيَتْ مِن اللذَّاتِ إلّا أَحَادِيثُ الكِرَامِ عَلَى المُدَامِ

وإذا دخلوا النار تساءل أهل النار تساؤل حسرة وندم، وراحوا يلقون التُّهَم على ما كانوا يعبدون من دون اللَّه وعلى شياطين الغواية.

ومن ثَمَّ فلا تعارض بين أسلوبي الآيتين، فكل آية تعكس موقفًا وكل موقف يستتبع تصرفًا يليق به[1].

١٠) قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾﴾ (القلم: ٤٦). زعموا أنه يناقض قوله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ (ص: ٨٦). وادَّعوا أن الآية الأولى تثبت أن النبي ﷺ

(١) القرطبي ١٥/ ٧٤ ، ابن كثير ٤/ ٩، النسفي ٣/ ٧٥٦، ابن عجيبة ٣/ ٥٩٩، الفخر الرازي ٢٣/ ١٢٣، البحر المحيط ٨/ ٣٦٠، البيضاوي (طبع دار الجيل) ص ٤٦؛ روح المعاني ١٨/ ٦٥ :٦٦ .

يتقاضى أجرًا على دعوته، والآية الثانية تنفي ذلك!!

لقد جهل هذا المدعي قاعدة بلاغية بسيطة، هي أن من أغراض الاستفهام: النفي؛ وهو المراد في قوله تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾﴾ والمعنى: إنك لم تطلب منهم على الهداية والتعليم أجرًا فيثقل ذلك عليهم ويثبطهم عن الإيمان(١).

وإذن فالآيتان كلتاهما تؤكد الأخرى، والتناقض في عقل هذا المشكك، لا في القرآن الحكيم.

١١) قوله تعالى: ﴿لَّوْ أَرَادَ اللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ (الزمر: ٤). زعموا أن هذا يوضح إمكانية اتخاذ الولد، وأن هذا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ (الأنعام: ١٠١).

الذي ساق البعضَ إلى هذا الادِّعاء هو عدم علمهم أن جمهور النحاة ذكروا أن "لو" تأتي لمعانٍ خمسة، منها أن تكون شرطية: والمشهور في معناها أنها: حرف امتناع لامتناع، أي: امتناع الجزاء (جواب الشرط) لامتناع الشرط، كما تقول مثلًا: لو جئتني لأكرمتُك، فامتنع (الإكرام) لامتناع (الحضور أو المجيء)، وهذه هي طريقة العرب في استخدام لغتها.

فهذا - كما يقول ابن كثير - شرطٌ لا يَلْزَم وقوعُه ولا جوازُه، بل هو مُحَالٌ، وإنَّما قصد تجهيلهم فيما ادَّعَوْه وزعموه، كما قال تعالى: ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّاتَّخَذْنَاهُ مِن لَّدُنَّا إِن كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾﴾

(١) الكشاف ٤/ ١٤٨ .

(الأنبياء:١٧)، ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ (الزخرف:٨١). كل هذا من باب الشرط، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل؛ لقصد المتكلِّم.

ثم خُتِمَت آية الزمر (٤) بتنزيه الله ﷻ: ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾، أي تعالَى وتَنَزَّهَ وتَقَدَّس عن أن يكون له ولدٌ، فإنَّه الواحد الأحد الفرد الصمد، الذي كل شيء عَبْدٌ لديه فقيرٌ إليه، وهو الغنيُّ عمَّا سواه، الذي قهر الأشياء فدانتْ له وذَلَّتْ وخضعت، تبارك وتعالى عمَّا يقول الظالمون والجاحدون عُلُوًّا كبيرًا[١]!!

لقد نزه الله ﷻ ذاته عن اتخاذ الولد أو الشريك، فقال ﷻ: ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾﴾ (مريم:٩٢).

وعلى ذلك، فليس في الآية الأولى - كما يدَّعي البعض - إمكانية اتخاذ الولد؛ لأننا اتَّفقنا أن "لو" امتناع لامتناع، فقد امتنع (الاصطفاء) لامتناع (إرادة الولد)، وهو ما يتفق مع الآية الثانية[٢]: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ (الأنعام: ١٠١).

فأين التناقض المزعوم؟!

---

(١) ابن كثير ٤/ ٦٩، وانظر: الفخر الرازي ١٣/ ٢٤٢ - ٢٤٣، البحر المحيط ٧/ ٤١٥ - ٤١٦، تفسير أبي السعود ٧/ ٢٤٢، روح المعاني ٧/ ٢٤٢ - ٢٤٣، ٢٣/ ٢٣٦ - ٢٣٧ .

(٢) الفخر الرازي ١٣/ ٢٤٢ - ٢٤٣، البحر المحيط ٧/ ٤١٥ : ٤١٦، تفسير أبي السعود ٧/ ٢٤٢، روح المعاني ٧/ ٢٤٢ - ٢٤٣، ٢٣/ ٢٣٦ - ٢٣٧ .

● دعوى وجود حشو في القرآن الكريم:

ادَّعى بعضهم أن القرآن الكريم فيه ألفاظ زائدة على المعنى فلا قيمة لها، كما أن في هذا إخلالًا بِمبدأ الإيجاز.

وسوف نسوق الشواهد التي احتجُّوا بها، والرد عليها واحدًا فواحدًا:

○ الحروف المقطعة في فواتح تسع وعشرين سورة، مثل (الم ـ الر ـ المر ـ المص ـ ص ـ طس ـ طسم ـ طه ـ ق ـ كهيعص ـ ن ـ يس).

ادعوا أنها حروف عاطلة من المعنى، وزعموا أنها ليست من القرآن، وإنما هي رموز لمجموعات الصحف التي كانت عند المسلمين الأوائل قبل أن يوجد المصحف العثماني، فمثلًا حرف الميم كان يرمز به لصحف المغيرة، والنون لصحف عثمان، والصاد لصحف سعد بن أبي وقاص، والهاء لصحف أبي هريرة... وهكذا.

زعموا - متمادِين في ضلالتهم - أن الحروف المقطعة في القرآن قد أخذها عثمان رضي الله عنه من كلمات كان المسيحيون يستخدمونها كلغة سرية للفرار من بطش الرومان، وهي كلمات (أبجد هوز حطي كلمن)[١].

وهي بدعة اخترعها "نولدكه".

ويرجع الفضل في الكشف عن رأي بعض المستشرقين في معنى فواتح السور القرآنية المعجمة إلى أستاذنا الدكتور/ محمد غلاب في بحثه الذي نشر تحت اسم "هذا هو الإسلام"؛ إذ تكلَّم فيه عن

---

(١) الإعجاز البياني للقرآن، د. عائشة عبد الرحمن، ص١٤٥ - ١٤٦.

فواتح السور، وأبان فيه ما قاله القدماء من علماء المسلمين، ولم أَرَ غير ما ذكره عن القدماء لغيره.. أما الجديد في هذه الدراسة فهو الكشف عن رأي بعض المستشرقين في هذه الفواتح:

١) يرى المستشرق "لوت" أن هذه الفواتح مدين بها محمد ﷺ لتأثير أجنبي، ويرجِّح "لوت" أنه تأثير يهودي ويدعِّم رأيه بقوله: إن هذه الفواتح نزلت في المدينة موطن اليهود.

ولكن هذا الرأي باطل وكذب وهراء وتضليل؛ إذ إن الفواتح المعجمة تسع وعشرون سورة، نزل بمكة منها سبع وعشرون سورة، ومكة لم تكن موطنًا لليهود.

٢) ويرى المستشرق "نولدكه" أن هذه الفواتح رموز لمجموعات الصحف التي كانت عند المسلمين الأولين، وليست من القرآن في شيء، فمثلًا حرف الميم رمز لصحف المغيرة، والهاء لصحف أبي هريرة، والصاد لصحف سعد بن أبي وقاص، والنون لصحف عثمان[١].

أما كونها مأخوذة عن حساب أبي جاد أو حساب الجُمَّل أو أبجد هوَّز فهذه دعوى مغرضة تستند إلى الإسرائيليات، وقيل: هي حروف الجمل، أو ما يسمونه "حساب أبي جاد" ويعنون به الأبجدية: أبجد هوز حطي كلمن.

واتجهوا بدلالة الأعداد فيها إلى مدة بقاء المِلَّة أو مدة الأمم السابقة، أو مدة الدنيا!.

---

(١) إعجاز القرآن البياني، د. حفني محمد شرف، ص ٢٤٤ - ٢٤٥.

ولعل كل المرويات في تأويلها على حساب أبي جاد - مع اختلاف دلالته - تبدأ من قصة "حيي بن أخطب اليهودي" وقد نقلها "ابن إسحاق" مفصلة في "السيرة النبوية" مع ما نقل من كيد اليهود للإسلام، وجدلهم المُعْنِتِ للمصطفى ﷺ إثر هجرته إلى المدينة، وكانت هي وما حولها منطقة نفوذ لهم منذ حَطُّوا عليها فرارًا من وطأة الرومان، قبل بعثة النبي ﷺ بنحو خمسة قرون، فتسلطوا على مواردها الاقتصادية، وَمَزَّقُوا الوجود العربي فيها بالعداوة والبغضاء.

وخلاصة القصة أن "أبا ياسر بنْ أخطب": مر بالمصطفى ﷺ عام الهجرة، وهويتلو فاتحة سورة البقرة، أول سورة نزلت بالمدينة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ (البقرة: ١ - ٢).

فأتى أبو ياسر أخاه "حيي بن أخطب" في نفر من يهود، فنقل إليهم ما سمع مما يتلو المصطفى من القرآن، فمشي حيي في النفر من قومه إلى رسول اللَّه ﷺ فسأله فيما تلا من فاتحة البقرة، فلما استوثق منه قال: لقد بعث اللَّه قبلك أنبياء ما نعلمه بَيَّن لنبي منهم ما مُلْكُه وما أجل أمته غيرك: الألف واحدة، واللام ثلاثون والميم أربعون. فهذا إحدى وسبعون سنة، أفندخل في دين نبي إنما مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة؟.

ثم استطرد يسأل: يا محمد، هل معك مع هذا غيره؟

قال ﷺ: نعم، المص.

قال حييٌ: هذه أثقل وأطول: الألف واحدة، واللام ثلاثون،

والميم أربعون، والصاد تسعون، فهذا إحدى وستون ومائة سنة، هل مع هذا غيره؟

رد ﷺ: نعم، الر.

قال اليهودي: هذه أثقل وأطول: الألف واحدة، واللام ثلاثون والراء مائتان، فهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة، هل مع هذا غيره؟

ولما ذكر المصطفى ﷺ: (المر) أحصاها حييّ بن أخطب على حساب أبي جاد، فهي إحدى وسبعون ومائتا سنة.

وعندها توقف، ثم قام وهو يقول للنبي ﷺ:

لقد لُبِّسَ علينا أمرك حتى ما ندري أقليلًا أُعْطِيتَ أم كثيرًا؟ وانصرف بالنفر من قومه، فتساءل أخوه أبو ياسر: ما يدرينا لعله جُمِعَ هذا كله لمحمد؟ وأحصى مجموع ما سمعوا من حروف، فبلغت سبعمائة وأربعًا وثلاثين سنة.

وقال النفر من يهود: لقد تشابه علينا أمره.

ومن هذا التأويل اليهودي دخل القول بحساب الجمل، حساب أبي جاد، ينتقل في كتب التفسير - بصور أو بأخرى - مع غيره من الإسرائيليات التي خالطت الفهم الإسلامي للقرآن الكريم. ونقل السيوطي تأويل الفواتح بهذا الحساب، فيما جَمَع من أقوال السلف في هذه الحروف، ونقل معه قول شيخ الإسلام الحافظ ابن حجر: وهذا باطل لا يعتمد عليه، فقد ثبت عن ابن عباس الزجر عن عَدِّ أبي جاد، والإشارة إلى أن ذلك من جملة السحر. وليس ذلك ببعيد، فإنه لا أصل له في الشريعة.

وكذلك رفضه الحافظ ابن كثير من أئمة القرن الثامن للهجرة، (ت ٧٧٤هـ) قال:

وأمَّا من زعم أنها دالة على معرفة المدد، وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن، والملاحم، فقد ادَّعَى ما ليس له وطار في غير مطاره. وقد ورد في ذلك حديث ضعيف، وهو مع ذلك أدل على بطلان هذا المسلك من التمسك به على صحته، وهو ما رواه محمد بن إسحاق بن يسار صاحب المغازي قال: حدثني الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن جابر بن عبد اللَّه بن رئاب، قال: مرَّ أبو ياسر بن أخطب.. ونقل القصة كما وردت بسندها في السيرة لابن إسحاق عن ابن الكلبي، ثم قال: فهذا حديث مداره على محمد بن السائب الكلبي، وهو ممن لا يحتج بما انفرد به.

ويُفهَم من عبارة ابن كثير أن حساب أبي جاد الذي بدأ في قصة ابن أخطب اليهودي - في السيرة النبوية - بِعدِّ الحروف مدةَ الإسلام وأجَلَ أمَّته، قد أضافت إليه العصور، بعد ابن إسحاق في القرن الثاني للهجرة، استخراج أوقات الحوادث والفتن والملاحم، من حساب الحروف بعَدِّ أبي جاد!

وقد استسخفه الشيخ الإمام محمد عبده وقال فيه:

إن أضعف ما قيل في هذه الحروف وأسخفه، أن المراد بها الإشارة بأعدادها في حساب الجمل إلى مدة هذه الأمة أو ما يشابه ذلك، وروى ابن إسحاق حديثًا في ذلك عن بعض اليهود عن النبي ﷺ. ولا يزال يوجد في الناس، حتى علماء التاريخ واللغات منهم، من يرى أن في هذه الحروف رموزًا إلى بعض الحقائق الدينية

والتاريخية ستظهره الأيام.

ثم بدا للسيد الأستاذ علي نصوح الطاهر أن يتجه بحسابها العددي إلى عدد حروف السور التي افتتحت بها، لكن المحاولة - وقد نشرها في رسالة مطبوعة في القدس، سنة ١٩٦٠م - لم تَسْلَمْ له بعد الجهد الإحصائي المضني[١].

وقد أنصف المستشرق "بلاشير" حين ذهب إلى ضرورة الرجوع إلى نظريات علماء المسلمين، وآرائهم حول هذه الفواتح، ثم خلص إلى تفضيل قول من قال: إن هذه الفواتح اختصارات لأسماء اللّه، بل لقد ذهب "بلاشير" إلى التسليم بأن هذه الفواتح سر من أسرار القرآن لا يعلمه إلا اللّه، وأن من العبث محاولة سبر أغوارها[٢].

قوله ﷻ: ﴿وَلَبِثُواْ فِي كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِاْئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ (الكهف: ٢٥). زعموا أن ﴿وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ حشو لا لزوم له، وتساءلوا: ألم يكن أوجز أن يقال: ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة وتسع سنين؟ ولماذا لم يوضح التقويم الذي قاس به هل هو التقويم الشمسي الميلادي، أم التقويم القمري؟

من المعلوم أن القرآن الكريم نزل على سيدنا محمد العربي، فلمَّا كان الإخبار عن أهل الكهف للنبيّ العربيّ ذكرت الآية التقويم (**القمري**) الذي يعرفه العربي والذي يختلف عن التقويم الشمسي (**الميلادي**)؛ إذ التقويم الشمسي تبلغ السنة فيه ٣٦٥ يومًا والتقويم

---

(١) الإعجاز البياني للقرآن، د. عائشة عبد الرحمن، ص١٤٥ - ١٤٨ .

(٢) هذا هو الإسلام، د. محمد غلاب، ص١١٠ .

القمري ٣٥٤ يومًا، فالاختلاف بينهما - كما ترى - في أحد عشر يومًا، هذا التفاوت على مدار المدة المذكورة في الآية يُنْتِجُ تسع سنوات.

وفي الآية لمحة بلاغية تعتمد على الإيجاز والدقة في التعبير، فعبَّرت الآية على قلة ألفاظها عن النوعين من التقويم السائد آنذاك، أمَّا ما يدّعيه البعض من أن القرآن حُشي ببعض الكلمات، ويرون أن تكون الآية: "ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة وتسع سنوات" فنقول لهم: إنكم بذلك سكتُّم عن إيراد التقويم الميلادي (الشمسي) ولو عادوا وقالوا: يجب أن تكون "ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنة ميلادية"، لقلنا لهم: إنكم أغفلتم التقويم (القمرى)، أما لو جاءوا بهما معًا فلقد وقعوا فيما ادَّعوه من أن هناك حشوًا.

ولكن عبارة القرآن محكمة وفي قمة البلاغة والإيجاز مع إيراد المعنى المتضمن على وجهين[(١)].

● المتشابه اللفظي في القرآن: هل هو تكرار لا جدوى منه؟

يستنكر البعض وجود الكثير من التكرار في آيات القرآن الكريم، ويطعنون فيه مُدّعين أنه ليس وحيًا من عند اللَّه،كما جاء في سورة الرحمن، وفي سورة التكاثر، وقصص الأنبياء في السور المتعدِّدة، مثل قصة آدم عليه السلام، وقصة عيسى عليه السلام، وغيرهم من الأنبياء صلوات اللَّه وسلامه عليهم.

---

(١) القرطبي ١٠/٣٨٧، الفخر الرازي ٢١/١١٣، ابن كثير ٣/ ١٣٠، البحر المحيط ٦/١١٦، أبو السعود ٥/٢١٧، روح المعاني ١٥/٢٥٢ .

ويزعم هؤلاء أنه لو حُذف التّكرار من القرآن فإنه لن يتبقى منه ما يملأ كراسة، وأن ثروة القرآن المعجمية ضئيلة؛ مما أدى إلى ضعف بناء الجملة، واللجوء إلى الحشو، ومزج الخيال بالواقع خاصة في قصة موسى عليه السلام، وهذا مُخالف للعقل والمنطق.

١) نوَدُّ أن نُعلِّم هؤلاء المشككين أن التكرار في القرآن قد أتى بصور متعددة منها:

○ **(تكرار أداة)** تؤدِّي وظيفة في الجملة بعد أن تستوفي الجملة ركنَيْها.

○ **(تكرار كلمة)** مع أختها لداعٍ، بحيث تفيد معنى لا يمكن حصوله بدونها.

○ **(تكرار فاصلة)** في سورة واحدة على نمط واحد.

○ **(تكرار بعض الأوامر والنواهي والإرشادات والنصائح)** مما يُقرِّر حُكْمًا شرعيًا، أو يحث على فضيلة، أو يَنْهَي عن رذيلة، أو يُرغِّب في خير، أو ينفِّر من شر.

○ **(تكرار قصة)** في مواضع متعددة، مع اختلافٍ في طرق الصياغة وعرض الفكرة.

وقبل الخوض في تفصيل هذه الصور المتعددة، يَجْدُر بنا لفت نظر هؤلاء المشككين إلى أن التكرار في القرآن جاء ليؤدي وظيفتين:

أولاهما: وظيفة دينيّة.

ثانيتهما: وظيفة أدبيّة.

فمن الناحية الدينيّة: يُعَدُّ القرآن كتابَ هدايةٍ وإرشاد وتشريع - لا يخلو منها فن من فنونه - وأهم ما يؤدِّيه التكرار هو تقرير المكرر وتوكيده وإظهار العناية به، ليكون في السلوك أَمْثَل وللاعتقاد أبْيَن.

أما الناحية الأدبيّة: فإن دور التكرار فيها متعدِّد، وإن كان الهدف منه في جميع مواضعه يؤدي إلى تأكيد المعاني، وإبرازها في معرض الوضوح والبيان.

ولِنَرَ الآن فوائد التكرار في كل موضع أثبتناه في صدر هذا الردِّ.

● تكرار الأداة:

ونضرب له مثالًا بقوله ﷻ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾﴾ (النحل: ١١٠).

تكررت "إن" في الآية، وكان يمكن - في الظاهر - أن يُسْتَغْنَى عنها في نهاية الآية فيُقال: "ثم إن ربك للذين هاجروا من ديارهم من بعد ما فُتِنوا ثم جاهدوا وصبروا - لغفور رحيم"، بحذف (إن ربك). فما السبب وراء هذا التكرار؟

السبب هو طول الفصل بين "إنَّ" الأولى وخبرها، وهذا أمر يُشْعِر بتنافيه مع الغرض المسوقة من أجله "إن" وهو التوكيد؛ لهذا اقتضت البلاغة إعادتها لتلحظ العلاقة بين الركنين على ما حَقُّها أن تكون عليه من التوكيد، هذا علاوة على أن حذفها سيؤدي إلى الاضطراب وعدم التناسق.

● تكرار الكلمة مع أختها:

ومثاله قوله ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (الرعد: ٥) حيث تكررت كلمة "أولئك" في الآية ثلاث مرات، فما السِّر وراء هذا التكرار؟

هذا التكرار لا نجد له إلا حسنًا وروعة، فالأولى والثانية تُسَجِّلان حُكْمًا عامًّا على مُنْكِري البعث وهو: كفرهم بربِّهم وكون الأغلال في أعناقهم، والثالثة: بيان لمصيرهم المهين ودخولهم النار ومصاحبتهم لها على وجه الخلود الذي لا يَعْقُبه خروج منها، ولو أُسْقِطت "أولئك" من الموضعين الثاني والثالث لاضطرب المعنى، فتصبح (الواو) الداخلة، على ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْۖ﴾ واو حال، وتصبح الداخلة على ﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ استئنافية لا علاقة لها بما قبلها، عاطفة عطفًا يضطرب معه المعنى؛ لذا حَسُن التكرار في الآية لما فيه من صحة المعنى وتقويته.

● تكرار الفاصلة:

سنكتفي هنا بإيراد موضع واحد تكررت فيه (**الفاصلة**) لنرى ماذا يُمَثِّله ذلك التكرار، وهل هو غير مفيد - كما زعموا - أو هو على العكس من ذلك؟

● التكرار في سورة الرحمن:

لقد تكررت فيها عبارة: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ إحدى وثلاثين مرة، ويمكن أن نسجل عدة ملاحظات حول هذا التكرار ومنها:

○ أن هذا التكرار هو أكثر صور التكرار الوارد في القرآن على الإطلاق.

○ أنه - أي التكرار - قد مُهِّد له تمهيدًا رائعًا، حيث جاء بعد اثنتي عشرة آية مُتَّحدة الفواصل، وقد تكررت في هذا التمهيد كلمة "الميزان" ثلاث مرات متتابعة بدون نُبُوّ أو ملل، وهذا التمهيد قد أتاح مساحة كبيرة حتى كان بمثابة مقدمة طبيعية لِتأْلَفَ النَّفْسُ التكرار الذي سيرد بعد ذلك.

○ أن الطابع الغالب على هذه السورة، هو طابع تَعْداد النعم على الثَّقَلين: "الإنس والجن" وبعد كل نعمة يُعَدِّدها تأتي عبارة: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وعلى هذا يمكن فهم التكرار في هذه السورة على أنه تذكير وتقرير لنعمه، وأنها نعم عظيمة فلا يمكن إنكارها.

● **التكرار في القصة:**

الملاحظ أن القصص القرآني كله يغلب عليه التكرار إلا في قصة واحدة، وهي قصة يوسف عليه السلام وذلك لأنها تتحدث عن جريمة خلقية، وهي محاولة امرأة العزيز إغراءه، وفي سبيل صيانة الأعراض فرغ القرآن من سَوْقها مرة واحدة. والقصص القرآني في جملته مسُوق لغرضين:

● أنه تسليةٌ للنبي ﷺ وتثبيتٌ لفؤاده، فهو ليس بدعًا من الرُّسل، فكل الرسل قد عانوا من أقوامهم ما عانيت من قومك.

● تهديد وزجر للمُخالفين، وبيان لمصير أمثالهم لعلهم يُقْلعون عن غيِّهم.

وهذه الدواعي مُحقَّقة في كل مرة ورد فيها التكرار، على أنه يمكن أن يلاحظ في تكرار القصص القرآني ما يلي:

١ - عدم توحُّد الصياغة في كل موضع كُرِّرت فيه القصة، وفي هذا إيحاء بأنها جديدة متجدِّدة دائمًا، وليس فيها سآمة أو ملل، بل فيها روح وطرافة.

٢ - كذلك فإن المعاني التي تتحدث عنها القصة القرآنية لم تكن لمجرَّد التهديد أو التسلية، بل إن التَّكرار يحوِّل المكرر إلى مُعْتقَد.

٣ - ومن عادة العرب إذا اهتمَّت بشيء أرادت تحقيقه أن تكرِّره، وكأنها تقيم التكرار مقام المُقسَم عليه.

٤ - إن في التكرار تقريرًا للمعاني في الأنفس، وتثبيتًا لها في الصدور، ألا ترى أنه لا سبيل لحفظ العلوم إلا ترديد ما يُرَام حفظه منها، وكلما زاد ترديده كان أَمْكن له في القلوب، وأوسع له في الفهم، وأثبت للذِّكر، وأَبْعد من النسيان.

٥ - وهناك حقيقة مهمة، وهي أن الإشادة بجمال التكرار في القرآن لم يقتصر على العلماء العرب، بل إن كثيرًا من المستشرقين قد شهدوا بذلك، منهم **"جرونباوم"** كما نقل عنه عبد الكريم الخطيب في كتابه: "الإعجاز القرآني"، ولا شك أن الفضل ما شهدت به الأعداء.

ولنأخذ مثالًا، ولتكن قصة آدم لنلحظ فوائد التكرار فيها.

هذه القصة وردت في سبع سور سبع مرات، وترتيب السُّور التي وردت فيها القصة حسب نزولها هي:

أولًا: في مكة: "ص - الأعراف - طه - الإسراء - الحجر - الكهف".

ثانيًا: في المدينة: "البقرة".

ومن هنا نعلم أنَّ نصيب العهد المكي من القصة كان وفيرًا، بالقياس إلى العهد المدني، ولنأخذ موضعًا واحدًا لنلحظ أثر التكرار فيه.

قال ﷻ: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ (البقرة: ٣٥)، وفي موضع آخر يقول: ﴿وَيَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ (الأعراف: ١٩).

لقد جاءت الآيتان بنسق واحد غالبًا إلا في:

- قوله تعالى في البقرة: "وَكُلا"، وفي الأعراف: "فَكُلا".

"قيل: إن السكنى في (آية البقرة): للإقامة، وفي (آية الأعراف): اتخاذ المسكن: فلما نُسِبَ القول إليه ﷻ: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ﴾ ناسب زيادة الإكرام بالواو الدَّالة على الجمع بين السُّكنى والأكل، ولذلك قال فيه (رغدًا)، وقال (حيث شئتما) لأنه أعم، أمَّا في الأعراف فقد قال ﷻ: ﴿فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا﴾ فأتى بالفاء الدالة على الترتيب، فالأكل يأتي بعد المَسْكَن الذي أُمِر آدم باتخاذه، وقوله: "من حيث" لا يعطي عمومَ "حيث شئتما"[(١)].

ونلاحظ من خلال الشَّاهد الذي أَوْردناه:

- أن المواضع التي كُرِّرت فيها القصة لا تكون غالبًا بنسق واحد في الصياغة.

---

(١) كشف المعاني، بدر الدين بن جماعة، تحقيق/ د. محمد محمد داود، ص٥٦.

● أن كل موضع يفيد معنى جديدًا لا يستفاد من غيره من المواضع.

ولو ذهبنا نتتبع كل المواضع التي ورد فيها التكرار في القرآن الكريم لوجدنا أنه يأتي لإفادة معانٍ عظيمة في كل مرة، فضلًا عما فيه من التوكيد، فأين موضع التشكيك الذي يتوهمه المتوهمون؟!

أما تساؤلهم عن الفرق بين قوله ﷻ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (التوبة: ٥٥)، وقوله ﷻ: ﴿وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَأَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ (التوبة: ٨٥).

فنقول لهم: إن الآية الأولى: ظاهرة في قوم أحياء، والثانية: في قوم أموات.

وأما الفاء في الأولى: فلأن ما قبلها أفعال مضارعة تتضمن معنى الشرط كأنه قيل: إن اتصفوا بهذه الصفات من الكسل في الصلاة، وكراهية النفقات فلا تعجبك أموالهم . . . إلخ. ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَـٰرِهُونَ﴾ (التوبة: ٥٤).

والآية الثانية: تَقَدَّمها أفعال ماضية، وبعد موتهم، فلا تصلح للشرط؛ فناسب مجيئها بالواو.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ﴾ فلِمَا تقدم من التوكيد في قوله: ﴿إِلَّا وَهُمْ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ﴾ إلى ﴿وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا﴾، فناسب التوكيد في قوله تعالى: ﴿وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ﴾ بخلاف الآية الثانية.

وأما (اللام) في الأولى ﴿لِيُعَذِّبَهُم﴾، و(أنْ) في الثانية ﴿أَن يُعَذِّبَهُم﴾ فلأن مفعول الإرادة في الأول محذوف، واللام للتعليل تقديره: إنما يريد اللَّه ما هم فيه من الأموال والأولاد لأجل تعذيبهم في حياتهم بما يصيبهم من فقد ذلك، ولذلك قال ﷻ: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ ومفعول الإرادة في الآية الثانية أن يعذبهم لأن الأفعال المتقدمة عليه ماضية ولا تصلح للشرط ولذلك قال اللَّه ﷻ: ﴿وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ (التوبة: ٨٤).

وأما: ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ في الآية الثانية فلأنها صفة للحياة فاكتفى بذكر الموصوف أولا عن إعادته ثانيًا[(١)].

وهذه الآية (التوبة: ٥٥) خالفت الآية الثانية (التوبة: ٨٥) بأمور:

أحدها: أن هذه جاء العطف في أولها بالواو، والأخرى عطفت بالفاء. ومناسبة التفريع هنالك تقدم بيانها، ومناسبة عدم التفريع هنا أن معنى الآية هذه ليس مفرعًا على معنى الجملة المعطوف عليها ولكن بينهما مناسبة فقط.

ثانيها: أن هذه الآية عطف فيها الأولاد على الأموال بدون إعادة حرف النفي، وفي الآية السالفة أعيدت (**لا**) النافية، ووجه ذلك أن ذكر الأولاد في الآية السالفة لمجرد التكملة والاستطراد؛ إذ المقام مقام ذم أموالهم؛ إذ لم ينتفعوا بها؛ فلما كان ذكر الأولاد تكملة كان شبيهًا بالأمر المستقل؛ فأعيد حرف النفي في عطفه، بخلاف مقام هذه الآية فإن أموالهم وأولادهم معًا مقصود تحقيرهما في نظر المسلمين.

---

(١) كشف المعاني، ص١١٥ .

ثالثها: أنه جاء هنا قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُعَذِّبَهُم﴾ بإظهار (أن) دون اللام، وفي الآية السالفة: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم﴾ بذكر لام التعليل وحذف (أن) بعدها. وقد اجتمع الاستعمالان في قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ (النساء: ٢٦ - ٢٧)، وحَذْفُ حرف الجر مع (أن) كثير، وهنالك قُدِّرَت (أنْ) بعد اللام وتقدير (أن) بعد اللام كثير. ومن محاسن التأكيد الاختلاف في اللفظ، وهو تفنن.

رابعها: أنه جاء في هذه الآية أنه يعذبهم بها في الدنيا، وجاء في الآية السالفة في الحياة الدنيا، ونكتة ذلك أن الآية السالفة ذكرت حالة أموالهم في حياتهم فلم تكن حاجة إلى ذكر الحياة. وهنا ذكرت حالة أموالهم بعد مماتهم لقوله ﷻ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ (التوبة: ٨٤)؛ فقد صاروا إلى حياة أخرى وانقطعت حياتهم الدنيا وأصبحت حديثًا[1].

• وللتكرار في القرآن الكريم دور مهم في المعنى، وله أثره الكبير في نفس القارئ والسامع، فمثلًا كرر القرآن في سورة الرحمن إحدى وثلاثين مرة قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ متسائلًا عمَّا يستطيع أن ينكره الجن والإنس مما أَوْلاهما اللّه من نعم، فلعل في هذا السؤال المتكرر ما يثير في نفس سامعيه اليقين بأنه ليس من الصواب نكران نعم تكررت وآلاء توالت.

(١) التحرير والتنوير، مجلد ٦، ج ١٠، ص ٢٨٦ - ٢٨٧ .

وهنا يحسن أن أقف مشيرًا إلى ما قد يبدو من أن لا وجه لإيراد هذه الجملة في بعض المواضع من السورة، كما يتراءى ذلك في قوله سبحانه وتعالى:

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾﴾ (الرحمن: ٢٦ - ٢٨)، فأي نعمة يذكر بها الجن والإنس في فناء هذا العالم؟ ولكن التأمُّل في هذه الآيات وما ورد من هذا السؤال بعد وصف اليوم الآخر وأهواله، يدل على أن مثل هذا السؤال سيوجه بعد فناء هذا العالم، فكأن القرآن يقرر أنه سيُلْقَى مثل هذا السؤال يوم تنشق السماء، ويوم يعرف المجرمون بسيماهم، أفلا يجدر بالمرء أن يفكر طويلًا، كما أوحى القرآن بذلك، في تلك الآلاء والنعم، فيقوم بواجب الإيمان بالنعم وشكرها، حتى لا يقف موقف الجاحد لهذه النعم يوم يحاسب اللَّه الثقلين.

● وكررت في سورة المرسلات تلك الجملة المنذرة، وهي قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾، وإذا نظرنا إلى هذه السورة، وجدناها تتحدث عن وقوع اليوم الآخر، وتصفه، فلا جرم أنْ تَكَرَّر هذا الإنذار عقب كل وصف له، أو فعل يقع فيه، أو عمل من اللَّه يدل على قدرة يحيي بها الناس بعد موتهم، وفي هذا التكرير ما يوحي بالرهبة، ويملأ القلب رعبًا من التكذيب بهذا اليوم الواقع بلا ريب.

● وفي سورة الشعراء، تكررت هاتان الآيتان: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾﴾ ثماني مرات، وكانت متمكنة من موضعها في كل مكان حلت فيه، فقد جاءت في هذه السورة أولًا، بعد أن وجه القرآن نظرهم إلى

الأرض، أو ليس فيما تنبته من كل زوج كريم ما يثير في النفس التأمل لمعرفة خالق الأرض ومحييها؟ واستمع إليه سبحانه يقول: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝٧ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٩﴾ (الشعراء: ٧ - ٩).

ويكرر الآية في موضع آخر تحدث فيه عن انفلاق البحر لموسى ونجاته، وغرق فرعون، وتلك آية من أكبر دلائل قدرته سبحانه، فهي جديرة بتسجيلها والإشارة إليها. قال تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ ۖ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ۝٦٦ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٦٨﴾ (الشعراء: ٦٣ - ٦٨).

وكررت هاتان الآيتان ست مرات أخرى عقب كل ما يجدر أن يكون عظة يعتبر بها، كتصوير جند إبليس وقد كبكبوا في جهنم، وأخذوا يختصمون فيما بينهم ويقررون أنهم كانوا في ضلالة وعمى، ويتمنون لو عادوا ليصلحوا ما أفسدوه، أو ليس في ذلك من العظة ما ينهى عن مثل هذا المصير؟!.

وكررها كذلك عقب قصة صالح ولوط وشعيب؛ لأن مصير أقوامهم حقيق بأن تُؤْخَذَ منه العظات والعبر، وكأن هاتين الآيتين تشيران إلى مرحلة من القول يحسن الوقوف عندها والتريث لتدبرها، وتأمل ما تحوي من دروس تستفاد مما مضى من حوادث التاريخ.

وخَتْمُ الآية بوصفه تعالى بالعزة والرحمة فيه كل المناسبة

للحديث عن مصير الكافر والمؤمن، فهو عزيز يعاقب الكافر، ورحيم بمن آمن.

• ونجد الآية التي كُررت في سورة القمر، وهي قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ مُنَبِّهَة في كل موضع وردت فيه، إلى أن ما سيأتي بعدئذ مما عُنِيَ القرآن بالحديث عنه، تذكرة وعظة، وهو لذلك جدير بالتأمل الهادئ والتدبر والادِّكار.

وقد يحدث التكرير في آيتين متواليتين، كما في قوله ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا ﴿١٣١﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٣٢﴾﴾ (النساء: ١٣١ - ١٣٢). وذلك لتثبيت الإيمان بغنى اللّه عن عبادة العابد، في قلوب الناس، لُيقْبِلوا على العبادة مؤمنين بأنها لخيرهم وحدهم .

بل قد يكون التكرير في الآية الواحدة؛ وذلك لتثبيت المكرر في النفس، كما في قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾ (الحشر: ١٨)، وقوله تعالى:

﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ (آل عمران: ٤٢).

• ويوحي التكرير في سورة (**الكافرون**) باليأس إلى قلوب من كفر من أن ينصرف الرسول عن دينه إلى ما كان يعبد هؤلاء الكفرة،

فليتدبروا أمرهم بينهم مَلِيًّا، ليروا سرَّ هذا الإصرار من محمد، فعساهم يدركون أن هذا السرَّ هو أن الرسول على حَقٍّ فيما يدعو إليه، فلم ينصرف عنه إلى أديان لا سند لها من الصواب والحق؟![1].

وقد كانت هذه الخاصة ولا تزال مجال بحث ودرس، وما أكثر ما ظنها بعض المستشرقين الأعاجم ثغرة يمكن التركيز عليها في نقد القرآن وإلحاق النقيصة به.

وفي القرآن من هذه الظاهرة نوعان: أمَّا أحدهما فتكرار بعض الألفاظ أو الجمل، وأما الثاني فتكرار بعض المعاني كالأقاصيص والأخبار.

فالنوع الأول منه: يأتي على وجه التأكيد، ثم هو ينطوي بعد ذلك على نكت بلاغية أخرى كالتهويل، والإنذار، والتجسيم، والتصوير، وللتكرار أثر بالغ في تحقيق هذه الوجوه البلاغية في الكلام. غير أنه لا ينبغي أن يذهب بك الوهم إلى أن أيّ تكرار للكلمة أو الجملة يفي بهذا الغرض، وأنها وسيلة قريبة المنال لكل قادر على الكلام؛ فالتكرار الذي من شأنه أن يرتفع بقيمة الكلام إلى الفصاحة والسموّ في التعبير، له قيود وحالات معينة لا ينبغي أن يتجاوزها، وليس أي تكرير في الكلام يبعث فيه التهويل أو التجسيم؛ ولو ذهبنا نشرح الصور المحمودة لتكرار الكلام وقيود ذلك - ولو شرحًا يسيرًا - لطال بنا البحث وخرجنا عمَّا نحن بصدده[2].

---

(١) من بلاغة القرآن، د. أحمد أحمد بدوي؛ ص ١٥٣ - ١٥٥.

(٢) انظر: إعجاز القرآن للباقلاني، ص١٢٧؛ الفوائد المشوق إلى علوم القرآن =

وإذا سألت عن وجه العلاقة بين التكرار وهذه الصور البلاغية، فإن خير جواب على ذلك أن أضع فكرك وذوقك العربي أمام نماذج لهذا النوع من التكرار في هذا الكتاب المبين.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٢ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ۝٤﴾ (الحاقة: ١ - ٤).

ومنه قوله تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝٢٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝٢٧﴾ (المدثر: ٢٦ - ٢٧)، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۝٢٠﴾ (المدثر: ١٨ - ٢٠).

وكل ما في القرآن من تكرار الكلمة أو الجملة هو من هذا القبيل وعلى مثل هذا الإشراق، وما أحسبك سائلي بعد ذلك عن وجه الجمال أو التهويل أو التصوير في هذا التكرار إن كنت على شيء من السليقة العربية وذوقها.

وأما النوع الثاني منه: وهو تكرار المعنى، كتكرار بعض القصص والأخبار، فهو ظاهرة بارزة في كتاب اللّٰه تعالى؛ ومردُّ ذلك إلى غرضين هامين:

= وعلم البيان، ابن القيم، دار الكتب العلمية: بيروت، ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، ص١٦٣ - ١٧٠؛ الطراز، العلوي الميمني ٢/٢٢٩ - ٢٦٦ (صفحات متفرقة)، ٣/٨١٨ - ٣٢٢؛ المثل السائر، ابن الأثير، تحقيق/ محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية: بيروت، ٢/١٤٦ - ١٦٦؛ الإيضاح، الخطيب القزويني، طبع بيروت، ١٤٠٥هـ ١٩٥٨م، ص١٩٦ - ٢١٢؛ البيان في روائع القرآن (دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآني)، د. تمام حسان، عالم الكتب: القاهرة، ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، ص١٠٩ - ١٢١ .

الغرض الأول: إنهاء حقائق الدين ومعاني الوعد والوعيد إلى النفوس بالطريقة التي تألفها، وهي تكرار هذه الحقائق في صور وأشكال مختلفة من التعبير والأسلوب. وفي بيان هذه الحكمة يقول اللَّه ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ۝١١٣﴾ (طه: ١١٣).

قال الزركشي: وحقيقته - أي حقيقة التصريف - إعادة اللفظ أو مرادفه لتقرير معنى، خشية تناسي الأوَّل لطول العهد به[١].

وهي من الطرائق التربوية التي سلكها هذا الكتاب المبين، ولنا إلى الحديث عنها عودة - إن شاء اللَّه - عند الحديث عن خصائصه التربوية.

أما الغرض الثاني فهو إخراج المعنى الواحد في قوالب مختلفة من الألفاظ والعبارات، وبأساليب متنوّعة تفصيلًا وإجمالًا، وتصريف الكلام في ذلك، حتى يتجلى إعجازه ويستبين قصور الطاقة البشرية عن تقليده أو اللحاق بشأوه، وأنت تعلم أن هذا الكتاب إنما تنزل لتحقيق أمرين:

أولهما: إقناع العقلاء من الناس بأنه ليس كلام بشر.

ثانيهما: إلزامهم بالشريعة التي فيه. فلا بد فيه من الوسائل التي تفي بتحقيق السبيل إلى كلا الأمرين.

ومن هنا كان من المحال أن تعثر في القرآن كله على معنى يتكرر

---

(١) البرهان ٣/ ١٠ .

في أسلوب واحد من اللفظ ويدور ضمن قالب واحد من التعبير، بل لابد أن تجده في كل مرة يلبس ثوبًا جديدًا من الأسلوب وطريقة التصوير والعرض، بل لا بد أن تجد التركيز في كل مرة منها على جانب معين من جوانب المعنى أو القصة.

ولنضرب لك مثالًا على هذا: اقرأ قصة نوح في سورة هود، وهي ما بين قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾﴾ (هود: ٢٥)، وقوله ﷻ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ (هود: ٤٩)، ثم ارجع فاقرأ القصة نفسها في سورة القمر من الآية ٩ إلى الآية ١٥، ثم اقرأها في سورة نوح، ثم تأمل في النصوص الثلاثة وقارن بين أسلوب كل منها وطريقتها في العرض والتصوير، والجانب المعنوي الذي يركِّز عليه التعبير في كل منها، فإنك إن تأملت في ذلك جيدًا تخيلت أنك إنما تقرأ في كل مرة خبرًا جديدا يشوقك أمره وتفجؤك أحداثه، وشعرت أن النفس بحاجة إلى أن يُعْرضَ عليها هذا الخبر من كلا الجانبين وبكلا الأسلوبين.

على أن هذا الغرض يعود إلى ما ذكرناه من كون القرآن خطابًا للناس كلهم، ذلك أن في الناس من لا يكفيه الموجز من القول والخلاصة في الحديث، حتى ينصت إلى الأمر مفصلًا مطنبًا، وفي الناس من تكفيه الخلاصة ويقنعه الإيجاز، فاقتضى الأمر أن تتصرف المعاني القرآنية في طرائق مختلفة من التعبير والبيان. وقد اهتم

الجاحظ بهذه الحكمة في التكرار القرآني أكثر من غيرها[١].

وبالنسبة للآيات التي تكررت كما في سور الرحمن والمرسلات والقمر فقد جاء هذا التكرار نغمًا جديدًا من أنغام الحسن الرائع أُضِيفَ إلى تلك الأنغام السارية في القرآن كله.

وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ

وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ .

---

(١) انظر: إعجاز القرآن للباقلاني، ص ١٠٦ - ١٠٧، البرهان للزركشي ٣/ ١٢، إعجاز القرآن للرافعي، ص٢٢١، البيان في روائع القرآن للدكتور تمام حسان، ص١٠٩ - ١٢١، من روائع القرآن للبوطي، ص ١١٧ - ١٢٠ .

الفصل الثالث

شبهات عامة

شبهات عامة

حاول المشككون - على مر التاريخ - الطعن على القرآن بشتى الطرق، ومن ذلك ما أوردوه من شبهات عامة، أعني أنها تتضمن عدة جوانب: لغوية، بلاغية، تشريعية، تاريخية، أصولية، فلسفية. . . إلخ.

وفي الصفحات التالية نورد هذه الشبهات والرد عليها:

● دعوى أن القرآن الكريم من تأليف محمد ﷺ:

زعموا أن النبي ﷺ هو مؤلف القرآن، واستدلوا لذلك بأن للقرآن أسلوبين: أسلوب للسور المكية، وآخر للسور المدنية، وقالوا: إن سبب اختلاف الأسلوبين هو اختلاف البيئة المحيطة التي أثَّرت في هذا وذاك.

وهذه دعوى قديمة ردَّدها المشركون منذ بداية نزول القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ (النحل: ١٠٣)، وقال ﷻ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ (الأنفال: ٣١).. إلى آخر هذه المزاعم القديمة المتجددة.

ومع أن البينة على المدَّعي، فإننا سنبين لهذا المدَّعي سقوط شبهته وتهافتها.

القرآن الكريم تنزيل من رب العالمين والأدلة على ذلك لا حصر

لها، ومن هذه الأدلة:

• إعجاز القرآن الكريم (وسنرجئ الحديث عن هذه النقطة إلى الصفحات القادمة).

• اختلاف أسلوب القرآن عن أساليب الشعر والنثر جميعًا، وهذا أمر ظاهر لا يحتاج إلى مزيد بيان.

• اختلاف أسلوب القرآن عن أسلوب الحديث النبوي؛ فالحديث الشريف - وإن كان قمة في الفصاحة والبلاغة - لا يقاس بالقرآن في عذوبة لفظه وتنوع معانيه وإشاراته، وجرسه الموسيقى المتميز، وبساطة لغته مع عمق معانيه، وما فيه من وجوه الإعجاز التي سنفصلها فيما بعد.

لقد نزل القرآن الكريم على قلب النبي ﷺ بحضرة رجالٍ أهل فصاحة وبيان، وكان من العرب قومٌ أحرص الخلق على أن يجدوا في القرآن مغمزًا، وعليه مطعنًا، ولو كان هذا من عند محمد ﷺ لَعَلِقُوا به، ولأسرعوا بالردّ عليه، ولكن القوم علموا ما جهلتم، ولم يُنكروا ما أنكرتم.

ولو افترضنا - جدلًا - أن القرآن من تأليف النبي ﷺ لجاز أن ينافسه عليه آخرون، لكن هذا لم يحدث، وسار القرآن يخترق الآفاق عبر الزمان والمكان حتى اليوم، ولجاز لنا أيضًا أن نقارن في دراسة موضوعية بين أسلوب القرآن وما هو حديث للنبي ﷺ، وستعلن النتيجة أن الفرق شديد الوضوح، ولقد حاول الأقدمون من المشركين دراسة النص القرآني لمعرفة سر تأثيره على من يستمع

إليه، وانحصرت اتهاماتهم في التساؤل عن القرآن: أهو من الشعر؟ أم هو من سجع الكُهّان؟ أم هو من أساطير الأولين التي نقلها واكتتبها، وأنها تُتلى عليه ليل نهار؟!.

وإذا كان من القواعد المسلَّمة في النقد الأدبي: أن أسلوب الرجل هو الرجل، فإن الشمائل والصفات التي عُرف بها محمد ﷺ في صباه وشبابه، بأنه الصادق، وأنه الأمين، وأنه أحد الشخصيات ذات المكانة في المجتمع، فقد كان يُدْعَى لمجالسة رؤساء القبائل الموَقَّرين من أعضاء "حِلف الفضول" وهو حِلف كان يبذل ما يمكن تسميته بـ "المساعي الحميدة" في مساندة الضعفاء وردّ المظالم وإقرار السلام بين القبائل والتصدي لمن يُحاول العبث به.

وعندما بلغ النبي ﷺ سنّ الخامسة والثلاثين أراد القدر أن يكون هو الرجل الذي يُطْفئ نزاعًا أوشك أن تشتعل بسببه الحرب بين القبائل بعدما بنوا الكعبة واختلفوا على من ينال شرف وضع الحجر الأسود في مكانه. وكان اتفاقهم على تحكيم أوَّل داخل، وكان الداخل هو سيدنا محمد ﷺ الذي بسط رداءه ووضع الحجر عليه، ودعا رؤساء القبائل إلى أن يأخذ كلٌّ بطرف من الرداء ويرفعوا الحجر إلى المُستوى المطلوب، ثم أخذه بيديه ووضعه بين رضا الجميع وموافقتهم، فلو كان محمد ﷺ كذّابا أو مفتريًا، أتكون له هذه المكانة؟.

إن شخصية بهذه الشمائل لا يُمكن لصاحبها أن يفتري الكذب أو يدّعي ما ليس له.

أمّا قولهم: إن للقرآن أسلوبين: مكيّ ومدني قد نبعا من تأثر النبي ﷺ بمن حوله، فهذا محض افتراء؛ لأن القرآن كلام اللَّه ﷻ - جلت قدرته وعظمت حكمته - فهو الخالق يعلم مَنْ خَلَقَه وما يُناسب كل مخلوق؛ لذا جاء الأسلوب المكيّ يُعالج مجتمعًا قضى حقبة من الزمن في عبادة الأوثان والتقرُّب إليها كآلهة يعتقدون فيها الضرر والنفع، وقد استمرأت قلوبهم جهالات من الأخلاق تسود مجتمعهم القبليّ الجاهلي، بعيدًا عن العلم والتقدم الحضاري الإنساني.

وقد كان عندهم بقية من أخلاق الحنيفية - ملة إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتمّ التسليم - كاحترام البيت الحرام والأشهر الحُرُم والوفاء والنجدة والكرم، إلا أنهم في طريقهم للتخلّي عنها ونبذها شيئًا فشيئًا، هذا وغيره جعلهم يقفون في وجه الرسول ﷺ وقفة شديدة منكرة عنيدة، وحاولوا جهدهم ألاّ ينتشر هذا الدين الجديد وخصوصًا أهل الوجاهة والزعامة منهم، الذين يحرصون على مناصبهم وبقائها غيرَ مُنازَعين عليها.

هذا هو لونُ الكثرة الكاثرة من مجتمع مكة المكرمة، ومن ثم عالج القرآن المكي موضوع العقيدة، مُركِّزًا على قضية توحيد اللَّه سبحانه وتعالى، وكذلك الإيمان باليوم الآخر ومصير العباد فيه وأوصاف الجنة والنار؛ وذلك لأن صلاح العقيدة وصفاءها هو الأساس في التربية والبناء للمجتمع المسلم الصادق، كما حَثَّ على التمسك بالأخلاق الفاضلة والاستقامة على الخير؛ لأن ذلك من ثمار العقيدة الصحيحة، والأسلوب المكي يكثر من القَسَم، وهو من

عادات وأساليب العرب عند تأكيد أمر مهم، والقرآن الكريم يخاطبهم بما أَلِفُوا من أساليب الخطاب؛ ليؤكد لهم حقائق الدين الذي يدعوهم إليه رسول اللَّه ﷺ.

أمّا مجتمع المدينة المنورة فقد كان قائمًا على أساس الإيمان باللَّه ﷻ والانقياد لتعاليمه وتوجيهاته، وقد نذر نفسه لنصرة الحقّ والذَّود عنه والجهاد في سبيله، كان مجتمعًا تشربت شرايينه حُبَّ اللَّه ورسوله وكان همهم أن يأتيهم أمر من اللَّه ورسوله ﷺ في قضية أيًّا كانت؛ ليتسابقوا في تنفيذه والتقرب إلى مرضاة اللَّه ﷻ.

وإلى جانب هذه الكثرة المؤمنة كان بعض المنافقين، مِمَّنْ حال الإسلام بينهم وبين رغباتهم وشهواتهم ووجاهاتهم التي عاشوا عليها، ولكنهم رأوا هذا الإسلام قويًّا فخضعوا له ظاهرًا وتستروا بلباسه، وأضمروا له الكيد وتربَّصوا به الدوائر في الخفاء.

وصنف ثالث في المدينة وحولها، وهم طوائف اليهود الذين كانوا يسرحون ويمرحون قبل الإسلام، ويثيرون الفتن والحروب بين طوائف العرب وقبائلهم المتعددة وذلك على المبدأ اليهودي القديم "فَرِّقْ تَسُدْ".

ومن ثم جاء الأسلوب المدنيّ ملائمًا لطبيعة هذا المجتمع، وله خصائص من أهمها:

● مجادلة أهل الكتاب بالتي هي أحسن؛ حيث عايش المسلمون أهل الكتاب عن قُرْب ورأوا غُلُوَّهم وتحريفهم لكتبهم السماوية وافتئاتهم على أنبيائهم - عليهم الصلاة والسلام - فكان القرآن

حينئذ يتنزَّل بدعوة أهل الكتاب إلى ترك الغلو، وإلى تصحيح الانحراف العقدي والسلوكي الذي كانوا عليه، ويأمر المسلمين أن يجادلوهم بالتي هي أحسن.

• ذكر النفاق والمنافقين وأحوالهم وصفاتهم وتخاذلهم في المواقف الحرجة والشديدة، وقد ظهر النِّفاق في المدينة يوم ظهر الإسلام وقَوِيَ عُودُه، ولم يكن بمكةَ قبلُ نفاق ولا منافقون، وكان الناس: إمّا مؤمنٌ مبتلًى أو كافرٌ معتدٍ.

• كما تَعَرَّض الأسلوب المدني للتشريع والنُّظُم العامة وآيات الجهاد وغير ذلك.

وبَعْدُ، فلا غضاضة ولا حرج على القرآن أن يتحدث بالأسلوب الملائم من حيث: طريقة العرض، ومنهجية الأسلوب، وفحوَى الخطاب ومضمونه، أمّا أن يخرج علينا هذه الأيام مُدَّعٍ واهمٌ يرى أن أسلوبي القرآن نتجَا عن تأثر النبي ﷺ فمثل هذا المدَّعي كناطح صخرة يومًا لِيُوهِنَها، ولعلَّه يُذكِّرنا بقول الشاعر:

قد تُنْكِرُ العيْنُ ضَوْءَ الشَّمْسِ من رَمَدٍ ... ويُنْكِرُ الفَمُ طَعْمَ الماءِ مِنْ سَقَمِ[1]

وَمَا يَعْقِلُهَا إلاَّ الْعَالِمُونَ!!

(١) مباحث في علوم القرآن، مناع القطان، ص٦٢ - ٦٤؛ مناهل العرفان، الزُّرقاني ١/٢٠٦ - ٢٣٨.

● الزعم بالقدرة على الإتيان بمثل القرآن:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾: قالها المشركون من قبلهم، ولم يفعلوا. واليوم يتطاول المشكّكون ويزعمون أن القرآن ليس بمعجزة لغوية، وأن من زاول شيئًا من صناعة الشعر والكتابة، وآنس من نفسه اقتدارًا في البيان، يستطيع أن يأتي بمثل القرآن!

فلماذا لم يفعلوا من قبلكم؟!

ولماذا لم تفعلوا أيها المدَّعون؟!

١) إن الذي يدَّعى هذه الشبهة قد وسوس له شيطان الإعجاب بنفسه والجهل بالقرآن أنه يستطيع أن يأتي بمثل أسلوبه، وإن ادّعاءه لا يقوله أحد من الكبار العالمين، وإنما يعرض - إن عرض - للأغرار الناشئين. ومثل هذا دواؤه عندنا نُصْحٌ نتقدم به إليه أن يُطيل النظر في أساليب العرب، وأن يستظهر على فهمها بدراسة طرف من علوم الأدب؛ حتى تستحكم عنده ملكة النقد البياني، ويستبين له طريق الحكم في مراتب الكلام وطبقاته، ثم ينظر في القرآن بعد ذلك.

وأنا له زعيم بأن كلَّ خطوة يخطوها في هذه السبيل ستزيدُه معرفة بقدره، وستَحُلُّ عن نفسه عقدة من عقد الشك في أمره؛ إذ يرى هنالك أنه كلما ازداد بصيرة بأسرار اللغة، وإحسانًا في تصريف القول، وامتلاكًا لناصية البيان، ازداد بقدر ذلك هضمًا لنفسه، وإنكارًا لقوته، وخضوعًا بكليّته أمام أسلوب القرآن، وهذا قد يبدو لك عجبًا أن يزداد شعور المرء بعجزه عن الصنعة بقدر ما تتكامل

فيها قوته، ويتَّسع بها علمه.

ولكن لا عجب فتلك سُنّة اللَّه في آياته التي يصنعها بيديه: لا يزيدك العلم بها والوقوف على أسرارها إلا إذعانًا لعظمتها، وثقة بالعجز عنها، ولا كذلك صناعات الخلق؛ فإنّ فضل العلم بها يُمكِّنك منها ويفتح لك الطريق إلى الزيادة عليها؛ ومن هنا كان سَحَرةُ فرعون هم أول المؤمنين بربِّ موسى وهارون.

٢) فإن أَبَى المغرور إلا إصرارًا على غروره، وكَبُرَ عليه أن يُقرَّ بعجزه وقصوره، دعوناه إلى الميدان، ليُجرِّب نفسه، ويبرز قوته، قائلين له: أخرج لنا أحسن ما عندك لننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين. غير أننا نَعظُه بواحدة أخرى: ألاّ يخرج على الناس ببضاعته حتى يطيل الرويَّة ويُحْكِم الموازنة. وحتى يستيقن الإحسان والإجادة، فإن فعل ذلك كان أدنى أن يتدارك غلطه، ويُواري سَوْءَتَه، وإلَّا فقد أساء المسكين إلى نفسه من حيث أراد الإحسان إليها.

٣) وإنَّ في التاريخ لعبرًا تُؤْثَرُ عن أناس حاولوا مثل هذه المحاولة فجاءوا في معارضة القرآن بكلام لا يُشبه القرآن، ولا يُشْبه كلام البشر، بل نزلوا إلى ضرب من السخف والتفاهة بادٍ عواره، باقٍ عاره وشناره، فمنهم عاقل استحيى أن يُتمَّ تجربته فحطَّم قلمه وصحيفته[1]، ومنهم ماكر وجد الناس في زمنه أعقل من أن تروج فيهم مثل هذه التُرَّهات أو تنطلي عليهم؛ فطوى صُحفه وأخفاها إلى

(١) يُعْزى شيءٌ من ذلك لابن المقفع، ولأبي الطيب، وللمعري، والظَّنُّ بهؤلاء أنهم كانوا في غنى بعقولهم وأذواقهم بما يمنعهم من الشروع في هذه المحاولة، إلا أن يكون على حد: ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾.

حين[١]، ومنهم طائش مستهتر برز بها إلى الناس فكان سخرية للساخرين، ومثلًا للآخرين[٢].

---

(١) من ذلك ما اشْتُهر عن تلك الكتب التي وضعها زعماء فرقتي "القاديانية" "والبهائية"؛ لتكون دستورًا دينيًا لهم كالقرآن، وقد لفَّقوها تلفيقًا ركيكًا من آيات قرآنية وكلمات عاميّة، وبدّلوا فيها أصول الإسلام وفروعه، وادّعوا فيها لأنفسهم النبوة أو الألوهية، ولكن أتباعهم لم يجسروا أن يذيعوا تلك الكتب وشمس العلم طالعة، فأخفوها إلى أن يجيء وقت يَفْشُو فيه الجهل بالعلوم والآداب، وتَسْتَعِدَّ فيه النفوس لقبول أمثالهم. فلينتظروا آخر الدهر.

(٢) من أمثلة ذلك أخبار مُسيلمه الكذّاب الذي يقول: "والطَّاحنات طحنًا، والعاجنات عجنًا، والخابزات خبزًا"!! وذلك الرجل الذي ادَّعى النبوة وزعم أنه أوحى إليه بأفضل من القرآن في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ۝﴾ فقال: "إنا أعطيناك الجماهر، فصلِّ لربك وجاهر، ولا تطع كل ساحر وكافر"، فأمر به خالد بن عبد اللّه القسري فضُرِب عنقه وصُلِبَ على عود، فمرَّ به أحد الشعراء فقال له ساخرًا: "إنا أعطيناك العمود، فصلِّ لربك على عود، وأنا ضامن ألَّا نعود" (انظر: الفوائد المشوق، ابن القيم، ص١٧٢ : ١٧٤، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير ١/ ٦١). وفي عصرنا هذا برز علينا من يزعم أنه يستطيع أن يأتي بمثل القرآن، فألف هذه السورة. إن جاز التعبير: "قل يا أيها الذين آمنوا إن كنتم تؤمنون باللّه حقًّا، فآمنوا بي ولا تخافوا، إن لكم عند اللّه جنّات نُزلًا فلأسبقنكم إلى اللّه لأعدَّها لكم، ثم لآتينكم نَزْلة أخرى، وإنكم لتعرفون السبيل إلى قبلتي العليا، فقال لهم توما الحوارى: مولانا إنا لا نملك من ذلك علمًا فقال عيسى: أنا هو الصراط إلى اللّه حقًّا ومن دوني لا تستطيعون إليه سبيلًا، ومن عرفني فكأنما عرف اللّه، وإنكم منذ الآن تعرفونه وتبصرونه يقينًا".

ولا يخفى على القارئ ما في النّص من تلفيق فضلًا عن ركاكة الأسلوب وفساد العبارة؛ فأما التلفيق فواضح حيث إننا نقول لصاحب هذا النص المنحّل: هل كان النص زمن عيسى عليه السلام؟ فإذا كان هذا النص، فكيف يتحدى القرآن الناس ولم يخرج هذا الذي يفوق القرآن من أتباع عيسى عليه السلام؟ =

فمن حدثته نفسه أن يعيد هذه التجربة مرة أخرى فلينظر في تلك العبر، وليأخذ بأحسنها، ومن لم يَسْتَحِ فليصنع ما يشاء[(١)].

٤) لقد سجَّل التاريخ عجز أهل اللغة أنفسهم في عصر نزول القرآن، وما أدراك ما عصر نزول القرآن؛ هو أزهى عصور البيان العربي، وأرقى أدوار التهذيب اللغوي، وهل بلغت المجامع اللغوية في أمَّة من الأمم ما بلغته الأمة العربية في ذلك العصر من العناية بلغتها، حتى أدركت هذه اللغة أشدها، وتمّ لهم بقدر الطاقة البشرية تهذيب كلماتها وأساليبها؟

ورغم ذلك التفوق تحدَّاهم القرآن أفرادًا وجماعات، وكرَّر التَّحدي في صور شتى، متهكِّمًا بهم متنزِّلًا معهم إلى الأخف فالأخف: فدعاهم أول مرة أن يجيئوا بمثله، ثم دعاهم أن يأتوا بعشر سور من مثله، وأباح لهم في كل مرة أن يستعينوا بمن شاءوا ومن استطاعوا، ثم رماهم والعالم كله بالعجز في غير مواربة فقال ﷻ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ

= وإذا لم يكن، فقد حرنا في فهم هؤلاء، فمرة يقولون: صُلِب عيسى عليه السلام، فكيف لمن صلب قبل مولد نبينا ﷺ بأكثر من خمسمائة سنة أن يقول بعده بأكثر من ألف سنة ما يتحداه به، وإذا كان فمن الذي أخذ عن عيسى عليه السلام هذا الكلام؟ وكيف لنبيّ من أولي العزم من الرسل أن يتحدى نبيًّا مثله تمنّى أن يكون من أتباعه؟!

(١) لم يَعُدْ خافيًا الآن أن المحاولات التي حاولت أن تأتي بمثل القرآن ساذجة وليست من المعارضة في شيء؛ لأن المعارضة أن تعمد إلى معنى من المعاني فتؤديه نفسه بأسلوب آخر يوازي الأصل في بلاغته أو يزيد، ومن يحاول ذلك في القرآن؛ فإن ذلك محالٌ والتجربة أصدق شاهد وخير برهان.

بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ (الإسراء: ٨٨)، وقال ﷻ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ (البقرة: ٢٤) فانظر أي إلهاب، وأي استفزاز: لقد أجهز عليهم بالحكم الباتّ المؤبَّد في قوله ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾، ثم هددهم بالنار، ثم سوَّاهم بالأحجار، فلعمري لو كان فيهم لسان يتحرك لما صمتوا عن منافسته، وهم الأعداء الألدَّاء، وأباة الضيم الأعزاء، وقد أصاب منهم موضع عزتهم وفخارهم. ولكنهم لم يجدوا ثغرة ينفذون منها إلى معارضته، ولا سُلَّمًا يصعدون به إلى مزاحمته، بل وجدوا أنفسهم منه أمام طَوْد شامخ، فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبًا، حتى إذا استيأسوا من قدرتهم واستيقنوا عجزهم ما كان جوابهم إلا أن ركبوا متن الخوف، واستنطقوا السيوف بدل الحروف، وتلك حيلة يلجأ إليها كل مغلوب في الحجة والبرهان، وكل من لا يستطيع دفعًا بالقلم واللسان.

ومضى عصر القرآن والتحدي قائم ليجرب كل امرئ نفسه، وجاء العصر الذي بعده وفي البادية وأطرافها أقوامٌ لم تختلط أنسابهم، ولم تنحرف ألسنتهم، ولم تتغير سليقتهم، وفيهم من لو استطاعوا أن يأتوا هذا الدين من أساسه، ويثبتوا أنهم قادرون من أمر القرآن على ما عجز عنه أوائلهم؛ لفعلوا، ولكنهم ذلت أعناقهم له خاضعين، وحيل بينهم وبين ما يشتهون كما فُعِل بأشياعهم من قبل.

ثم مضت تلك القرون، وورث هذه اللغة عن أهلها الوارثون، غير أن هؤلاء الذين جاءوا من بعد كانوا أشد عجزًا، وأقل طمعًا في هذا المطلب العزيز فكانت شهادتهم على أنفسهم مضافة إلى شهادة

التاريخ على أسلافهم، وكان برهان الإعجاز قائمًا أمامهم، لا يزال هذا دأب القرآن إلى أن تقوم الساعة[١].

وهذا التحدي القرآني باقٍ ما دامت السماوات والأرض: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾ (البقرة: ٢٣). هيَّا جرِّبوا، ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (البقرة: ٢٤).

● التشكيك في إعجاز القرآن:

تساءل المشككون عن إعجاز القرآن: هل الإعجاز في لغته؟ أم في أحكامه؟ فإن قيل: في آياته كلها، قلنا: أين الإعجاز في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ (لقمان: ١٩)؟! أو قوله ﷻ: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ﴾ (الأحزاب: ٥٠)، وإن قيل: الإعجاز في أحكامه، قلنا: أين الإعجاز في قطع يد السارق والسرقة كانت معروفة وممارسة في المجتمع الجاهلي؟!

لقد غاب عن أصحاب هذه الدعوى مفهوم الإعجاز، ونقول لهم:

إن في هذا القرآن العظيم وجوهًا من الإعجاز، منها ما هو لغويٌّ، وما هو علمي، وما هو تشريعي. . .إلخ.

ولقد كُتبت في هذا الصدد أعمال علمية وفكرية كثيرة، بعضها شهادات لمفكرين وعلماء منصفين ليسوا من أهل الإسلام نذكر منهم

(١) النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، د. محمد عبد الله دراز، ص٨١ - ٨٥ .

على سبيل المثال:

- الفيلسوف والمؤرخ الفرنسي الشهير إرنست رينان.
- الكاتب والمفكر الأيرلندي الشهير برنارد شو.
- الكاتب والمفكر الروسي الشهير ليو توليستوي.

أما أن نقتطع كلمة أو جملة من سياقها ثم نزعم أنها تخلو من الإعجاز، فهذا ما لا يرتضيه عقل ولا منطق، فالكلام لا يكون كلامًا إلا بعد تأليفه ناهيك عن أن يوصف بالإعجاز!!

ولقد خاب ظنكم؛ فالإعجاز القرآني يتجاوز حدود اللغة والتشريع، إن الإعجاز القرآني ماثل في كل جوانب القرآن ومستوياته، يقول "جرونباوم":

"القرآن ظاهرة لم يسبق لها مثيل في اللسان العربي، وليست آياته مما اخترع النبي ﷺ، بل هي - إن جاز هذا القول - الصورة العربية لكلمة اللّه نفسه، ولا يستطيع محمد ﷺ أن يضيف إليه كلمة واحدة، أو يلغي منه كلمة واحدة: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٨﴾﴾ (يونس: ٣٧ - ٣٨)"[(١)].

القرآن معجز في نظمه، وفي ألفاظه، وفي موسيقاه، وفي معانيه، وما تضمَّنه من إخبار بالغيب (سواء غيب الماضي، أو المستقبل)، وما ضَمَّه من قَصَص وعِبَر، ومن حكمة ودعوة أخلاقية، ومن

---

(١) حضارة الإسلام، ص ١٠٤ .

تشريعات وأحكام صالحة للإنسان في كل زمان ومكان.

وليس هذا إلقاءً للكلام على عواهنه، ولكن الأدلة القاطعة عليه موفورة، قديمًا وحديثًا.

• إعجاز النظم القرآني:

نعني بالنظم: ترتيب الكلمات ترتيبًا مخصوصًا، بحيث تؤدي المعنى المراد على أكمل وجه، وتكون متلائمة مع بعضها في ترابط وثيق، وترتيبها على حسب ترتيب المعاني في النفس، بحيث يكون كل لفظ موضوعًا في مكانه، ولو وضع غيره في مكانه لم يصح[(١)].

وقد أفرد عبد القاهر الجرجاني كتابه العظيم "دلائل الإعجاز" للبرهنة على ما في النظم القرآني من وجوه الإعجاز. ولنأخذ مثالًا واحدًا من الآيات القرآنية التي أوردها عبد القاهر الجرجاني مبينًا بعض جوانب الإعجاز فيها، وذلك قول اللَّه تعالى في شأن اليهود: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ (البقرة: ٩٦). يقول عبد القاهر:

"إذا أنت راجعت نفسك، وأذكيت حسَّك، وجدت لهذا التنكير، وأنه قيل: ﴿عَلَىٰ حَيَوٰةٍ﴾ولم يقل: "على الحياة" حسنًا وروعة ولطف موقع لا يُقْدَرُ قَدْرُه، وتجدك تَعْدَم ذلك مع التعريف وتخرج من الأريحية والأنس إلى خلافهما. والسبب في ذلك أن المعنى على الازدياد من الحياة، لا الحياة من أصلها.. فكأنما قيل: ولتجدنهم أحرص الناس - ولو عاشوا ما عاشوا - على أن يزدادوا إلى حياتهم

---

(١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص ٤٢.

في ماضي الوقت وراهنه حياة في الذي يستقبل»[١].

وقد كُتِبَ في الإعجاز البياني للقرآن الكريم مئات المؤلفات نذكر من ذلك:

- الكشاف للزمخشري.
- إعجاز القرآن للخطابي.
- إعجاز القرآن للباقلاني.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجانى.
- المغني للقاضي عبد الجبار.
- الشفا في التعريف بحقوق المصطفى للقاضي عياض (فيه مبحث خاص بإعجاز القرآن).
- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي.
- منهاج البلغاء لحازم القرطاجني.
- البرهان في علوم القرآن للزركشي.
- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي.
- معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطى.
- إعجاز القرآن لمصطفى صادق الرافعي.
- الإعجاز البياني للقرآن، د. عائشة عبد الرحمن.
- النبأ العظيم، د. محمد عبد اللّه دراز.

---

(١) دلائل الإعجاز، ص ٢٢٣ (بتصرف يسير).

- من بلاغة القرآن، د. أحمد أحمد بدوي.
- إعجاز القرآن البياني، د. حفني محمد شرف.
- الظاهرة القرآنية، مالك بن نبى.
- إعجاز القرآن، د. عبد الكريم الخطيب.
- البيان في روائع القرآن، د. تمام حسان.
- من روائع القرآن، د. محمد سعيد رمضان البوطي.
- الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان . . . إلخ.

وما من كتاب في البلاغة، وما من تفسير للقرآن الكريم إلا وعرض للإعجاز للقرآني من وجوه شتَّى، وأكثر ما ركزت عليه تلك المؤلفات هو الإعجاز البياني والبلاغي.

وجميع هذه الكتب التي تناولت بعض أسرار الإعجاز في القرآن بدأت بتحدي القرآن للإنس والجن على أن يأتوا بمثله، وإذ عجزوا عن ذلك، فإن هذا - في حد ذاته - دليل قاطع وبرهان ساطع على الإعجاز القرآني.

ثم تلا ذلك تفصيل وجوه الإعجاز اللغوي والبلاغي، فمن ذلك:

- **الإعجاز اللفظي (الكلمة القرآنية):**

إن للكلمة القرآنية مزية لا تجدها في الكلمات التي يتكون منها كلام الناس وتعابيرهم مهما سمت في مدارج البلاغة والبيان.

فهي أولًا: تتناول من المعنى سطحه وأعماقه وسائر صوره وخصائصه، لا تقف عند العموميات التي تقف عند حدودها تعبيراتنا البشرية.

وهي ثانيًا: تمتاز عن سائر مرادفاتها اللغوية بتطابق أتم مع المعنى المراد، فمهما استبدلت بها غيرها، لم يَسُدَّ مَسَدَّها ولم يُغْنِ غَناءها، ولم يؤدِّ الصورة التي تؤديها.

ولك أن تسأل: إذا كانت اللغة ذاتها عاجزة عن التعبير عن جميع المعاني والمشاعر، فكيف يتأتى للقرآن أن يُسَخِّر كلماته لما وراء الحدود التي تقف عندها طاقة اللغة، وهو إنَّما يستعمل في تعبيراته اللغة ليس إلَّا ؟

والجواب : أن القرآن يتناول - كما سترى - من الكلمات المترادفة أدقَّها دلالة، وأتَمَّها تصويرًا بالنسبة إلى نظائرها، فإذا استنفدت اللغة طاقتها ولا تزال بقية من المعنى أو الصورة شاردة وراء حدود البلاغة، اتَّسَعَتْ لها الكلمة القرآنية وشملتها عن طريق ما تتسم به من جرس ووزن وإيقاع.

ولن تعثر مهما حاولت، على أي ضابط لهذا الجرس والوزن، والإيقاع، مؤملًا أن تطبقه في كلامك وتعبيرك. إنما هو الإحساس الذي يفيض به شعور القارئ عند تلاوته لهذه الكلمات أو سماعه لها مسبوكة مع بعضها، قائمة ضمن هيكلها القرآني الفريد.

فكلمة (أغطش) مثلًا في قوله تعالى: ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾﴾ (النازعات: ٢٩) متقاربة من حيث الدلالة اللغوية مع كلمة (أظلم)، ولكن "أغطش" تمتاز بدلالة أخرى من وراء حدود اللغة يستقل بها جرس الأحرف متآلفة مع بعضها، فالكلمة بهذه الدلالة تعبر عن ظلام انتشر فيه الصمت رغم الركود، وتَجلَّت في أنحائه مظاهر الوحشة. ولست بحاجة - لفهم هذه الصورة من الكلمة -

إلى وساطة لغة أو مراجعة قاموس، وإنما هو إحساس ينبعث في نفسك من طبيعة الكلمة ووقع حروفها.

وكذلك كلمة "سَكَنًا" من قوله تعالى: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًاۚ﴾ (الأنعام: ٩٦)، فهي من حيث الدلالة اللغوية متقاربة مع قولك: هدوءًا، طمأنينة. ولكن المعنى الذي تبثه في شعورك الكلمة القرآنية لا تجد شيئًا منه في غيرها مهما تَقارب معها في أصل الدلالة اللغوية تقاربًا يسمح بوقوع الترادف بينهما.

إن طبيعة الأحرف التي تتكون منها كلمة "سكنًا" مع توالي الفتحات على حروفها، تشعرك بذلك الهدوء الذي يبعث الطمأنينة وينشر الأمن والراحة في أنحاء النفس، دون أن تحتاج في ذلك إلى معرفة أي دلالة لغوية.

ثم حاول أن تحذف كلمة واحدة من كلمات هذه الآية، وأن تستبدل بها غيرها مِمَّا يؤدي المعنى ذاته، مستعينًا باللغة وقواميسها، فلسوف ترى أن اللغة كلها أعجز من أن تأتي بألفاظ مثلها أو خير منها في الدلالة على المعنى وتصوير الأحاسيس المطلوب تصويرها، ومهما غيرت في الآية أفسدت من بهائها ونقصت من روعتها وإشراقها، ابحث عن أي كلمة تقوم مقام "فالق" في أداء المعنى وتصوير المراد وتجسيم الفكرة، أو ابحث عن أي كلمة أخرى تضعها موضع "**الإصباح**" في دلالتها على الحركة والانبثاق وبث الصورة المطلوبة، أو حاول أن تأتي بكلمة أخرى مكان "**سكنًا**" أو بكلمة أخرى أدل وأخصر وأجمع من هذه الكلمة العجيبة "**حسبانًا**" فإنك لن تملك من ذلك كله إلا إفساد الآية وتشويه دلالتها.

وربما عجزت اللغة عن اللحاق بالصورة المحلِّقة التي يريد المتكلم أو الكاتب أن يبثها في خيال السامع، فاضطر أن ينزل عن بساط خياله المحلق، لحاقًا بكلمة تقف دون الصورة التي يريدها، لا يجد في اللغة سواها، فيفسد بها الصورة كلها.

غير أن القرآن لا يعجزه أن تكون الكلمة دائمًا في مستوى المعنى المراد، على أدق وجه، فهو يصعد باللغة إلى المعنى أو الصورة المطلوبة، ولا ينزل بالمعنى أو الصورة إليها في حال من الأحوال.

انظر حينما يصف البيان الإلهي دعوة امرأة العزيز للنسوة اللاتي يتحدثن منتقدات، عن مراودتها ليوسف عن نفسه، إلى جلسة رائعة مترفة في بيتها، لتطلعهن فيها على يوسف، فيعذرنها فيما أقدمت عليه. لقد قدمت لهن في ذلك المجلس طعامًا ولا ريب. ولقد أوضح القرآن هذا، ولكنه لم يعبر عن ذلك بالطعام، وهو اللفظ الذي لا بد أن يعبر به أو بنظيره أي واحد من الناس مهما امتلك ناصية البلاغة والبيان، لم يعبر البيان الإلهي بهذه الكلمة؛ لأنها إنما تصور شهوة الجائعين من حوله، وتنقل الفكر والخيال إلى **(المطبخ)** بكل ما فيه من ألوان الطعام وروائحه وأسبابه.

فبماذا عبر القرآن إذن؟ وأين في اللغة الكلمة التي تؤدي معنى الطعام ولا تمس الصورة بأي تعكير أو تشويه؟!

لقد أبدع القرآن في ذلك تعبيرًا عجيبًا رائعًا. فانظر ماذا قال: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا وَءَاتَتْ كُلَّ وَٰحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ۖ فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ (يوسف: ٣١).

(مُتَّكَأً) كلمة قرآنية، تصور لك من الطعام ذلك النوع الذي لا يقدم إلا ترفًا وتفكُّهًا وتجمُّلًا للمجلس، وتوفيرًا لمظاهر المتعة فيه، حتى إن الشأن فيه أن يكون الإقبال إليه على حالة من الراحة والاتكاء. والكلمة من الألفاظ الكثيرة التي أبدع القرآن صياغتها واشتقاقاتها فتعلق العرب بها من بعده، ولولا ذلك لما اهتدوا إليها ولخانتهم اللغة في هذا الباب عن تصوير ما يريدون.

ونظرًا إلى أن القرآن إنما تنزل خطابًا للناس جميعهم، على تفاوت ثقافاتهم واختلاف عصورهم، فإن الكلمة القرآنية تنطوي على دلالات متعددة، تستجيب للظروف كلها ولأحوال الناس كلهم، إذا كانت تلك الكلمة تتعلق بمعنى يختلف من عصر إلى آخر، أو يتفاوت فهم الناس له حسب تفاوت ثقافاتهم وعلومهم.

ومكان الغرابة والعجب في هذه الكلمات: أن دلالاتها لا تتناقض على الرغم من اختلافها، ولا يشرد شيء منها عن قواعد اللغة ومقتضياتها، فهي تحتضن في وقت واحد هذه الدلالات، لتقدم إلى كل عصر أو فئة من الناس ما هو أقرب إلى مألوف ذلك العصر أو ثقافة أولئك الناس. وجميعها دلالات صادقة صحيحة لا تنسخ واحدة منها الأخرى.

وأنت لو حاولت أن تلتقط من اللغة كلمات مرنة غنية بهذا الشكل، لرأيت أن الأمر يحتاج إلى جهد عظيم لا يمكن أن ترقى إليه طاقة البشر. مهما أُوتُوا من قوة الحفظ وسمو البيان.

من الأمثلة على ذلك أن القرآن حدثنا عن مظاهر نعم اللَّه على عباده، ومن جملتها النار، فنبهنا إلى مختلف فوائدها لحياتنا، وأوضح أنها متاع يحتاج إليه في حالات السفر واجتياز القفار، ولتحضير الطعام، ولما وراء ذلك من أسباب المتعة والرفاهية. فكم هي الكلمات أو الجمل التي تفي بالتعبير عن هذه الفوائد كلها؟

إنها ليست أكثر من كلمة واحدة! واسمع في ذلك قول اللَّه ﷻ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾﴾ (الواقعة: ٧١ - ٧٣).

المقوين! هذه هي الكلمة التي تحمل المعاني كلها، فال (مقوين) جمع مُقْوٍ، أي نازل في القَوَاء (وهو المكان القفر) أو مجتاز به، وعليه قول النابغة:

يا دارَ مَيَّةَ بِالعَلياءِ فَالسَّنَدِ أَقوَتْ وَطالَ عَلَيها سالِفُ الأَبَدِ

والمقوين أيضًا من القَوَى وهو الجوع، وعليه قول حاتم الطائي:

وإنِّي لأختارُ القَوَى طاويَ الْحَشَا مُحاذَرَةً منْ أنْ يُقالَ لئيمُ(١)

والمقوين: أيضًا جمع مُقْوٍ بمعنى مستمتع، كما قال مجاهد، وعموم الاستمتاع في هذا المعنى الثالث إنما يفسره الزمن وتطور الأحوال وتقدم أسباب الحياة والعيش.

فهل يطيق بشر، كائنًا من كان، أن يُخضِعَ اللغة لمقاصده هذا الإخضاع العجيب، فيحشدَ مثل هذه المعاني المتباعدة في كلمة

(١) لسان العرب (ق و ا).

واحدة تأتي طوع قصده ومراده، بدون أي تَمَحُّل أو تكلُّف أو تقعُّر؟!

إن العقل لا يرتاب في أنها صنعة ربِّ العالمين وكلامه[١].

وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ

وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ

● الإعجاز التركيبي (الجملة القرآنية):

سبقت الإشارة إلى عمل عبد القاهر الجرجاني في "دلائل الإعجاز" حيث جعل النظم هو المعيار الحقيقي للبلاغة، وجعل مدار الإعجاز البياني عليه، ونسوق هنا بعض مظاهر الإعجاز في تركيب الجملة القرآنية:

أولًا: الاتساق اللفظي والإيقاع الداخلي:

الجملة القرآنية مؤلفة من كلمات وحروف ذات أصوات يستريح لتآلُفِها السمع والصوت، والنطق، ويتكون من اجتماعها على الشكل الذي رتبت عليه، نسق جميل ينطوي على إيقاع خفي رائع، ما كان لِيَتِمَّ إلا بالصورة التي جاءت عليها الآيات، وأي وجه من التغيير أو التبديل أو النقص أو الزيادة يضيع معه هذا الجمال والإبداع القرآني .

تأمل قوله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى

---

(١) من روائع القرآن، د . محمد سعيد رمضان البوطي، ص ١٣٩ - ١٤٣ .

بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ (القمر: ١١ - ١٤)، وتأمل تناسق الكلمات في كل جملة منها، ثم دقق نظرك وتأمل تآلف الحروف الرخوة مع الشديدة ومع المهموسة والمجهورة وغيرها، ثم أمعن في تآلف الحركات والسكنات والمدود وتعاطفها مع بعضها، فإنك إذا تأملت في ذلك علمت أن هذه الجمل القرآنية إنما صُبَّتْ من الكلمات والحروف والحركات في مقدار، وأن ذلك إنما قُدِّر تقديرًا بعلم اللطيف الخبير، وهيهات للمقاييس البشرية أن تقوى على ضبط الكلام بهذه القوالب الدقيقة.

وعلى الرغم من أن القرآن لا ينضبط بشيء من أعاريض النظم وأوزانه المعروفة، إلا أنك تشعر مع ذلك بتوقيع موزون من تتابع كلماته، بحيث يؤلف اجتماعها إلى بعضها لحنًا مطربًا يفرض نفسه على صوت القارئ العربي كيفما قرأ - إذا كانت قراءته صحيحة - كما تلاحظ لدى قراءتك لهذه الآيات.

ولعل من أبرز آثار هذه الظاهرة أن حفظ القرآن غيبًا أيسرُ على الإنسان من حفظ سائر أنواع النثر؛ ذلك لأنه منضبط بأوزان وإيقاعات خاصة به، فيسهل بذلك حفظه والتنبه للخطأ الذي قد يقع القارئ فيه عندما يقرؤه غيبًا. بل المعروف لدى من مارس حفظ القرآن أن الخطأ قلَّما يقع في حفظه وضبطه إلا من وجه واحد، هو ما قد يكون بين الآيات من تشابه، فيأتي الخطأ من خلط آية بأخرى والوقوع في اللبس بينهما.

ثانيًا: دلالتها بأقصر عبارة على أوسع معنى:

وهذه ظاهرة جلية تستطيع أن تتبينها في طريقة التعبير القرآني،

مهما اختلفت بحوثه وموضوعاته، لا تجد في الجملة القرآنية كلمة زائدة يصلح المعنى مع الاستغناء عنها، ولا تستطيع أن تترجم معناها بألفاظ عربية من عندك إلا في عدد من الجمل مهما حاولت الإيجاز والاختصار.

ولنستعرض طائفة من الأمثلة على ذلك، والقرآن كله - كما قلنا - مثال على هذه الحقيقة:

حدثنا القرآن عن الضمانات التي أعطاها لآدم بعد خلقه، مِمَّا يحتاجه الإنسان في حياته من كل ما يدخل في مقومات بقائه ورفاهية عيشه. لقد وضع البيان الإلهي هذه الاحتياجات كلها في جملتين فقط وهما قوله ﷻ خطابًا لآدم عليه السلام: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ (طه: ١١٨ - ١١٩)؛ فتأمل في هاتين الجملتين وألفاظهما، وكيفية صياغتهما، وكيف أنهما جَمَعَتَا أصول معايش الإنسان كلها من طعام وشراب وملبس ومأوى. وانظر كيف عبر عن تأمين حاجته إلى المسكن والمأوى بقوله: ﴿وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾، أي لك أن لا تصيبك شمس الضحى أو يؤذيك لفحها بما نهيئه لك من المسكن الذي يؤويك.

وانظر إلى هذه الآية، وقد تضمنت حكمًا من الأحكام الشرعية المهمة، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ (الأنفال: ٥٨). تأمل صياغة هذه الآية وطريقة دلالتها على المعنى الذي تعبر عنه، تجد نفسك أمام أسلوب فريد ليس من دأب الإنسان أن يتأتى له التعبير بمثله.

يقول الزمخشري وهو يحاول التعبير عن معنى هذه الآية بألفاظ

عربية من عنده:

"ألا ترى أنك لو أردت أن تنقل معنى هذه الآية، لم تستطع أن تأتي بهذه الألفاظ مؤدية عن المعنى الذي أُودِعَتْه حتى تبسط مجموعها، وتصل مقطوعها، وتُظْهِر مستورها، فتقول: إن كان بينك وبين قوم هدنة وعهد فخفت منهم خيانةً أو نقضًا، فأَعْلِمْهم أنك قد نقضت ما شرطت عليهم، وآذِنهم بالحرب، لتكون أنت وهم في العلم بالنقض على استواء"(١).

وحسبك أن تعلم أن الآيات المتضمنة لأحكام التشريع، قد لا تزيد على ثلاثمائة آية إلا شيئًا يسيرًا، وهي لا تبلغ معشار النصوص الفقهية التي دوَّنها الفقهاء فيما بعد، ولكن قد ثبت بما لا يَدَعُ مَجالا للشك أن من أبرز مظاهر الإعجاز في هذه الآيات أن الطريقة الفريدة في صياغة وتراكب جملها، تجعلها متسعة للدلالة على ذخر من المعاني الكثيرة التي لا يمكن التعبير عنها بطريقتنا المألوفة، إلا بواسطة مجلدات.

خذ على سبيل المثال هذه الآية:

﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ ۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا ۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾ (البقرة: ٢٣٣).

---

(١) الكشاف ٢/ ١٦٥.

فهذه آية واحدة صيغت من ستة أسطر قرآنية، أي ما لا يزيد على ستين كلمة، وقد تضمنت ثلاثة وعشرين حكمًا مما يتعلق بنظام الأسرة، لم يُسْتَخْرَجْ واحدٌ منها تَمَحُّلًا ولا تكلُّفًا، بل هو بَيْنَ أن تكون الآية دلت عليه بصريح المنطوق أو بجلي المفهوم أو بمقتضى النص. وأنت لو رحت تحاول التعبير عن هذه الأحكام بصياغة جلية دون اختصار مُخِلٍّ أو إطالة من غير لزوم، لاقتضى ذلك منك ما لا يقل عن خمسة وعشرين سطرًا من الكلام، أي خمسة أضعاف النص القرآني.

وانظر إلى أحكام الميراث في كتاب اللّه ﷻ، وتأمل كيف صيغت فيما لا يزيد على ثلاثة عشر سطرًا من أسطر القرآن، موزعة في آيتين. فلقد حوت هاتان الآيتان ـ في غير إخلال ولا تكلف ـ أحوال الوارثين ونصيب كل منهم في كل حال من الأحوال. ولقد انبثق من هاتين الآيتين فنٌّ مستقل برأسه يمثل شطرًا كبيرًا من الأحكام الشرعية الإسلامية، وهو ما يسمى بعلم الميراث، وقد كتبت فيه مؤلفات مستقلة. وإنك لتعجب كيف اتسع مضمون آيتين من القرآن لمدلولات كتاب برأسه، ولكن انظر وتأمل وقارن، فستجد أن هذا الذي تعجب منه حقيقة ثابتة[١].

قال تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ (هود: ١)، ذلك خير ما توصف به الجملة القرآنية، فهي بناء قد أحكمت لبناته، ونُسِّقَتْ أدقَّ تنسيق، لا تُحِسُّ فيها بكلمة تضيق بمكانها، أو تنبو عن موضعها، أو لا تعيش مع أخواتها، حتى صار

---

(١) من روائع القرآن، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص ١٤٤ - ١٤٧ .

من العسير، بل من المستحيل، أن تغيِّر في الجملة كلمة بكلمة، أو أن تستغني فيها عن لفظ، أو أن تزيد فيها شيئًا، وصار قُصارَى أمرك إذا أردت معارضة جملة في القرآن، أن ترجع بعد طول المطاف إليها، كأنما لم يخلق اللَّه لأداء تلك المعاني غير هذه الألفاظ، وكأنما ضاقت اللغة فلم تجد فيها - وهي بحر خضم - ما تؤدي به تلك المعاني مما اختاره القرآن لهذا الأداء.

والجملة القرآنية تتبع المعنى النفسي، فتصوره بألفاظها، لتلقيه في النفس، حتى إذا استكملت الجملة أركانها، برز المعنى ظاهرًا، فيه المهم والأهم، فليس تقديم كلمة على أخرى صناعة لفظية فحسب، ولكن المعنى هو الذي جعل ترتيب الآية ضرورة لا مَعْدَى عنها، وإلَّا اختلَّ البناء وانهار.

خذ مثلًا قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾ (الفاتحة: ٥)؛ فإنك ترى تقديم المفعول هنا؛ لأنه موضع عناية العابد ورجاء المستعين، فلا جَرَمَ وهو مناط الاهتمام أن يتقدم كما يتقدم كل ما يُهْتَمّ به ويُعْنَى.

وخذ قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٢٧﴾ (البقرة: ١٢٧). تجد إسماعيل معطوفًا على إبراهيم، فهو كأبيه يرفع القواعد من البيت، ولكن تأخره في الذكر يوحي بأن دوره في رفع القواعد دور المساعد، أما الدور الأساسي فقد قام به إبراهيم (قيل: كان إبراهيم يبني، وإسماعيل يناوله الحجارة).

وخذ قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ (البقرة: ٤٥)، تجد المستعان عليه في الآية غير مذكور، لا تخففًا من ذكره، ولكن ليوحى هذا الحذف إلى النفس أن كل ما يقوم أمام المرء من مشقة وما يعترضه من صعوبات، يُستعان على التغلُّب عليه، بالصبر والصلاة.

تمضي الجملة القرآنية، وقد كُوِّنت من كلمات قد اختيرت، ثم نسقت في سلك من النظام، فلا ضعف في تأليف، ولا تعقيد في نظم، ولكن حسن تنسيق، ودقة ترتيب، وإحكام في تلاؤم. واقرأ قوله تعالى:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾﴾ (البقرة: ٢ - ٥) ترى آيات قد التحم نسجها، وارتبط بناء بعضها ببعض، تسلم الجملة إلى أختها في التئام واتساق، فالجملة الأولى قد وصفت القرآن بالكمال، ووصفته الجملة الثانية بأنه لا يعلق به الريب، لا في أخباره ولا في نسبته إلى الله، وفي الجملة الثالثة جعله هاديًا لأولئك الذين يخشون الله ويتقونه، ومضت الآية الثانية تصف هؤلاء الذين ينتفعون بالقرآن، فهم الذين يوقنون بما أنبأهم به من أمور غائبة لا يرونها، ويقومون بواجبهم لله فيؤدون الصلاة كما يجب أن تؤدى، وواجبهم للمجتمع فيقدِّمون من أموالهم ما يساعدون به البائس والفقير، ولا يتعصبون

لرسول دون رسول، بل يؤمنون بما أنزل على محمد ﷺ، وما أنزل من قبله، ورأس الإيمان وأساسه هو إيمانهم باليوم الآخر؛ لأن ذلك الإيمان يدفع إلى العمل الصالح، وينهى عن المنكر والبغي، فلا جرم أن كان أولئك على هدى من ربهم وكانوا هم المفلحين.

ذلك مثل من أمثلة الارتباط القوي بين جمل الآية القرآنية، وكثير من الجمل في القرآن توحي إليك ألفاظها بمعانٍ لا يستطيع لفظ أن يستوعبها، بل يترك للنفس أمر إدراكها، وحسبنا أن نشير من ذلك إلى قوله ﷻ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ (البقرة: ٨٤ - ٨٥).

أولًا: توحي جملة ﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ بالفرق بين ما كان يجب أن يكونوا عليه، وما هم عليه حقيقة، فأي خيبة أمل تملأ النفس منهم!؟

ثانيًا: تدل هذه الجملة القصيرة على سخط شديد، وتعجب لأمور ما كان ينتظر حدوثها، ونتائج كانت المقدمات تمهد لغيرها[١].

ومن ذلك استعمال أحد الفعلين الماضي والمضارع موضع صاحبه، فيأتي بالمضارع مكان الماضي لإحضار صورة الفعل أمام السامع حتى كأنه يشاهده؛ وليس ذلك ما يثيره الفعل الماضي؛ لأن سامعه قد يكتفي بأن يتخيل فعلًا قد مضى، وربما لا يستحضر صورته أو تكرره. واقرأ قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا

---

(١) من بلاغة القرآن، د. أحمد أحمد بدوي، ص ١٠٥ - ١٠٧.

تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ (البقرة: ٨٧) تجد الفعل المضارع قد صوَّر جريمتهم كأنهم يرتكبونها في اللحظة الحاضرة، وفي ذلك من التشنيع عليهم ما فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾ (فاطر: ٩)، ففي (تثير) ما يحضر تلك الصورة الطبيعية الدالة على القدرة الباهرة.

وقوله تعالى: ﴿حُنَفَآءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِۦ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ (الحج: ٣١)؛ ففي ذكر المضارع استحضار صورة خطف الطير له، وهُوِيِّ الريح به.

ويستخدم الماضي مكان المضارع إشارة إلى تأكيد وقوع الفعل، حتى كأنه قد وقع، وذلك يكون فيما يُسْتَعْظَم من الأمور، ومن أمثلته قوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَٰخِرِينَ ﴿٨٧﴾﴾ (النمل: ٨٧)، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ (الكهف: ٤٧)، وقوله تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾﴾ (النحل: ١)، وقوله تعالى: ﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ (إبراهيم: ٢١)، وفي الإتيان بالماضي هنا من إيقاع الرهبة في النفوس ما فيه؛ لأن الفعل كأنه قد تَمَّ والقرآن يتحدث عنه، وفي استخدام الماضي في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟

وَأَصْلَحُوا۟ وَبَيَّنُوا۟ فَأُو۟لَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ (البقرة: ١٦٠) إشارة إلى ما اتَّسم به هؤلاء التائبون من مبادرة وإسراع إلى التوبة، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ (البقرة: ١٦٥ - ١٦٧) تأكيد لما سيحدث في المستقبل حتى كأنه حدث[١].

● الإخبار بالغيب:

من إعجاز القرآن إخباره بأحداث مستقبلية، وقد وقعت هذه الأحداث كما ذكرها القرآن الكريم، ومن ذلك قوله ﷻ:

﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾﴾ (الروم: ١ - ٤) . ومن المعلوم، كما رواه الترمذي وغيره، وكما هو ثابت في التاريخ، أن الفرس انتصروا في معركة بقيادة "شربزان" على الروم، وذلك أيام كسرى. وكان المشركون يحبّون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنهم وإيّاهم أهل أوثان، وكان المسلمون يحبّون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب، فلما أنزل اللّه هذه الآية وفيها إخبار كما ترى بأن الروم سيعودون فينتصرون على الفرس في بضع سنين، أي في أقل من

(١) من بلاغة القرآن ، د. أحمد أحمد بدوي ص ١١١ - ١١٢ .

عشر سنين، خرج أبو بكر يصيح بها في نواحي مكة، فقال له أناس من قريش: فذلك بيننا وبينكم، أفلا نراهنك على ذلك؟ قال: بلى. وذلك قبل تحريم الرهان. فارتهن أبو بكر والمشركون وتواضعوا الرهان وقالوا لأبي بكر: كم تجعل البضع: ثلاث سنين أو تسع سنين؟ فسمَّوا بينهم ست سنين، فمضت السنوات الست قبل أن يظهر الروم، فأخذ المشركون رهن أبي بكر، فلما دخلت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس، وأسلم عند ذلك كثيرون. وفي رواية أخرى أنه لما مرّت السنوات الست ولم يظهر الروم قال رسول اللّه ﷺ لأبي بكر: ارجع فزدهم في الرهان واستزدهم في الأجل. ففعل أبو بكر: فغَلَبَت الروم في أثناء الأجل.

ومنه قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ﴾ (الفتح:٢٧)، ومعلوم أن هذه الآية نزلت في حالة لم يكن المسلمون يتوقعون أن يدخلوا فيها مكة لطواف أو غيره، فقد رأوا من المشركين صدًّا وعسفًا وإيذاء، ولكن العام الذي تلا تلك الحالة جاء فصدَّق هذه الآية، ولاحت للناس الحكمة من الصدّ والصلح، وتبين أن كل ذلك جاء مقدمة دقيقة وعجيبة بين يدي فتح مكة سلمًا كما شاءه اللّه ﷻ. وهو ما أخبر اللّه عنه في آخر هذه الآية بقوله ﷻ: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح:٢٧). ولو وَضَعْتَ الأمر في ميزان التقديرات الفكرية والمنطقية، عندما أنجز صلح الحديبية، لَمَا رأيت أي دليل يمكن الاعتماد عليه، على أن ثمرة هذا الصلح سيكون فتح مكة عمّا قريب، وأي فتح؟ فتح سلمي لا تتناوش فيه السيوف، ولا يقع فيه قتال يذكر.

ومن النوع الثاني: آيات تحدثت عن أشخاص بأعيانهم، أنبأت عن مصائرهم، وكشفت عن حكم اللَّه المبرم في حقهم. من ذلك قول اللَّه تعالى عن أبي لهب عبد العزّى بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾ (سورة المسد).

إنك إذا تأملت هذه الآيات وما قد تضمنته من أخبار عن مستقبل هذا الرجل وما سيؤول إليه حاله، علمت أن أحدًا من الناس لا يملك أن يطلق هذا الوعيد ويسجله في عنق الزمن وعلى صفحة الدهر. فما الذي يُدْرِي هذا الإنسان أن أبا لهب سيثبت على كفره إلى الموت؟ وما هي ضمانات أن لن يؤمن كما آمن الكثير ممن هم أشد منه كفرًا وأقسى عنادًا؟ بل ما الذي يُطَمْئِنُ هذا الإنسان إلى أن أبا لهب لن ينهض به دافع التحدّي عندما يسمع هذا الوعيد المسجل في حقه إلى أن يعلن إيمانه باللَّه ورسوله على الملأ، ليثبت بذلك أنه قد محا أسباب شقوته، وأن إخبار القرآن عن مصيره مخالف للواقع الذي تم؟

إن بشرًا من الناس لن يستوثق من تقلبات الزمن، وما قد يطرأ من الأحوال والأفكار الجديدة على أبي لهب وأمثاله، ونظرًا لذلك فلن يجد من الجرأة ما يعتمد عليه في إطلاق مثل هذا الخبر الغيبي المخبوء في تلافيف المستقبل.

ومثله قول اللَّه ﷻ في حق الوليد بن المغيرة المخزومي:

﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۝١١ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ۝١٢ وَبَنِينَ شُهُودًا ۝١٣

وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمۡهِيدٗا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطۡمَعُ أَنۡ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِأٓيَٰتِنَا عَنِيدٗا ﴿١٦﴾ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ﴿١٧﴾﴾ (المدثر: ١١ - ١٧)، إلى قوله ﷻ: ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبۡقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٞ لِّلۡبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾ (المدثر: ٢٦ - ٣٠).

إن هذا الإخبار الغيبي: سأرهقه صعودًا، سأصليه سقر... إلخ، ليس مما يتجرَّأ إنسان عليه؛ لأن الإنسان يفرض الاحتمالات المختلفة للزمن، والأطوار المفاجئة العجيبة للإنسان، وهو ليس مُطَّلعًا على ما قد يأتي به الغد أو ما قد يفاجأ به فكر الإنسان، ولكنه إخبار غيبيّ يصدر عمّن بيده مصير الزمن والمكان، وعمّن يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور وما ينتهي إليه حال أي إنسان.

وتدخل في هذا النوع تلك الآيات التي أخبرت عن اليهود وما قضى اللَّه بشأنهم إلى قيام الساعة، كقوله تعالى:

﴿وَأَلۡقَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ كُلَّمَآ أَوۡقَدُواْ نَارٗا لِّلۡحَرۡبِ أَطۡفَأَهَا ٱللَّهُۚ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادٗاۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ (المائدة: ٦٤). وكقوله ﷻ: ﴿وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبۡعَثَنَّ عَلَيۡهِمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَن يَسُومُهُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿١٦٧﴾﴾ (الأعراف: ١٦٧). وكقوله ﷻ: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ مِّنۡهُمُ ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنۡهُمۡ دُونَ ذَٰلِكَۖ وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ (الأعراف: ١٦٨).

وأنت إذا نظرت إلى تاريخ اليهود في العالم، وإذا تأملت ظاهرة انتشارهم وتفرقهم بين الأمم والشعوب، وكيف يختبئون خلف كل فتنة يهيجونها، ووراء كل نار يوقدونها، وكيف يبعث اللَّه عليهم بين

الحين والآخر من يسومهم سوء العذاب، وكيف أنهم - على الرغم من مراسهم لأسباب الفتن والحروب وسيطرتهم على الكثير من أسواق العالم وتجاراته - لم يأتوا من جهدهم بطائل، ولم تقم لهم قائمة يطمئنون إليها، بل ظلوا مقطعين في الأرض. أقول: إذا تأملت في ذلك كله أدركت أن إخبارات القرآن عنهم وقعت كما أخبر، وأن الزمن ماضٍ في تحقيق المزيد منها.

إنك لتلاحظ تناقضًا عجيبًا في واقع اليهود وشأنهم الذي يتقلبون فيه؛ فهم الذين يملكون ينابيع كثير من الثروات في العالم، وهم الذين كانوا - ولا يزالون - يلعبون بالذهب في أسواق العالم خفضًا له ورفعًا، وهم الذين يختبئون خلف الكثير من سياسات العالم وقياداته يوجهون وينذرون ويُغرِّرون.

ولكنك تلاحظ أنهم - على الرغم من هذا كله - لم يستطيعوا أن ينشئوا لأنفسهم دولة مستقرة أو كيانًا مطمئنًا، وإن الأمم التي أنشأت كياناتها واستقرت في أوطانها وصلت إلى ما ابتغته من ذلك منذ عصور بعيدة باليسير مما يملكه اليهود ويسيطرون عليه.

فما تحليل هذا التناقض؟.. تحليله الوحيد أن الأمر في جملته تصديق أمين لحكم الله فيهم ووعيد الله لهم، إنه قرار الله ﷻ: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا﴾ يلاحقهم في كل حين وعلى كل حال. وإنه حكم الله ﷻ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ ۗ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ ۖ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٧﴾﴾ (الأعراف: ١٦٧) يهيمن عليهم في حالة العسر واليسر، وفي تقلبات البأس والضعف.

ومن النوع الثالث: آيات كثيرة تعلن في بيانات حاسمة عن نواميس كونية، وتخبر أنها ستظل قوانين نافذة حاكمة على الناس كلهم وعلى الطاقة العلمية كلها، مهما تنوعت، فهي تستعصي على كل محاولات التغيير والتطوير، وإليك بعضًا من هذه الآيات:

- ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ۝٦٨﴾ (يس: ٦٨).
- ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ (النساء: ٧٨).
- ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّـٰهُ فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَـٰدِرُونَ ۝١٨﴾ (المؤمنون: ١٨).
- ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾ (الإسراء: ٨٥).
- ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (الزخرف: ٣٢).

تأمل في هذه التقارير القاطعة في أسلوبها، المطلقة عن قيود الزمان والمكان، المرسلة في قوة وإصرار إلى أعماق غيوب المستقبل، المتجاهلة بل المترفعة عن محاولات التطوير والعلم، أيمكن أن ينطق بها بشر؟.. وهل الإنسان نفسه إلا ذرة من جزيئات الكون، فهو لا يدري ما الذي يأتي به الغد ويتطور إليه العلم، أو تمتد إليه الطاقة؟

إن أعظم العلماء شأنًا اليوم، يرى الحقيقة العلمية بعينيه ثم يتحفظ مع ذلك في التعبير عنها، متوقعًا أن يفاجأ في كل يوم بقيود

أو حدود جديدة لها. فأي رجل هذا الذي يستطيع أن ينهض من وراء القرون الغابرة، فيبعث إلى الدنيا كلها بتقرير علمي جازم يفصّل فيه أمر النواميس الكونية الراسخة، ويرفعها فوق هام البشرية مؤكدًا أن أي طاقة، مهما كانت، لن تمتد إليها بأي تغيير؟[1].

● الإعجاز التشريعي:

تحدَّث كثير من الكاتبين عن الإعجاز التشريعي في القرآن، بطريقة لا تكشف حقيقة عن جانب جديد من الإعجاز القرآني، ينبع من أحكامه التشريعية. وقُصَارَى ما ينتهي إليه ذهن القارئ أو المتتبع لهذه الطريقة، أن في القرآن تشريعًا أصيلًا وأحكامًا مهمة وضرورية لمصالح الناس، وأن علماء الشرائع والقانون لا غنى لهم - على مرّ العصور - عن الإفادة منها والرجوع إليها. أما أنها تشكِّل مظهرًا من مظاهر الإعجاز في القرآن، فذلك شيء آخر قد يَخفَى على من يدرس الإعجاز التشريعي في القرآن بتلك الطريقة.

على أن الإعجاز التشريعي في القرآن حقيقة بارزة لا تقبل رَيْبًا ولا يكتنفها غموض، ولكن الأمر يحتاج إلى فهم حيثية الإعجاز التشريعي فيه، وهو ما فات التنبُّه له أو التنبيه إليه لدى كثير من الباحثين.

ولا شك أن التنبيه إلى هذه الحيثية التي هي مكمن الإعجاز التشريعي في القرآن يحتاج إلى مقدمة، نوجزها فيما يلي:

---

(١) من روائع القرآن، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص ١٤٨ - ١٥٢.

من المعلوم فيما أجمع عليه علماء القانون والاجتماع، أن آخر ما يُتَوَّج به تقدُّمُ أي جماعة أو أمة في نهضتها المدنية والحضارية، هو تكامل البنية القانونية والتشريعية في حياتها. أي أن ظهور صياغة قانونية متكاملة في الأمة يُعَدُّ الثمرة العليا لتقدمها الحضاري.

ولا يمكن أن نعكس هذه الظاهرة بحال من الأحوال، فلم نصادف أن نجد جماعة من الناس بدأت سيرها في طريق الرقي والحضارة بإرساء بناء قانوني متكامل لحياتها، بحيث جعلت منه منطلقها إلى الثقافة والرقي الاجتماعي والاقتصادي والعلمي؛ ذلك لأن الأمة التي لم تتقدم حضاريًا بعد، والتي لا تزال تعيش في عهد البداوة وفي ظل الأعراف القَبَليَّة، ليس في حياتها الاجتماعية من التعقيد ما يُشعرها بالحاجة إلى سَنِّ قانون ووضع تشريع. غير أنها تزداد شعورًا بذلك تدريجيًا كلما تقدمت حضاريًا وازداد تركيبها تعقيدًا.

غير أن الذي ظهر في الجزيرة العربية، قبل أربعة عشر قرنًا، عَكْسُ هذا الذي أجمع عليه علماء القانون والاجتماع وعرفه الناس من تجارب الأمم ووقائع التاريخ.. فلقد ظهر فجأة بين تلك الجماعات الأميَّة من أهل الجزيرة العربية، قانون متكامل يتناول الحقوق المدنية، والأحوال الشخصية، ويرسم العلاقات الدولية، ويضع نظام السلم والحرب ويضبط آثارهما.. كل ذلك ولَمَّا تتعلم تلك الجماعات بعد شيئًا عن معنى المجتمع الذي يحتاج إلى قانون، ولَمَّا تأخذ بنصيب من العلم أو الحضارة والثقافة مما يُعَدُّ خطواتٍ أساسيةً لابدّ من اجتيازها في طريق الوصول إلى المستوى الذي يُوجِد الشعور بالحاجة إلى وضع تشريع وقانون.

فكِّرْ ما طاب لك التفكير، هل تجد من حلٍّ لهذا اللغز العجيب، إلا في اليقين بأن الكتاب الذي حوى هذا التشريع. إنما أنزل وحيًا من عند اللَّه ولم يُؤلَّف من قِبَلِ أيِّ بشر على وجه الأرض؟

و إلَّا ، فأين المفرُّ من أعجوبة لا يقبلها عقل أي مفكر : أن تؤلِّف قبائل تُظِلُّها حياة البداوة البدائية البسيطة: قانون توثيق العقود، ونظام توزيع التركات والمواريث، وضوابط السلم والحرب، ثم تمر الأجيال وتتطور الظروف والأحوال دون أن يشعر أي باحث منصِف بأي مُوجِبٍ حقيقي لتغيير شيء من هذه النظم والأحكام؟ بل تُعقَد لدراسته المؤتمرات العالمية بعد مرور أربعة عشر قرنًا من وجوده وتطبيق المسلمين له، ويُجْمِع أساطين الفقه والقانون في ختام هذه المؤتمرات - على اختلاف مِلَلهم ومذاهبهم - على الأهمية البالغة لهذا التشريع، وعلى ضرورة دراسته والإفادة منه في الدراسات المختلفة. . أفيكون هذا التشريع الذي اتَّسم بهذا الخلود من وضع جماعات من العرب والأعراب الأميين الذي يحكمهم نظام البادية وأعراف القبيلة؟ . . أيُّ مجنون هذا الذي يصدِّق مثل هذا الخلْط والهراء؟

من أجل هذا اللغز الذي لا يُحَلُّ إلا باليقين بأن هذا القرآن كلام اللَّه، ذهب الباحثون المستشرقون ومن لفَّ لفَّهم يمينًا ويسارًا في البحث عن تحليل مقبول لقصة هذا التشريع الذي ظهر فجأة في الجزيرة العربية، فمرَّة فرضوا أنه مقتبس عن القانون الروماني، ولَمَّا رأوا أنه لا توجد أي جسور واصلة ما بين هذه الفرضية وواقع الجزيرة العربية آنذاك، تحوَّلوا عن هذا القول إلى فرض أنه مقتبس عن الشرائع اليهودية. . ولَمَّا أعوزهم الدليل على هذا الزعم

العجيب قالوا: فلعلَّه مقتبس عن شريعة حمورابي!!

كل هذا، فرارًا من لغز عجيب يُلزمُهم - إن هم لم يقبلوا وجهًا من هذه الوجوه - بالقول بأن هذا التشريع ظهر هكذا في جو الجزيرة العربية دون أن ينبع من أرضها؛ لأنه غير معقول أن ينزل من سمائها، لأنهم لا يريدون أن يعترفوا بنبوَّة محمد ﷺ.

ونحن نقول: أمَّا أنه لا يمكن أن يكون قد نبع من أرضها، فهو صحيح، إن فاقد الشيء لا يعطيه بل لا يستشعر الحاجة إليه. وأمَّا أنه لا يمكن أن يكون قد نزل من سمائها فهذا ما نخالف فيه إن أردنا أن نحلَّ اللغز حلاً يقبله المنطق والعقل. بل نقول إنه لا يمكن إلا أن يكون شرعًا منزلًا من السماء، أي: من لدن ربِّ العالمين، نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ ليكون من المبلغين له بلسان عربي مبين.

فإن لم نَحُلَّ اللغز عن طريق اليقين بهذه الحقيقة، فلنعلم أن اللغز سيظل قائمًا، وسيظل كل عاقل في حيرة من أمر هذا التشريع ومصدره، ولن يَحُلَّ شيئًا من الإشكال تلك الافتراضاتُ العشوائية التي لا تعتمد على أيِّ بيِّنة أو برهان أو حتى إشارة يُسْتَأنَس بها.

فهذه هي خلاصة القول عن الإعجاز التشريعي في القرآن. أما القول عن دقة هذا التشريع ومقوِّمات خلوده وصلاحيته، فحدِّث عن ذلك ولا حرج، والكلام في ذلك متشعب وطويل، إلا أن الحديث في ذلك خارج في جملته عن حقيقة الإعجاز الذي نتكلم عنه. وإنما مكمن الإعجاز التشريعي هو ما قد أوضحناه بشكل موجز[١].

---

(١) من روائع القرآن، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص ١٥٣ - ١٥٦.

• الإعجاز العلمي:

نزل القرآن في عصر لم يكن الإنسان يعرف فيه عن الطبيعة إلا القليل النادر، وكانوا يرون أن الأمطار تنزل من السماء، وأن الأرض مستوية، كالفراش، وأن السماء سقف الأرض، وكانوا يرون أن النجوم مسامير لامعة من الفضة مركبة في قبة السماء، أو أنها قناديل معلقة في الفضاء! وكان أهل الهند الأقدمون يؤمنون بأن الأرض محمولة على أحد قرني "البقرة الأم"، وهي حين تقوم بنقل الأرض من قرن إلى آخر يحدث زلزال على البسيطة. وكان العلماء يرون أن الشمس ساكنة بلا حراك، وأن الأرض تدور حولها إلى أن جاء "كوبرنيك" (١٤٧٣/ ١٥٤٣م)، وعرض فكرته الشهيرة عن حركة الشمس.

وهكذا تقدم العلم رويدًا رويدًا، إلى أن زادت قوة المشاهدة والدراسة لدى الإنسان، فكشف عن أسرار كثيرة. والآن لا نجد جزءًا ما من معلوماتنا عن أجزاء الجسم، وشعب العلم المختلفة، إلا وقد تغيرت نظرتنا إليه كلية، وثبت بطلان عقائد العصر القديم.

ويدل هذا بكل صراحة على أنه لا وجود لكلام إنساني تدوم صحته كليًّا. لأن الإنسان يتكلم عما هو معروف من المعتقدات والعلوم في عصره، إنه سوف يسرد ما وجده في زمنه، سواء وقع كلامه في دائرة الشعور أو اللاشعور. ولذلك لا نجد كتابًا مضى عليه حين من الدهر إلا وهو مملوء بالأغلاط والأخطاء من سائر نواحيه، نظرًا إلى الكشوف الجديدة في كل الميادين.

ولكن مسألة القرآن الكريم تختلف تمام الاختلاف عن هذه

الكلية! فهو حق وصدق في كل ما قال، كما كان في القرون الغابرة. ولم يطرأ على ما جاء فيه أي تغير رغم مضي قرون وعصور طويلة. وهذا في نفسه دليل على أن منبعه عقل جبار يحيط بالأزل وبالأبد علما، وهو يعلم سائر الحقائق في صورها النهائية والحقيقية، ولا يخضع علمه ومعرفته لحواجز الزمان والمكان والأحوال. ولو كان الكلام صادرًا عن بشر محدودي النظر والعلم لكان الزمان قد أبطله منذ عصور عديدة، كما يحدث لكل كلام إنساني في مستقبله.

إن المحور الحقيقي لرسالة القرآن هو السعادة الأخروية، فهو بذلك لا يدخل في دائرة أي من علومنا وفنوننا الحديثة. ولكن حيث إنه يخاطب "الإنسان" في حقيقة الأمر، فهو يمس كل ما هو متعلق بالإنسان، وهي مسألة دقيقة، وموقف جد خطير. . لأن المرء حين يكون جاهلًا، أو ناقص المعلومات حول مشكلة ما، ثم يتجرأ ليتكلم عن تلك المشكلة - ولو إجمالًا - فلا بد أن يكبو في حديثه، وذلك حين يستخدم كلمات أو عبارات لا علاقة لها بالواقع والحقائق!

وسوف أورد هنا بعض الأمثلة التي تدل صراحة على أن القرآن الكريم يحيط بالحقائق التي لم تُعْرَف إلَّا في عصرنا هذا، وإن كانت إحاطته هذه ضمن إشارات غير مقصودة لذاتها.

ويجب أن أقول، تمهيدًا لهذا البحث: إن مطابقة كلمات القرآن وألفاظه للكشوف الحديثة مبنية على أن العلم الحديث قد استطاع الكشف عن أسرار المسألة موضوع البحث، فتوفرت لدينا مواد نافعة لتفسير الإشارات القرآنية في ذلك الموضوع. ولو أن دراسة

المستقبل في موضوع ما تبطل واقعة من وقائع العلم الحديث كليًّا أو جزئيًّا فليس هذا بضائر مطلقًا صدق القرآن، بل معناه أن المفسر أخطأ في محاولته لتفسير إشارة مجملة في القرآن، وإنني لعلى يقين راسخ بأن الكشوف المقبلة سوف تكون أكثر إيضاحًا لإشارات القرآن، وأكثر بيانًا لمعانيه الكامنة.

• تصنيف آيات القرآن:

نستطيع أن نصنف آيات القرآن المتعلقة بهذا الجانب إلى نوعين:

الأول: ما عرف عنه الإنسان - حتى ذلك العصر - أمورًا جانبية وسطحية.

الثاني: ما لم يعرف عنه ذلك الإنسان شيئًا مطلقًا.

إن هناك أشياء كثيرة كان الأقدمون يعرفون عنها بعض المعارف الجزئية، وكانت معرفتهم هذه ناقصة جدًّا بالنسبة إلى المعرفة التي أتيحت للإنسان اليوم، بفضل الاختراعات الحديثة. وقد واجه القرآن في هذا الصدد مشكلة كبرى، فهو لم يكن كتابًا في العلوم والهندسة، ولذلك لو أنه كان بدأ يكشف عن أسرار الطبيعة لاختلف الناس فيما بينهم حول ما جاء في القرآن، ولاستحال عندئذٍ بلوغ الهدف الحقيقي من نزول القرآن، وهو إصلاح العقل الإنساني وتزكيته. فمن إعجاز القرآن أنه تكلم في لغة العلم، قبل كشفه، كما أنه استعمل كلمات وتعبيرات لم تستوحشها أذواق الأقدمين ولا معارفهم، على حين أحاطت بكشوف العصر الحديث!

- **النوع الأول:**

ذكر القرآن الكريم قانونًا خاصًا بالماء في سورتين: هما الفرقان والرحمن.

جاء في السورة الأولى: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٥٣﴾﴾ (الفرقان: ٥٣).

وأما الآية التي وردت في السورة الأخرى فنصُّها: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾ (الرحمن: ١٩ - ٢٠).

إن الظاهرة الطبيعية التي يذكرها القرآن في هذه الآيات معروفة عند الإنسان منذ أقدم العصور؛ وهي أنه إذا ما التقى نهران في مَمَرٍّ مائي واحد فماء أحدهما لا يدخل (أي لا يذوب) في الآخر. وهناك، على سبيل المثال، نهران يسيران في "تشانغام" بباكستان الشرقية إلى مدينة "أركان"، في "بورما"، ويمكن مشاهدة النهرين، مستقلًا أحدهما عن الآخر، ويبدو أن خيطًا يمر بينهما، حدًا فاصلًا؛ والماء عذب في جانب، وملح في جانب آخر. وهذا هو شأن الأنهار القريبة من السواحل، فماء البحر يدخل ماء النهر عند حدوث "المد البحري"، ولكنهما لا يختلطان، ويبقى الماء عذبًا تحت الماء الأجاج، هذا ما يُشَاهَد عند ملتقى نهري الكنج والجامونا، في مدينة "اللّه آباد"، فهما رغم التقائهما لم تختلط مياههما.

وجاءت في القرآن بيانات مماثلة، وعلى سبيل المثال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ (الرعد: ٢) هذه الآية مطابقة لما كان يراه الرجل القديم؛ فإنه كان يشاهد عالَمًا كبيرًا قائمًا بذاته في الفضاء،

مكونًا من الشمس والقمر والنجوم، ولكنه لم يَرَ لها أي ساريات أو أعمدة، والرجل الجديد يجد في هذه الآية تفسيرًا لمشاهدته التي تثبت أن الأجرام السماوية قائمة دون عمد في الفضاء اللانهائي، بيد أن هنالك "عمدًا غير مرئية"؛ تتمثل في قانون "الجاذبية" Gravitation Pull؛ وهي التي تساعد كل هذه الأجرام على البقاء في أمكنتها المحددة.

وقد قال القرآن عن الشمس والنجوم: ﴿وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ (يس: ٤٠). وكان الإنسان في العصر الغابر يشاهد أن النجوم تتحرك وتبتعد عن أمكنتها بعد وقت معين. ولذلك لم يكن هذا التعبير القرآني موضع دهشتهم واستغرابهم، ولكن البحوث الحديثة قد خلعت على هذه التعبيرات ثوبًا جديدًا؛ فليس هنالك تعبير أروع ولا أدق من "السباحة" لدوران الأجرام السماوية في الفضاء البسيط اللطيف!

وقال القرآن الكريم عن الليل والنهار: ﴿يُغْشِي ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ (الأعراف: ٥٤) إن هذه الآية الكريمة تشرح للإنسان القديم سر مجيء الليل بعد النهار. ولكنها تحوي إشارة رائعة إلى دوران الأرض محوريًا، وهو الدوران الذي يعتبر سبب مجيء الليل والنهار، طبقًا لمعلوماتنا الحديثة.

ومن بين المشاهدات التي أدلى بها رجل الفضاء الروسي "جاجارين" بعد دورانه في الفضاء حول الأرض: أنه شاهد "تعاقبًا سريعًا" Rapid Succession للظلام والنور على سطح الأرض بسبب دورانها المحوري حول الشمس. وهناك بيانات كثيرة جدًا من هذا القبيل في القرآن الكريم.

● النوع الثاني من الآيات:

وأما النوع الثاني من الآيات القرآنية المتعلقة بالموضوع، فلم يعرف عنها الرجل القديم شيئًا على الإطلاق، وقد تناول القرآن تلك الموضوعات، كاشفًا الغطاء عن أسرار بالغة الأهمية ثبت صدقها بعد الدراسات الحديثة، وسوف أعرض بعض الأمثلة من مختلف فروع العلوم الحديثة.

● أولًا: علم الفلك:

يطرح القرآن الكريم فكرة معينة ومُحَدَّدة المعالم حول بداية الكون المادي ونهايته، وكانت هذه الفكرة غير معروفة لدى الإنسان الجديد قبل قرن من الزمان. أما الإنسان القديم فلا مجال للقول بأنه كان من الممكن أن يتطرق عقله الصغير إلى هذه الفكرة أو أجزائها، وجاء العلم الجديد ليشهد على ما جاء في القرآن الكريم.

يعبر القرآن عن بداية الكون على النحو التالي: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَـٰهُمَا﴾ (الأنبياء: ٣٠)، أما عن نهاية الكون فهو يقول: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ (الأنبياء: ١٠٤).

فالكون - بناءً على تفسير هذه الآيات - كان منضمًّا ومتماسكًا (الرتق: منضم الأجزاء، والفتق عكسه)، ثم بدأ يتمدد في الفضاء، ويمكن رغم هذا التمدد تجميعه مرة أخرى في حيز صغير.

وهذه هي الفكرة العلمية الجديدة عن الكون؛ فقد توصل العلماء خلال أبحاثهم ومشاهداتهم لمظاهر الكون، إلى أن المادة كانت

جامدة وساكنة في أول الأمر، وكانت في صورة غاز ساخن كثيف متماسك. وقد حدث انفجار شديد في هذه المادة منذ عشرة مليارات من السنين على أقل تقدير، فبدأت المادة تتمدد وتتباعد أطرافها.

ونتيجة لهذا أصبح تحرك المادة أمرًا حتميًا لا بد من استمراره طبقًا لقوانين الطبيعة التي تقول: إن قوة الجاذبية في هذه الأجزاء من المادة تقل تدريجيًا بسبب تباعدها، ومن ثم تتسع المسافة بينها بصورة ملحوظة، وفي هذا يقول البروفيسور "إدنجتون":

"إن مثال النجوم والمجرات: كنقوش مطبوعة على سطح بالون من المطاط، وهو ينتفخ باستمرار، وهكذا تتباعد جميع الكرات الفضائية عن أخواتها بحركاتها الذاتية، في عملية التوسع الكوني".

وأما الأمر الآخر، فقد ثبت لنا صدقه، كما ورد في القرآن، فكان الإنسان القديم يرى أن النجوم يبتعد بعضها عن بعض رأي العين، ولكننا نراها متقاربة لبعدها الهائل عن الأرض، وهي في حقيقة الأمر متباعدة بمسافات قياسية.

وقد عرفنا أن كل جسم مادي يدور حول نظام له، مثل النظام الشمسي الذي تدور حوله نجوم ومسارات كثيرة، ومن أمثلته نظام الذرة فنحن نشاهد الفضاء الخالي في النظام الشمسي، ولكننا نعجز عن مشاهدة فضاء النظام النووي، لصغر حجمه المتناهي حتى إنه يستحيل مجرد مشاهدة هذا النظام، ومعنى ذلك أن كل شيء - حتى لو بدا متماسكًا - يحوي حيزًا من الفضاء في داخله، ومثاله: أننا لو جردنا الفضاء أو المكان Space من الذرات المادية في الجسم الإنساني ذات الستة الأمتار، فلن نجد إلا كمية قليلة جدًا من

المادة، تكاد تكون متناهية الوجود.

وهكذا يرى علماء الطبيعة الفلكية (Astro . Physicists) أننا لو طوينا كل شيء في الكون بدون أن نترك للفضاء مكانًا، فسيكون حجم الكون كله ثلاثين ضعفًا من حجم الشمس!! ويمكن قياس سعة الكون من أن أبعد مجرة استطاع الإنسان الكشف عنها تبعد بضعة ملايين من السنين الضوئية عن النظام الشمسي.

لقد توصل العلماء، خلال أبحاثهم، إلى أنه لا بد في المستقبل القريب - وطبقًا لقانون دوران الأجرام السماوية - أن يقترب القمر من الأرض حتى ينشق من شدة الجاذبية، وتتناثر أجزاؤه في الفضاء. وسوف تحدث عملية انشقاق القمر هذه بناء على نفس القانون الذي يحكم المد والجزر في البحار. فالقمر هو أقرب جيراننا في الفضاء، ولا يبعد عن الأرض غير ٢٤٠,٠٠٠ ميل، وهذا القرب يؤثر على البحار مرتين يوميًا، حيث ترتفع فيها أحيانًا أمواج يبلغ طولها ستين مترا، وأما تأثير هذه الجاذبية على سطح الأرض فيبلغ عدة بوصات!!

إن المسافة الفاصلة بين الأرض والقمر مناسبة تمامًا لصالح أهل الأرض، ولو نقص هذا الفاصل إلى خمسين ألفًا من الأميال - على سبيل المثال - فسوف يحدث طوفان شديد في البحار، وسوف تغطي أمواجها أكثر مناطق الأرض المأهولة، وسوف يغرق كل شيء، حتى لتتحطم الجبال من شدة تموج البحار، وسوف تحدث شقوق مروعة على سطح الأرض من وطأة الجاذبية!!

ويرى علماء الفلك أيضًا أن الأرض قد مرت بكل هذه الأطوار

أثناء عملية التكوين، حتى وصلت إلى بعدها الحالي من القمر، بناء على قانون الفلك، وهذا القانون نفسه سوف يأتي بالقمر قريبًا من الأرض مرة أخرى، ويرون أن من المتوقع حدوث هذا قبل بليون سنة، وعندئذ سوف ينشق القمر، وسوف يتناثر حول فضاء الأرض في صورة حلقة.

أليست هذه النظرية من أعظم موافقات العلم لتلك النبوءة الواردة في القرآن الكريم، حول انشقاق القمر، حين تقترب القيامة.

اقرأ قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢﴾ (القمر: ١ - ٢).

• ثانيًا: علم طبقات الأرض:

١) جاء في القرآن الكريم، غير مرة، أن الجبال أرسيت في الأرض حفاظًا على توازنها، من ذلك قوله تعالى

﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ (لقمان: ١٠). ولقد ظل العلم جاهلًا بهذه الحقيقة طوال القرون الثلاثة عشر الماضية، ولكن دارسي الجغرافيا الحديثة يعرفونها جيدًا تحت اسم "قانون التوازن" Isostasy. ولا يزال العلم الحديث في مراحله البدائية بالنسبة إلى أسرار هذا القانون، يقول الأستاذ "إنجلن":

"من المفهوم الآن أن المادة - الأقل وزنًا - ارتفعت على سطح الأرض، على حين أصبحت أمكنة المادة الثقيلة خنادق هاوية، وهي التي نراها الآن في شكل البحار، وهكذا استطاع الارتفاع والانخفاض أن يحافظا على توازن الأرض.

ويقول عالم آخر من باحثي الجغرافيا:

"وفي البحار أيضًا توجد وديان مثل وديان البر. ولكن وديان البحر أكثر غورًا وأبعد عمقًا من تلك التي توجد في البر، كما أنها بعيدة عن المجال التجريبي للإنسان. ويبدو أنه قد حدثت مغارات عميقة في البحار، ويبلغ عمق بعض هذه الوديان ٣٥ ألف قدم عن سطح البحر، وهذا العمق أعلى من أعظم جبال العالم ارتفاعًا. ويبلغ من عمق هذه الوديان البحرية أحيانا أنه لو وضعت فيها قمة "إيفرست" من سلسلة جبال "الهملايا" التي يبلغ طولها ٢٩,٠٠٢ قدم، فسيكون سطح البحر فوقها بمسافة ميل كامل".

ومن الظواهر المحيِّرة أن هذه الخنادق البحرية توجد قرب السواحل البرية بدل أن توجد في أعالي البحار. ومن ذا يستطيع أن يعلم قدر ذلكم الضغط الهائل الذي أحدث هذه المغارات السحيقة في قاع البحار. ولكن قرب هذه الوديان من الجزر والبراكين يدل على أن هناك علاقة بين طول الجبال والخنادق البحرية.. وهو أن الأرض يقوم توازنها على أساس الارتفاع والعمق (في أجزائها المختلفة). ويرى بعض كبار علماء الجغرافيا أنه من الممكن أن تكون الأغوار البحرية علامات على جزر قد تظهر في المستقبل. وسببه أن الرواسب والمخلفات لكل من البر والبحر تترسب في هذه الوديان، وقد سويت مناطق كبيرة من هذه الوديان بعد أن ملأتها هذه الرواسب. ولهذا من الممكن - بناء على عدم التوازن الذي يحدث عن هذه العملية - أن تبرز جبال جديدة في أي وقت، أو تظهر سلسلة جديدة من الجزر، ومما يؤكد ذلك أنه قد وجدت آثار الرواسب البحرية في بعض الجبال الساحلية.

وعلى كل حال، لا توجد نظرية - في ضوء المعلومات الحالية للإنسان - لتقوم بتفسير ضغط قدره سبعة أطنان على كل بوصة - لا زال ذلك كله لغزًا أمام الإنسان، كألغاز البحر الأخرى".

٢) وقد جاء في القرآن الكريم أنه قد مضى على الأرض زمن طويل سواها الله خلاله، قال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١﴾ (النازعات: ٣٠ - ٣١)، وهذه الآية الكريمة تطابق مطابقة عجيبة أحدث الكشوف العلمية، وهو "نظرية تباعد القارات" أو انتشارها (Theory of Drifting continents) فنرى في هذه النظرية أن جميع القارات كانت في وقت ما أجزاء متصلة، ثم انشقت وبدأت "تتقذف" أو تنتشر من تلقاء نفسها، وهكذا وجدت قارات تَحُولُ دونها بحار واسعة.

وقد طرحت هذه النظرية في العالم عام ١٩١٥م، لأول مرة، حين أعلن خبير طبقات الأرض الألماني الأستاذ "ألفريد واجنر" أنه لو قُرِّبت القارات جميعًا، فسوف تتماسك ببعضها كما يحدث في ألعاب الألغاز التي تسمى Jigsaw puzzle .

وهناك شبه كبير يوجد على سواحل البحار المختلفة، كأن نجد جبالًا متماثلة عمرها الأرضي واحد، وكأن نجد فيها دواب وأسماكًا ونباتات متماثلة أيضا! وهذا هو ما دفع عالم النباتات البروفيسور "رونالد جود" Ronald Good في كتابه: جغرافية نباتات الزهور (Geography of Flowering Plants) إلى أن يقول:

"لقد اتفق علماء النباتات على النظرية القائلة بأنه لا يمكن تفسير ظاهرة وجود نباتات متماثلة في مختلف قارات العالم إلا إذا سلَّمنا بأن أجزاء

الأرض هذه كانت متصلة بعضها ببعض في وقت من الأوقات" .

وقد أصبحت هذه النظرية علمية تمامًا بعد تصديق "الجاذبية الحجرية" (Fossil Magnetism) لها؛ فإن العلماء اليوم - بعد دراسة اتجاهات ذرات الحجارة - يستطيعون تحديد موقع أي بلد وجدت به هضبة تلك الحجارة في الزمن القديم، وقد أكدت هذه الدارسة في الجاذبية الأرضية أن أجزاء الأرض لم تكن موجودة في القديم بالأمكنة التي توجد بها اليوم، وإنما كانت في ذلك المكان الذي تحدده نظرية تباعد القارات، وفي هذا الأمر يقول البروفيسور "بلاكيت" :

"إن دراسة أحجار الهند تبين أنها كانت توجد في جنوب خط الاستواء قبل سبعين مليون سنة، وهكذا تثبت دراسة جبال جنوب أفريقيا أن القارة الإفريقية انشقت عن القطب الجنوبي قبل ثلاثمائة مليون سنة" .

لقد ورد في الآية المذكورة آنفًا لفظة "الدحو" ومعناه تسوية الشيء ونثره، كما يقال: دحا المطر الحصى عن وجه الأرض، وهذا هو نفس مفهوم الكلمة الإنجليزية "Drift" التي استخدمت في التعبير عن النظرية الجغرافية الحديثة.

لسنا نملك أمام هذا التوافق المدهش بين ما ورد في الماضي البعيد، وما اكتشف بالأمس القريب - إلا أن نؤمن بأن هذا الكلام صادر عن موجود يحيط علمه بالماضي، والحال، والمستقبل، على السواء.

• ثالثًا: علم الأغذية:

إن قائمة الأغذية التي يقرِّرها لنا القرآن الكريم تُحرِّم الدم وكان الإنسان غافلًا عن أهمية هذا التحريم، ولكن التحليلات التي أجريت للدم قد أكدت أن هذا القانون كان مبنيًّا على أهمية خاصة بالنسبة إلى الصحة. فالتحليل يثبت أن الدم يحتوي كمية كبيرة من حمض البوليك Uric Acid وهو مادة سامة تضر بالصحة لو استعملت غذاء. وهذا هو السر في الطريقة الخاصة التي أمر بها القرآن في ذبح الحيوانات. والمراد من "الذبح" في المصطلح الإسلامي هو الذبح بطريقة معينة حتى يخرج سائر الدم من جسم الحيوان، وهي أن نقطع الوريد الرئيسي الذي يوجد في العنق فقط، وأن نمتنع عن قطع الأوردة الأخرى، حتى يمكن استمرار علاقة المخ بالقلب إلى أن يموت الحيوان، لكيلا يكون سبب الموت الصدمة العنيفة التي وجهت إلى أحد أعضاء الحيوان الرئيسية كالدماغ، أو القلب، أو الكبد. والمقصود من هذا هو أن الدماء تتجمد في العروق، وتسري إلى أجزاء الجسم لو مات الحيوان في الحال - على إثر صدمة عنيفة - وهكذا يتسمَّم اللحم كله، نتيجة سريان حمض البوليك في أنحائه.

ولقد حرم القرآن لحم الخنزير ولم يعرف الإنسان في الماضي شيئًا عن أسرار هذا التحريم، ولكنه يعرف اليوم أن لحم الخنزير يسبب أمراضًا كثيرة؛ لأنه يحتوي أكبر كمية من حمض البوليك بين سائر الحيوانات على ظهر الأرض، أما الحيوانات الأخرى غير الخنزير، فهي تفرز هذه المادة بصفة مستمرة عن طريق البول،

وجسم الإنسان يفرز ٩٠٪ من هذه المادة بمساعدة الكليتين. ولكن الخنزير لا يتمكن من إخراج حمض البوليك إلا بنسبة اثنين في المائة (٢٪) والكمية الباقية تصبح جزءًا من لحمه، ولذلك يشكو الخنزير من آلام المفاصل، والذين يأكلون لحمه هم الآخرون. يشكون من آلام المفاصل والروماتيزم، وما إلى ذلك من الأمراض المماثلة.

ومن وجوه الإعجاز العلمي الباهر في القرآن الكريم تلك الواقعة التي رواها العالم الهندي المغفور له الدكتور "عناية اللّٰه المشرق"، وهو يقول:

"كان ذلك يوم أحد من أيام سنة ١٩٠٩م، وكانت السماء تمطر بغزارة، وخرجت من بيتي لقضاء حاجة ما، فإذا بي أرى الفلكي المشهور جيمس جينز - الأستاذ بجامعة كمبردج - ذاهبًا إلى الكنيسة، والإنجيل والشمسية تحت إبطه، فدنوت منه وسلمت عليه، فلم يرد عليَّ، فسلمت عليه مرة أخرى، فسألني: ماذا تريد مني؟ فقلت له: أمرين، يا سيدي! الأول هو: أن شمسيتك تحت إبطك رغم شدة المطر! فابتسم السير "جيمس" وفتح شمسيته على الفور، فقلت له: وأما الأمر الآخر فهو: ما الذي يدفع رجلًا ذائع الصيت في العالم - مثلك - أن يتوجه إلى الكنيسة؟ وأمام هذا السؤال توقف السير "جيمس" لحظة، ثم قال: عليك اليوم أن تأخذ شاي المساء عندي. وعندما وصلت إلى داره في المساء، خرجت "ليدي جيمس" في تمام الساعة الرابعة بالضبط، وأخبرتني أن السير "جيمس" ينتظرني، وعندما دخلت عليه في غرفته، وجدت أمامه منضدة صغيرة موضوعة عليها أدوات الشاي، وكان البروفيسور

منهمكًا في أفكاره، وعندما شعر بوجودي سألني: ماذا كان سؤالك؟ ودون أن ينتظر ردي بدأ يلقي محاضرة عن تكوين الأجرام السماوية، ونظامها المدهش، وأبعادها وفواصلها اللامتناهية، وطرقها ومداراتها، وجاذبيتها، وطوفان أنوارها المذهلة، حتى إنني شعرت بقلبي يهتز بهيبة اللَّه وجلاله، وأما "السير جيمس" فوجدت شعر رأسه قائمًا، والدموع تنهمر من عينيه، ويداه ترتعدان من خشية اللَّه، وتوقف فجأة، ثم بدأ يقول: يا عناية اللَّه! عندما ألقي نظرة على روائع خلق اللَّه يبدأ وجودي يرتعش من الجلال الإلهي، وعندما أركع أمام اللَّه وأقول له: إنك لعظيم! أجد أن كل جزء من كياني يؤيدني في هذا الدعاء. وأشعر بسكون وسعادة عظيمين، وأُحس بسعادة تفوق سعادة الآخرين ألف مرة، أفهمت يا عناية اللَّه، لماذا أذهب إلى الكنيسة؟

ويضيف العلاَّمة عناية اللَّه قائلًا: لقد أحدثت هذه المحاضرة طوفانا في عقلي، وقلت له: يا سيدي لقد تأثرت جدًّا بالتفاصيل العلمية التي رويتموها لي، وتذكرت بهذه المناسبة آية من آي كتابي المقدس، فلو سمحتم لي لقرأتها عليكم. فهز رأسه قائلًا: بكل سرور، فقرأت عليه الآية التالية: ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَـٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ (فاطر: ٢٧ - ٢٨).

فصرخ السير "جيمس" قائلًا:

ماذا قلت؟ إنما يخشى اللَّه من عباده العلماء؟! مدهش، وغريب وعجيب جدًّا! إنه الأمر الذي كشفت عنه دراسة ومشاهدة استمرت

خمسين سنة، مَنْ أنبأ محمدًا به؟ هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقة؟ لو كان الأمر كذلك فاكتب شهادة مني أن القرآن كتاب موحى من عند اللَّه.

ويستطرد السير "جيمس جينز" قائلًا: لقد كان محمدٌ ﷺ أميًا، ولا يمكنه أن يكشف عن هذا السر بنفسه، ولكن اللَّه ﷻ هو الذي أخبره بهذا السر، مدهش وغريب وعجيب جدًّا!![1].

● الأثر النفسي للقرآن:

من إعجاز القرآن العظيم أنه يستولي على قلوب القارئين والسامعين ويتسامى بأرواحهم، حتى ليكاد الإنسان يشعر وكأنه قد تخلص من طبيعته الأرضية، واكتسب روحًا نورانية، وذلك صنيعه بالقلوب وتأثيره في النفوس، فإنك لا تسمع كلامًا غير القرآن منظومًا ولا منثورًا إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال، ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه، تستبشر به النفوس وتنشرح له الصدور، حتى إذا أخذت حظَّها منه عادت مرتاعة قد عراها الوجيب والقلق، وتَغَشَّاها الخوف والفَرَق، تقشعرُّ منه الجلود، وتنزعج له القلوب، يَحُول بين النفس وبين مُضمَراتها وعقائدها الراسخة فيها؛ فكم من عدو للرسول ﷺ من رجال العرب وفُتَّاكها أقبلوا يريدون اغتياله وقتله، فسمعوا آيات من القرآن، فلم يلبثوا حين وقعت في مسامعهم أن يتحوَّلوا عن

---

(١) سنريهم آياتنا في الآفاق: الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان، مراجعة وتحقيق: د. عبد الصبور شاهين، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م، ص ١٤٠ - ١٥٣.

رأيهم الأول، وأن يركنوا إلى مسالمته، ويدخلوا في دينه، وصارت عداوتهم موالاة، وكفرهم إيمانًا[١].

خرج عمر بن الخطاب ﷺ يريد رسول الله ﷺ ويعمد لقتله، فسار إلى دار أخته وهي تقرأ سورة طه، فلمَّا وقع في سمعه لم يلبث أن آمن.

وبعث الملأُ من قريش عتبة بن ربيعة إلى رسول الله ﷺ ليوافقوه على أمور أرسلوه بها، فقرأ عليه رسول الله ﷺ آيات من سورة فصلت، فلما أقبل عتبة وأبصره الملأَ من قريش قالوا: أقبل أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به.

ولَمَّا قرأ رسول الله ﷺ القرآن في الموسم على النفر الذين حضروه من الأنصار، آمنوا به وعادوا إلى المدينة فأظهروا الدين بها، فلم يَبْقَ بيت من بيوت الأنصار إلَّا وفيه قرآن. وقد رُوِيَ عن بعضهم أنه قال: فُتِحَت الأمصار بالسيوف وفُتِحَت المدينة بالقرآن.

ولَمَّا سمعته الجن لم تتمالك أن قالت:

﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ (الجن: ١ - ٢).

ومصداق ما وصفناه في أمر القرآن في قول الله تعالى:

﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ (الحشر: ٢١).

وقوله ﷻ:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ

(١) رسالة الخطابي ضمن كتاب "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن"، ص٢٤ .

يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ (الزمر: ٢٣).

وقوله ﷻ:

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (الأنفال: ٢).

وغير ذلك الكثير من الآيات، لمن ألقى السمع وهو شهيد، وهو من عظيم آياته، ودلائل معجزاته(١).

وروي عن محمد بن كعب القرظي أنه قال: حُدِّثت أن عتبة بن ربيعة - وكان سيدًا حليمًا - قال يومًا: ألا أقوم إلى محمد فأكلمه فأعرض عليه أمورًا لعلَّه أن يقبل منها بعضها فنعطيه أيها شاء؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ورأوا أصحاب النبي ﷺ يكثرون، قالوا: نعم يا أبا الوليد!

فقام إليه - وهو ﷺ جالس في المسجد وحده - فقال: يا ابن أخي! إنك مِنَّا حيث علمت من البسطة في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك أتيت قومك بأمر عظيم، فرَّقت به بين جماعتهم وسفَّهت أحلامهم وعِبْت آلهتهم، وكفَّرت مَنْ مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك أن تقبل منها بعضها، فقال ﷺ: قل. قال: إن كنت إنما تريد المال بما جئت به من هذا القول، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد شرفًا سوَّدناك حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد به ملكًا ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي بك رئيًا (أي شيطانًا) لا

---

(١) من كتاب: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، للرماني والخطَّابي وعبد القاهر الجرجاني، ص ٧٠ - ٧١ .

تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يُداوَى منه، أو لعلَّ هذا شعر جاش به صدرك، فإنكم لعمري بني عبد المطلب تقدرون من ذلك على ما لا نقدر عليه! حتى إذا فرغ قال له رسول اللَّه ﷺ: أو قَد فرغت؟ قال: نعم، قال: فاسمع مني. قال: قل. قال: بسم اللَّه الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ① تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ② كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ③ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ④﴾ (فصلت: ١ - ٤).

ثم مضى فيها يقرؤها، فلما سمعها عتبة أنصت له، وألقى يديه خلف ظهره معتمدًا عليهما يستمع منه حتى انتهى رسول اللَّه ﷺ إلى السجدة منها فسجد، ثم قال له: قد سمعتَ ما سمعت فأنت وذاك! فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلمَّا جلس قالوا: ما وراءَك؟ قال: ورائي أني سمعت قولًا واللَّه ما سمعت بمثله قط، وما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة، يا معشر قريش أطيعوني، خَلُّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعتزلوه، فواللَّه ليكوننَّ لقوله الذي سمعت نبأٌ؛ فإن تُصِبْهُ العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب به فمُلكه ملككم وكنتم أسعد الناس به. قالوا: سحرك بلسانه! قال: هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم.

ومنه ما جاءَ في حديث أبي ذر في سبب إسلامه: رُوي أنه قال: قال لي أخي أنيس: إن لي حاجة إلى مكة، فانطلق، فمكث طويلًا، فقلت: ما حبسك؟ قال: لقيت رجلًا يقول إن اللَّه تعالى أرسله.

فقلت: فما يقول الناس؟ قال: يقولون: شاعر، ساحر، كاهن. قال أبو ذر: وكان أنيس أحد الشعراء، قال: تاللَّه لقد وضعت قوله على أقراء الشعر فلم يلتئم على لسان أحد، ولقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، واللَّه إنه لصادق وإنهم لكاذبون.

ومن ذلك ما روي أن الوليد بن عقبة أتى النبي ﷺ فقال: اقرأْ. فقرأَ عليه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ (النحل: ٩٠)؛ فقال: أعِدْ، فأعاد، فقال: واللَّه إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أسفله لَمُغدِق، وإن أعلاه لَمُثمِر، وما يقوَى على هذا بَشَرٌ![١].

وكلٌّ من طالع القرآن الكريم قد أحس بشيء من هذا التأثير الطاغي والسلطان الآسر لكلام اللَّه ﷻ، وهو سر من أسرار القرآن باقٍ ما بقيت السماوات والأرض.

ولم يُعْرَف في تاريخ البشر أنَّ كلامًا قَارَبَ القرآن في قُوَّة تأثيره في العقول والقلوب؛ فهو الذي قلب طباع الأمَّة العربية، وحوَّلها عن عقائدها وتقاليدها، وصرفَها عن عاداتها وعداواتها، وبدَّلها بأمِّيَّتِهَا حكمةً وعلمًا، وألَّف من قبائلها المتفرقة أمَّةً واحدة سادت العالم بعقائدها وفضائلها وعدلها وحضارتها وعلومها وفنونها.

---

(١) من رسالة عبد القاهر الجرجاني، ضمن كتاب: ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص ١٢٣. ١٢٥ .

● حفظ القرآن واستمراره عبر الأزمنة:

من شواهد عظمة القرآن وإعجازه أن اللَّه ﷻ قد حفظه من أن تمتد إليه يد بتحريف أو تغيير طيلة أربعة عشر قرنًا من الزمان، ولا يزال القرآن ملء الأسماع والأفواه، مادَّة للأقلام ومسرحًا للعقول، ومجالًا للجدل والمناظرة، وشريعة لمئات الملايين من البشر من شتى الأجناس والأعراق، أربعة عشر قرنًا لا يزيده مَرُّ الزمان إلا رسوخًا وقُوَّةً، وكما قال رسول اللَّه ﷺ: "لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق من كثرة الرد".. نعم ما زال القرآن جديدًا كأنه يتنزل على قلب النبي ﷺ.

ولو كان القرآن من كلام البشر لفرغ الناس منه، كما فرغوا من كل نص آخر مهما بلغت عظمته وروعته.

إن استمرار القرآن خلال هذه القرون المتطاولة، مع ازدياد عطائه، لهو برهان تاريخي يشهد بعظمة هذا الكتاب وإعجازه، وَإِلَّا فأيّ كتاب آخر كان له مثل هذا الخلود، أو هذا العطاء، أو هذه الدقة والضبط والإتقان في آياته، وكلماته، وحروفه، وأصواته، وحركاته، وسكناته؟!

وأي كتاب توفَّرت عليه كل هذه العقول والقلوب حفظًا، وتفسيرًا، واستنباطًا لأحكامه، وترتيلًا لكلماته؟!

وإلى جانب ذلك ما فيه من بساطة وقرب مأخذ، مع عمق معانيه واتِّساعها، وتعدُّد مستويات المعنى في آياته على حسب أفهام القارئين والسامعين ومستويات سُمُوِّهم الروحِيِّ، وأنه سهلٌ قد يَسَّره

اللَّه للناس: كبيرهم وصغيرهم، عالِمهم وجاهلهم، وإنه حقًّا كما قال رب العزة:

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ (ق: ٣٧).

● بين القرآن.. والشعر، والكهانة، والذوق البلاغي:

زعموا أن القرآن الكريم مضطرب في أفكاره، مشتت في موضوعاته وأخباره؛ لاهتمامه بموسيقى الكلام على حساب المعنى المراد، وهو لذلك مليء بالتشبيهات، والعبارات الخلابة التي تجعله قريبًا من الشعر وأسلوب الكهانة، ويحتوي على كثير من الأبيات الشعرية، وهذه خصائص لا تناسب الذوق الغربي، مما يبطل القول بأن هذا القرآن كتاب للناس كافة، وإن كان معجزًا - كما يقول المسلمون - ففي نظمه فقط.

هذه الشبهة بها عدَّة جوانب لابُدَّ من إظهارها:

فالجانب الأول: الحديث عن موضوعات القرآن وطريقة القرآن في نظمها.

والجانب الثاني: بيان سرِّ جمال النظم لهذه الموضوعات من حيث الأداء اللفظي وما يصاحبه من إيقاع موسيقى.

والجانب الثالث: وفيه توضيح أن هذا القرآن بموضوعاته وأفكاره ونظمه وأسراره يناسب كل الأذواق العربية والأعجمية، وهذا وجه من وجوه الإعجاز.

أما الجانب الأخير: فهو بيان أن القرآن معجزٌ في كافة الاتجاهات.

١) **الجانب الأول**: الحديث عن موضوعات القرآن وطريقته في نظمها وترتيبها:

إن الكلام في الشأن الواحد إذا ساء نَظْمه انحلَّت وحدة معناه فتفرّق من أجزائها ما كان مجتمعًا، وانفصل ما كان متصلًا، كما تتبدد الصورة الواحدة على المرآة إذا لم يكن سطحها مستويًا، أليس الكلام هو مرآة المعنى؟ فلا بُدَّ إذن لإبراز تلك الوحدة الطبيعية "المعنويَّة" من إحكام هذه الوحدة الفنية "البيانية" حتى تتماسك وتتعانق أشدَّ التماسك والتعانق.

ليس ذلك بالأمر الهيِّن كما قد يظنه الجاهل بهذه الصناعة، بل هو مطلب كبير يحتاج إلى مهارة وحذق، ولطف في اختيار أحسن المواقع لتلك الأجزاء: أيّها أحق أن يُجْعل أصلًا أو تكميلًا؟ وأيُّها أحقُّ أن يُبدَأ به أو يُختتم بالإسناد أو بالتعليق، أو بالعطف، أو بغيرها؟ هذا كله بعد التلطف في اختيار الأجزاء أنفسها، والاطمئنان على صلة كلٍّ منها بروح المعنى وأنها نقيّة من الحشو، قليلة الاستطراد، وأن أطرافها وأوساطها تستوي في مراميها إلى الغرض، ويستوي هو في استهدافه لها، كما تستوي أبعاد نقط الدائرة بالقياس إلى المركز ويستوي هو بالقياس إلى كل منها.

تلك حال المعنى الواحد الذي تتصل أجزاؤه فيما بينها اتصالًا طبيعيًّا، فما ظنك بالمعاني المختلفة في جوهرها، المنفصلة بطبيعتها؟ كم من المهارة والحذق، بل كم من الاقتدار السحري يتطلبه التأليف بين أمزجتها الغريبة واتجاهاتها المتشعِّبة، حتى لا يكون الجمع بينها في الحديث كالجمع بين القلم والحذاء والمنشار

والماء، بل حتى يكون لها اتجاه واحد، وحتى يُكَوِّن عن وحدتها الصغرى وحدة جامعة أخرى.

إنه من أجل عِزَّة هذا المطلب نرى البلغاء وإن أحسنوا وأجادوا إلى حدٍّ ما في أغراضهم، كان منهم الخطأ والإساءة في نظم تلك الأغراض كُلاً أو جُلاً، فالشعراء حينما يجيئون في القصيدة الواحدة بمعان عِدَّة أكثر ما يجيئون بها أشتاتًا لا يلوى بعضها على بعض، وقليلًا ما يهتدون إلى حُسْن التَّخلص من غرض إلى غرض، كما في الانتقال من الغزل إلى المدح، والكُتَّاب ربما استعانوا على سد تلك الثغرات باستعمال أدوات التنبيه أو الحديث عن النفس، كقولهم: ألا وإن هذا ولكن.. بقي علينا.. ولننتقل.. نعود.. قلنا... وسنقول.. إلخ.

هذا شأن الأغراض المختلفة إذا تناولها الكلام الواحد في المجلس الواحد، فكيف لو قد جيء بها في ظروف مختلفة وأزمان متطاولة؟ ألا تكون الصلة فيه أشد انقطاعًا، والهوَّة بينها أعظم اتساعًا؟!

فإن أعجبك من القرآن نظام تأليفه البياني في القطعة منه، حيث الموضوع واحد بطبيعته، فهلمَّ إلى النظر في السورة منه حيث الموضوعات شتى والظروف متفاوتة، لترى من هذا النظام ما هو أدخل في الإعجاب والإعجاز.

ألست تعلم أن ما امتاز به أسلوب القرآن من اجتناب سبيل الإطالة والتزام جانب الإيجاز - بقدر ما يتَّسع به جمال اللغة - قد يجعله هو أكثر الكلام افتنانًا، نعني أكثره تناولًا لشئون القول وأسرعه تنقلًا بينها، من وصف إلى قصص، إلى تشريع، إلى جدل،

إلى ضروب شتى، بل جعل الفن الواحد منه يتشعب إلى فنون، والشأن الواحد فيه تنطوي تحته شئون وشئون.

أو لست تعلم أن القرآن - في جُلّ أمره - ما كان ينزل بهذه المعاني المختلفة جملة واحدة، بل كان ينزل بها آحادًا متفرقة على حسب الوقائع والدَّواعي المتجددة؟! وأن هذا الانفصال الزماني بينها، والاختلاف الذاتي بين دواعيها، كان بطبيعته مستتبعًا لانفصال الحديث عنها على ضرب من الاستقلال والاستئناف لا يَدَع بينها منزعًا للتواصل والترابط؟

ألم يكن هذان السببان قوتين متظاهرتين على تفكيك وحدة الكلام وتقطيع أوصاله إذا أُرِيدَ نظمُ طائفة من تلك الأحاديث في سلك واحد تحت اسم سورة واحدة؟

خذ بيدك بضعة متون كاملة من الحديث النبوي كان التحدُّث بها في أوقات مختلفة، وتناولت أغراضًا متباينة، أو خذ مِنْ كلام مَنْ شئت من البلغاء بضعة أحاديث كذلك، وحاول أن تجيء بها سردًا لتجعل منها حديثًا واحدًا، من غير أن تزيد بينها شيئًا أو تَنْقُص منها شيئًا، ثم انظر كيف تتناكر معانيها وتتنافر مبانيها في الأسماع والأفهام، وكيف يبدو عليها من الترقيع والتلفيق والمفارقة ما لا يبدو على القول الواحد المسترسل؟

وسبب ثالث كان أجدر أن يزيد نظم السورة تفكيكًا ووحدتها تمزيقًا، ذلك هو الطريقة التي اتُّبعت في ضم متفرِّقات القرآن بعضها إلى بعض، وفي تأليف وحدات السور من تلك المتفرِّقات، وإنها لطريقة طريفة سنريك فيها العجيبة الثالثة الكبرى التي خرجت بهذا

التأليف القرآني عن طبيعة التأليف الإنساني.

إن النبي ﷺ الذي نزل عليه الذِّكر لم يتربص بترتيب متفرِّقاته حتى كملت نزولًا، بل لم يتربص بتأليف سورة واحدة منه حتى تمَّت فصولًا، بل كان كلما ألقيت له آية أو آيات أمر بوضعها من فوره في مكان مرتب من سورة معينة، على حين أن لهذه الآيات والسور في ورودها التنزيلي سببها الذي اتبعته في وضعها الترتيبي؛ فكم من سورة نزلت جميعًا أو أشتاتًا في الفترات بين النجوم من سورة أخرى؟ وكم من آية في السورة الواحدة تقدمت فيها نزولًا وتأخرت ترتيبًا؟ وكم من آية على عكس ذلك؟

نعم، لقد كان للنجوم القرآنية في تنزيلها وترتيبها ظاهرتان مختلفتان، وسبيلان قَلَّما يلتقيان، ولقد خلص لنا من بين اختلافهما أكبر العبر في أمر هذا النظم القرآني:

فلو أنك نظرت إلى هذه النجوم عند تنزيلها، ونظرت إلى ما مهّد لها من أسبابها، فرأيت كل نجم رهينًا بنزول حاجة مُلِحَّة، أو حدوث سبب عام أو خاص، إذن لرأيت في كل واحدٍ منها ذكرًا محدثًا لوقته، وقولًا مرتجلًا عند باعثه، لم يتقدم للنفس شعور به قبل حدوث سببه، ولرأيت فيه كذلك كُلًّا قائمًا بنفسه لا يترسم نظامًا معينًا يجمعه وغيرَه في نسق واحد.

ثم إذا نظرت في الوقت نفسه إلى ترابط كُلِّ نجم بما قبله وما بعده في نظام دقيق لوجدت أن هنالك خطة تفصيلية شاملة قد رُسمت فيها مواقع النجوم كلها قبل نزولها، بل من قبل أن تُخْلَق أسبابها، وأن

هذه الخطة كانت محكمة لا تنفصم عراها[(١)].

٢) **الجانب الثاني**: الحديث عن سر النظام الإيقاعي في لغة القرآن، هذا النظام الذي رَقَّتْ له القلوب وذرفت له العيون، وما رقت القلوب ولا ذرفت العيون قَبْلُ لقول أحدٍ من العالمين كما ذرفت ورقت لكلام رب العالمين، ونُجْمِل هذا الجانب في النقاط الآتية:

● إن نزول القرآن متفرِّقًا كان مَدْعَاةً لاختلاف نظامه الإيقاعي كما بيَّنا في الجانب الأول؛ حيث إنه نزل منجَّمًا على ثلاث وعشرين سنة، ورغم ذلك لم يحدث، فالسورة على كثرة نجومها وطولها لا يبدو عليها انفصال في النظم، فما ظنك بما دونها من سور المفصل حيث جرى التنجيم في بعض القصار منها، كالضحى والماعون التي نزلت كل واحدة منها مفرقة على مرتين.

● إن بيان إعجاز القرآن أمرٌ جسيمٌ أرهق العلماء والأدباء من قبلنا وفي عصرنا، فجفَّت من دونه أقلامهم، ولم يزيدوا إلا أن ضربوا له الأمثال واعترفوا بأن ما خفي عليهم منه أكثر مما فطنوا إليه، وأن الذي وصفوه مما أدركوه أقل مما ضاقت به عباراتهم ولم تَفِ به إشاراتهم، ونحن إذ نسير على درب علمائنا، لا نزعم أننا سنبين كل ما بينوه في هذه العُجالة السريعة، ولكن سنأخذ منها طرفًا، أخذًا بقول الشاعر:

إِذَا حَاجةٌ وَلَّتْكَ لا تَسْتَطِيعُها ... فَخُذ طَرَفًا مِن غَيرِها حينَ تُسبَقُ

---

(١) النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن، د. محمد عبد اللّه دراز، ص١٤٢ - ١٥٠ (بتصرف وإيجاز).

• إن أول ما نجده في إعجاز القرآن تأليفه الصوتي الذي تطرب له الآذان، فلا تسمع فيه جرس الحروف، وإنما تسمع حركاتها وسكناتها، ومَدَّاتها وغُنَّاتها، واتصالاتها وسكتاتها، في نظام مؤتلف متَّسق يسترعي مِنْ سَمْعِك ما تسترعيه الموسيقى والشعر، على أنه ليس بأنغام الموسيقى ولا بأوزان الشعر، فالشعر يُقَسَّم أبياتًا وأشطارًا، وتتكرر بحوره في نغم متصل متكرر، والقطعة الموسيقية تتشابه أهواؤها وتذهب مذهبًا متقاربًا، لا يلبث السمع أن يَمَجَّها، والطبع أن يَمَلَّها، أما القرآن فهو لحنٌ متنوع متجدِّد، لا تصيب النَّفْسَ منه - على كثرة ترداده - ملالةٌ ولا سأم، بل كلما كثر تَرْداده كثرت عذوبته على النفس.

• ثم إذا ما انتقلنا من الحديث العام عن موسيقى القرآن واقتربنا قليلًا من حروفه نجد عجبًا، نجد لذَّة في رصف الحروف وترتيب أوضاعها فيما بينها، فهذا الحرف يُنْقر وذاك يُصْفَرْ، وثالث يُهْمس ورابع يُجْهَر، وآخر يَنْزلق عليه النَّفَس وآخر يَنْحبس عنده النَّفَس. وهلمَّ جرًّا، فترى الجمال اللغوي ماثلًا أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة، لا كركرة ولا ثرثرة، ولا رخاوة ولا معاظلة، ولا تناكر ولا تنافر، فلا هو بالكلام الحضريِّ الفاتر ولا بالبدويِّ الخشن، بل نراه وقد امتزجت فيه جزالة البادية وفخامتها بِرِقَّة الحاضرة وسلاستها.

٣) **الجانب الثالث**: ويتضَمَّن النقاط الآتية:

• إن هذا النظم العجيب، يَسّره اللَّه للذكر، ليقرأ العربي والعجمي فلا تملُّه الأذواق، ولا تَمجُّه الأسماع، وكلٌّ يتلذذ بالقرآن وبعض من يتلذذ يبحث عن سرٍّ لذة ذلك الكلام العجيب، وما زال

البحث مستمرًا لتنكشف لنا حقائق ما كنَّا نعلمها قبل ذلك.

• إن من عجيب نظم القرآن أن العجمي الذي لا يعرف العربية تراه يقرأ القرآن بصوت عذب ثم لا يستطيع أن يتكلم بَعْدُ اللغة العربية، مما يجعلنا نقف مسلِّمين أمام ربِّ العالمين الذي أنطق العجمي وجعله يقرأ القرآن بلسان عربي مبين وهو للغة العربية لا يَكَادُ يُبين.

• أبعد ذكرنا لطرف من سرٍّ جمال النظم القرآني يُدَّعى أن القرآن لا يُناسب أذواق الغرب، فمن يدَّعي هذا فليأتنا بأذواق الغرب لنضعها أمام القرآن، وسيرى أن الذوق البشري بفطرته النقيَّة سيتلذذ بالقرآن ويستمتع به.

٤) **الجانب الأخير**: الزعم بأنه لا إعجاز في القرآن، وهو زعمٌ باطل من عدة وجوه، منها:

• أن القرآن جاء بجوانب إعجازيَّة بهرت الناس كافة، منذ نزوله وحتى لحظة كتابة هذه السطور، وما زالت تنكشف لنا حقائق قد ذكرها القرآن، وما زالت تتبدَّى لنا أمور قد بيَّنها القرآن.

• إن كثيرًا من البشر الذين ينشدون الْمُثُل العُلْيا في علمهم وعملهم، وضعوا نظريات أخلاقية وعلمية، منها ما هو صالح ومنها غير ذلك، وهم في اضطراب دائم بحكم عملهم البشري، غير أن الناجح من أعمالهم والذي يتفق على صحته العلماء ويُشِيدون به ويذكرونه على أنه آخر صيحات العلم الحديث، يُفاجَأون بأن القرآن قد ذكره منذ قرون عديدة، وعندما يرون آيات اللَّه الباهرة في قرآنه المعجز ينقسمون فريقين: فريق يُؤمن باللَّه ربِّ العالمين، وآخر

يعرف نعمة اللَّه ثم يُنْكرها وأكثر هؤلاء جاحدون كافرون.

• ويكفي لإثبات الإعجاز القرآني - بالإضافة إلى ما تقدَّم - أن نسوق عليه مثالًا في مجال الطب؛ فقد كان الأطباء يقولون: إن مراكز الإحساس في المخ، ولكنهم توصلوا - أخيرًا - إلى أن مراكز الإحساس في الجلد، وقد ذكر القرآن ذلك قبل أربعة عشر قرنًا في قول اللَّه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَوۡفَ نُصۡلِيهِمۡ نَارٗا كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمٗا ٥٦﴾ (النساء: ٥٦) "[١].

وغير ذلك الكثير والكثير مما أُفْرِدت له المجلدات في الإعجاز الطبي والعلمي واللغوي، وغير ذلك من وجوه إعجاز القرآن العظيم.

• الزعم بأن المجاز في القرآن من قبيل الكذب:

استدلَّ المدَّعون على هذا ببعض المجازات القرآنية، نحو قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ (الكهف: ٧٧).

وقوله تعالى: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا وَٱلۡعِيرَ ٱلَّتِيٓ أَقۡبَلۡنَا فِيهَاۖ﴾ (يوسف: ٨٢). قالوا: الجدار لا يريد، والقرية لا تُسْأل.

وادِّعاء أن المجاز كذب هو الكذب عينه؛ لأن معنى المجاز: طريق القول ومأخذه وضروب تصريفه، مأخوذ من جاز مجازًا، نحو قام مقامًا[٢].

وقد عقد ابن الأثير في "المثل السائر" فصلًا للرد على منكري

---

(١) النبأ العظيم، د. محمد عبد اللَّه دراز، ص١٥٧ . ١٥٨ .

(٢) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، ص ٧٦، المثل السائر لابن الأثير ١ / ١٠٥ .

المجاز، وكذا فعل ابن قتيبة في "تأويل مشكل القرآن" و ابن جني في "الخصائص" : وغيرهم من علماء اللغة والبلاغة[١].

وللمجاز في القرآن الكريم - وفي اللغة عمومًا - ضوابط، وفوائد، فأما ضوابطه فقد لخصها ابن قتيبة في قوله: "فالعرب تستعير الكلمة فتضعها مكان الكلمة إذا كان المسمى بها : بسبب من الآخر، أو مجاورًا له، أو مشاكلًا "[٢].

ولا بد في المجاز من قرينة مانعة من إرادة المعنى الأصلي، كي تسقط الشبهة[٣]، ويتحدد المراد في المعنى المجازي دون الأصلي.

وأما قيمة المجاز وفوائده فيلخصها ابن جني في قوله: "وإنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعان **(أي أغراض)** ثلاثة وهي: الاتساع، والتوكيد، والتشبيه، فإن عدمت هذه الأوصاف كانت **(أي وجبت)** الحقيقة ألبتة"[٤].

وكل مجاز حسن فهو يُوجِبِ بيانًا لا تنوب مَنَابَه الحقيقة، ولو أغنت الحقيقة عن المجاز لكانت أوْلَى، وكل ما جاء في القرآن من مجازات لا تقوم الحقيقة مقامه، وهذه أمثلة من المجاز القرآني كما شرحها "الرماني" :

(١) انظر: د . عبد العظيم إبراهيم المطعني، المجاز في اللغة وفي القرآن الكريم بين مجوزيه ومانعيه، ص ٦١. ٩٦، (صفحات متفرقة)، د . حفني محمد شرف، إعجاز القرآن البياني بين النظرية والتطبيق، ص ٣١ .

(٢) تأويل مشكل القرآن، ص ١٠٢ .

(٣) الخصائص ٢ / ٤٤٢ .

(٤) نفس الموضع السابق .

قال ﷻ: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ (الحجر: ٩٤). حقيقته: فَبَلِّغْ ما تؤمر به، والاستعارة أبلغ من الحقيقة، لأن الصدع بالأمر لا بد له من تأثير كتأثير صدع الزجاجة، والتبليغ قد يصعب حتى لا يكونَ له تأثير فيصير بمنزلة ما لم يقع. والمعنى الذي يجمعهما الإيصال، إلا أن الإيصال الذي له تأثير كصدع الزجاجة أبلغ.

وقال ﷻ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ۝١١﴾ (الحاقة: ١١). طغى حقيقته: عَلا ، والاستعارة أبلغ لأن طغى معناه: عَلاَ قاهرًا، وهو مبالغة في عِظَم الحال.

وقال ﷻ: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ۝٦﴾ (الحاقة: ٦). عاتية حقيقته: شديدة، والعتُوُّ أَبْلَغُ منه لأنَّ العتوّ شدة فيها تَمرُّد.

وقال تعالى: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾ (الملك: ٧ - ٨) شهيقًا حقيقته: صوتًا فظيعًا كشهيق الباكي، والاستعارة أبلغ منه وأوجز، والمعنى الجامع بينهما قبح الصوت، (تميز من الغيظ) حقيقته: من شدة الغليان بالاتقاد، والاستعارة أبلغ منه، لأن مقدار شدة الغيظ. على النفس محسوس مدرك مدى ما يدعو إليه من شدة الانتقام، فقد اجتمع شدة في النفس تدعو إلى شدة انتقام في الفعل، وفي ذاك أعظم الزجر وأكبر الوعظ، وأَدَلُّ دليل على سعة القدرة وموقع الحكمة. ومنه قوله ﷻ: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ۝١٢﴾ (الفرقان: ١٢) ، أي تَسْتَقْبِلُهُم للإيقاع بهم استقبال مغتاظ يزْفر غيظًا عليهم.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ (الزخرف: ٤)، أم الكتاب حقيقته: أصل الكتاب، وهو أَبلغ؛ لأن

الأمَّ أجمَعُ وأظهر فيما يُرَدُّ إليه مِمَّا ينشأ عنه.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ ﴿١٥٤﴾﴾ (الأعراف: ١٥٤)، وحقيقته انتفاء الغضب، والاستعارة أبلغ لأنه انتفى انتفاء مُراصِدٍ بالعودة، فهو كالسكوت على مراصدة الكلام بِما تُوجبه الحكمة في الحال، فانتفى الغضب بالسكوت عما يكره، والمعنى الجامع بينهما الإمساك عما يكره.

وقال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾ (المدثر: ١١). ذرني هنا مستعار، وحقيقته: ذر عقابي ومن خلقت وحيدًا بترك مسألتي فيه، إلا أنه أُخْرِجَ لتفخيم الوعيد مخرج: ذرني وإياه؛ لأنه أبلغ، وإن كان اللَّه تعالى لا يجوز عليه المنع، وإنما صار أبلغ لأنه لا منزلة من العقاب إلا وما يقدر اللَّه تعالى عليه منها أعظم. وهذا أعظم ما يكون من الزجر.

وقال تعالى: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾﴾ (الرحمن: ٣١)، واللَّه ﷻ لا يشغله شأن عن شأن، ولكن هذا أبلغ في الوعيد، وحقيقته: سنعمد، إلا أنه لَمَّا كان الذي يعمِد إلى شيء قد يُقَصِّر فيه لشغله بغيره معه، وكان الفراغ له هو البالغ في الغالب مما يجري به التعارف، دلَّنا بذلك على المبالغة من الجهة التي هي أعرف عندنا؛ ليقع الزجر بالمبالغة التي هي أعرف عند العامة والخاصة موقع الحكمة.

وقال تعالى: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ (مريم: ٤). أصل الاشتعال للنار وهو في هذا الموضع أبلغ، وحقيقته كثرة شيب الرأس، إلا أن الكثرة لما كانت تتزايد تزايدًا سريعًا صارت في الانتشار والإسراع

كاشتعال النار، وله موقع في البلاغة عجيب، وذلك أنه انتشر في الرأس انتشارًا لا يُتَلافَى كاشتعال النار.

وقال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ (الأنبياء: ١٨). فالقذف والدمغ هنا مستعار وهو أبلغ، وحقيقته: بل نورد الحق على الباطل فيُذهِبُه، وإنما كانت الاستعارة أبلغ لأن في القذف دليلًا على القهر، فالحق يلقى على الباطل فيزيله على جهة القهر والاضطرار لا على جهة الشك والارتياب، ويدمغه أبلغ من يُذهِبهُ لِمَا في (يدمغه) من التأثير فيه؛ فهو أظهر في النكاية وأعلى في تأثير القوة.

وقال تعالى: ﴿عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ (الحج: ٥٥)، وعقيم ها هنا مستعار وحقيقته مُبيرٌ (أي مُهْلِكَ)، والاستعارة أبلغ لأنه قد دل على أن ذلك اليوم لا خير بعده للمعذَّبين، فقيل: يوم عقيم، أي لا ينتج خيرًا، ومعنى الهلاك فيهما إلا أن أحد الهلاكين أعظم.

وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (يس: ٣٧) نسلخ مستعار، وحقيقته: نُخرج منه النهار، والاستعارة أبلغ لأن السلخ إخراج الشيء مما لابَسَهُ وعَسُرَ انتزاعُه منه لالتحامه به، فكذلك قياس الليل.

وقال تعالى: ﴿فَأَنشَرْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًاۚ كَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ﴾ (الزخرف: ١١) النشر ها هنا مستعار، وحقيقته: أظهَرْنا به النبات والأشجار والثمار فكانت كمن أحييناه بعد إماتته، فكأنه قيل: أحيينا به بلدة ميتًا، من قولك: أنشر اللَّه الموتى فنشروا. وهذه الاستعارة أبلغ من الحقيقة لتضمُّنها من المبالغة ما ليس في كلمة "أظهرنا"، والإظهار في

الإحياء والإنبات إلا أنه في الإحياءِ أَبلغ.

وقال تعالى: ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ (الأنفال: ٧) لفظ الشوكة هنا مستعار، وهو أَبلغ، وحقيقته السلاح، فذكر الحد الذي به تقع المخافة، واعتمد على الإيماء إلى النكتة، وإذا كان السلاح يشتمل على ما له حد وما ليس له حد، فشوكة السلاح هي التي تبقى.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ (فصلت: ٥١) عريض ها هنا مستعار، وحقيقته كبير، والاستعارة فيه أبلغ لأنه أظهر بوقوع الحاسَّة عليه، وليس كذلك كل كثرة.

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ (محمد: ٤) وهذا مستعار، وحقيقته: حتى يضع أهل الحرب أثقالها وضعًا لها على جهة التفخيم لشأنها.

وقال تعالى: ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾﴾ (التكوير: ١٨)، تنفس ها هنا مستعار، وحقيقته إذا بدأ انتشاره، وتنفس أبلغ منه، ومعنى الابتداء فيهما، إلا أنَّ التنفس أبلغ لما فيه من الترويح عن النفس.

وقال تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ (النحل: ١١٢) وهذا مستعار، وحقيقته: أجاعها اللّه وأخافها، والاستعارة أبلغ، لدلالتها على استمرار ذلك بهم كاستمرار لباس الجلد وما أشبهه. وإنما قيل ذاقوه لأنه كما يجد الذائق مرارة الشيء فهم في الاستمرار كتلك الشدة في المذاقة.

وقال تعالى: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ

﴿ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة: ٢١٤) وهذا مستعار، وزلزلوا أبلغ وأشَدُّ من كل لفظ كان يعبر به عن غلظ ما نالهم وشدة انزعاجهم واضطرابهم.

وقال تعالى: ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا﴾ (البقرة: ٢٥٠) أفرغ مستعار وحقيقته: افعل بنا صبرًا، وأفرغ أبلغ منه لأن في الإفراغ اتساعًا مع بيان.

وقال ﷻ: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ (آل عمران: ١١٢) حقيقته: حصلت عليهم الذلة، والاستعارة أبلغ لِمَا فيها من الدلالة على تثبيت ما حصل عليهم من الذلة كما يثبت الشيء بالضرب؛ لأن التمكين به محسوس، والضرب مع ذلك يُنْبِئ عن الإذلال والنقص، وفي ذلك شدة الزجر لهم والتنفير من حالهم.

وقال تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ (آل عمران: ١٨٧) حقيقته: تعرضوا للغفلة عنه، والاستعارة أبلغ لما للإحالة فيه على ما قد جرت العادة بمقدار السرور به.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ (الأنعام: ٦٨) كل خوض ذمه اللّٰه تعالى في القرآن فلفظه مستعار من خوض الماء، وحقيقته: يذكرون آياتنا، والاستعارة أبلغ لإخراجه إلى ما تقع عليه المشاهدة من الملابسة، لأنه لا تظهر ملابسة المعاني لهم كما تظهر ملابسة الماء لهم.

وقال تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ (الأعراف: ٢٢). وحقيقته صيَّرهما إلى الخطيئة بغرور، والاستعارة أبلغ لإخراجه إلى ما يُحَسُّ من التدلي من علو إلى سُفل.

قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ﴾ (التوبة: ١٠٩)، وقال تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ﴾ (التوبة: ١١٠). كل هذا مستعار، وأصل البنيان إنما هو للحيطان وما أشبهها، وحقيقته اعتقادهم الذي عملوا عليه، والاستعارة أبلغ لما فيها من البيان بما يُحَسُّ ويُتَصَوَّر، وجعل البنيان ريبة وإنما هو ذو ريبة، والاستعارة أبلغ، كما تقول: هو خبث كله، وذلك أبلغ من أن يجعله ممتزجًا، لأن قوة الذم للريبة، فجاء على البلاغة لا على الحذف الذي إنما يراد به الإيجاز في العبارة فقط.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ (هود: ١٩) العوج ها هنا مستعار، وحقيقته خطأ، والاستعارة أبلغ لما فيها من البيان بالإحاطة على ما يقع عليه الإحساس من العدول عن الاستقامة بالاعوجاج.

وقال ﷺ: ﴿قَالَ لَوْ أَنَّ لِى بِكُمْ قُوَّةً أَوْ ءَاوِىٓ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ (هود: ٨٠) أصل الأركان للأشياء، ثم كثر واستعير حتى صار الأعوان أركانًا للمُعان، والحُجَج أركانًا للإسلام، وحقيقته: إلى مُعِين شديد. والاستعارة أبلغ لأن الركن يُحَسُّ، والمعين لا يُحَسُّ من حيث هو معين.

وقال تعالى: ﴿أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ (يونس: ٢٤) أصل الحصد للنبات، وحقيقته: مُهْلَكة، والاستعارة أبلغ لما فيه من الإحالة على إدراك البصر.

وقال ﷺ: ﴿الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أَنزَلْنَـٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ

﴿إِلَى ٱلنُّورِ﴾ (إبراهيم: ١) كل ما جاء في القرآن من ذكر (من الظلمات إلى النور) فهو مستعار، وحقيقته: من الجهل إلى العلم، والاستعارة أبلغ لما فيها من البيان بالإخراج إلى ما يدرك بالأبصار.

وقال تعالى: ﴿حَصِيدًا خَٰمِدِينَ﴾ (الأنبياء: ١٥) أصل الخمود للنار، وحقيقته: هالكين، والاستعارة أبلغ لأن خمود النار أقوى في الدلالة على الهلاك، على حد قولهم: طُفِئ فُلان كما يُطفأُ السراج.

وقال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾ (الشعراء: ٢٢٥)، وادٍ هنا مستعار، وكذلك الهَيمان، وهو من أحسن البيان، وحقيقته: يخلطون فيما يقولون، لأنهم ليسوا على قصد لطريق الحق، والاستعارة أبلغ لما فيها من البيان بالإخراج إلى ما يقع عليه الإدراك من تخليط الإنسان بالهيمان في كل وادٍ يَعِنُّ له فيه الذهاب.

وقال تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ (الأحزاب: ٤٦) السراج ها هنا مستعار، وحقيقته: مبينًا، والاستعارة أبلغ للإحالة على ما يظهر بالحاسة.

وقال ﷻ: ﴿قَالُواْ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا﴾ (يس: ٥٢) أصل الرقاد النوم، وحقيقته: من مهلكنا، والاستعارة أبلغ لأن النوم أظهر من الموت، والاستيقاظ أظهر من الإحياء بعد الموت، لأن الإنسان الواحد يتكرر عليه النوم واليقظة، وليس كذلك الموت والحياة.

وقال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ﴾ (الكهف: ٩٩) أصل الموج للماء، وحقيقته: تخليط بعضهم ببعض، والاستعارة أبلغ؛ لأن قوة الماء في الاختلاط أعظم.

وقال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾﴾ (الذاريات: ٤١) العقيم مستعار للريح، وحقيقته: ريح لا يأتي بها سحاب غيث، والاستعارة أبلغ لأن حال العقيم أظهر من حال الريح التي لا تأتي بمطر، لأن ما لا يقع من أجل حال منافية أوكد مما يقع من غير حال منافية وأظهر.

وقال ﷺ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ (الإسراء: ٢٩)، حقيقته: لا تمنع عطاءك كل المنع، والاستعارة أبلغ لأنه جعل منع العطاء بمنزلة غَلِّ اليد إلى العنق، وذلك مما يَحْسُن حالُ التشبيه فيه بالمنع فيهما، إلا أن حال المغلول اليد أظهر وأقوى فيما يُكْرَه.

وقال تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ﴾ (السجدة: ٢١) حقيقته: لنعذبنَّهم، والاستعارة أبلغ، لأن إحساس الذائق أقوى لأنه طالب لإدراك ما يذوقه، ولأنه جعل بدل إحساس الطعام المستلَذّ إحساس الآلام، لأن الأسبق في الذوق ذوق الطعام.

وقال تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾ (الكهف: ١١)، حقيقته: منعناهم الإحساس بآذانهم من غير صمم، والاستعارة أبلغ؛ لأنه كالضرب على الكتاب فلا يُقْرَأ، وكذلك المنع من الإحساس فلا يُحِسُّ، وإنما دل على عدم الإحساس بالضرب على الآذان دون الضرب على الأبصار، لأنه أدل على المراد من حيث كان قد يضرب على الأبصار من غير عمى فلا يبطل الإدراك رأسًا، وذلك بتغميض الأجفان، وليس كذلك منع الإسماع من غير صمم في الآذان؛ لأنه إذا ضُرِبَ عليها من غير صمم دل على عدم الإحساس من

كل جارحة يصح بها الإدراك، ولأن الأذن لما كانت طريقًا إلى الانتباه ثم ضُرِبَ عليها لم يكن هناك سبيل إليه.

وقال ﷻ: ﴿ثُمَّ نُكِسُواْ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ﴾ (الأنبياء: ٦٥) هذا استعارة، حقيقته: أطرقوا للمذلة عند لزوم الحجة، إلا أنه بولغ في العبارة بجعلهم كالواقع على رأسه للحيرة بما نزل به.

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ (الأعراف: ١٤٩) هذا مستعار وحقيقته: ندموا لما رأوا من أسباب الندم، إلا أن الاستعارة أبلغ للإحالة فيه على الإحساس لما يوجب الندم بما سقط في اليد، فكانت حاله أكشف في سوء الاختيار لما يوجب من الوبال[١].

● وأمَّا ما استشهدوا به من قول اللَّه ﷻ: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ (الكهف: ٧٧)، فهو قمة في البلاغة، ومعنى الإرادة هنا: المداناة والمشارفة، استعيرت الإرادة لذلك، كما استعير الهمُّ والعزم في نحو قول الراعي:

في مَهمَهٍ قَلِقَت بِهِ هاماتُها قَلَقَ الفُؤوسِ إِذا أَردنَ نُصُولا

وقول حسان:

إنَّ دَهْرًا يَلُفُّ شملي بِجُمْلٍ لَـزَمـانٌ يَـهُـمُّ بـالإحـسـانِ

وتقول العرب: عزم السراجُ أن يُطْفَأَ، وطلب أن يطفأ.

وإذا كان القول، والنطق، والشكاية، والصدق، والكذب،

(١) من رسالة الرماني، ضمن كتاب "ثلاث رسائل في إعجاز القرآن"، ص٨٧ - ٩٤ (بتصرف وإيجاز).

والسكوت، والتمرد، والإباء، والعزة، والطواعية، وغير ذلك قد استعيرت للجمادات ولما لا يعقل، فإن الإرادة نحو ذلك[١].

وقد اتَّفق علماء البلاغة على أنَّ المجاز أبلغ من الحقيقة، ولو سقط المجاز من القرآن لسقط منه شطر الحُسن، ولو وجب خلوّه منه لوجب خلوّه من الحذف والتوكيد، وتثنية القصص وغيرها، كيف وهو أشرف أنواع البلاغة وأعلاها؟! حتى لو قال قائل: إنه أكثر كلام العرب، لم يُبْعِد.

وأمَّا دعواهم بأنه كذب؛ لأن الجدار لا يريد، والقرية لا تُسأل، فهذا من أشنع جهالاتهم وأدلِّها على سوء نظرهم وقلة أفهامهم، فلو كان الأمر كما ذكروا لكان كل فعل ينسب إلى غير الحيوان باطلًا، وكان أكثر كلامنا فاسدًا؛ لأننا نقول: نبت البقل، وطالت الشجرة، وأينعت الثمرة، وثبت الجبل، ورخُص السِّعر.

وتقول: كان هذا الفعل منك في وقت كذا وكذا، والفعل لم يكن، وإنما كُوِّن. وهذا له أمثلة عديدة لا يستطيع المرء أن يحصيها، ولو قلنا للمُنكِر لقول اللَّه تعالى: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾: ماذا يمكنك أنت أن تقول في جدار رأيته على شَفَا الانهيار؟ أتقول: رأيت جدارًا، ثم تسكت؟ إنك لَن تجد مفرًّا من أن تقول: جدارًا يَهُمُّ أن ينقض، أو يكاد أن ينقض، أو يقارب.. وأيًّا ما تقول فسوف تجعله فاعلًا، ولا نحسبك تصل إلى هذا المعنى في شيء من لغات العجم إلا بمثل هذه الألفاظ.

---

(١) الكشاف ٢ / ٤٩٤ .

• وأما قوله ﷻ: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ۝٨٢﴾ (يوسف: ٨٢)، فَمَن ذا الذي يشك أن المراد: اسأل أهل القرية؟ فحذف المضاف (أهل) وأقيم المضاف إليه (القرية) مقامه. وفي هذا فائدتان:

أولاهما: التوكيد بعموم اللفظ، فكأنهم قالوا: اسأل كل من في القرية وما فيها لتعلم صدقنا.

ثانيهما: المجاز، ولا يُنْكَر ما للمجاز من مزايا، حتى ترى به التلميح أحسن من التصريح، فقد اسْتُخْدِمَ في مواضع كثيرة كان اللفظ الصريح فيها مُسْتَهجَنًا؛ حيث عُبِّر به عن الجِماع والاست، وعن الفرج، والبول، وكلها ألفاظ كما ترى مما يُسْتَقْبَح ذكرُه، فأيهما أفضل في التعبير عن التقاء الرجل بالمرأة: التعبير بلفظ "الجماع"، أم بلفظ "المباشرة" كما جاء في قوله ﷻ: ﴿وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ﴾ (البقرة: ١٨٧)؛ فلقد ترك اللفظ إلى ما هو أجمل منه وأيهما أجمل وأبلغ: التعبير بـ"الغائط" أم بـ"البول" في قوله ﷻ: ﴿أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ﴾ (المائدة: ٦)، وغير ذلك كثير، وتلك مزية لا يمكن إغفالها عند تعرضنا لقضية المجاز.

ولا يمكن أن يُدرَس المجازُ أيضًا بعيدًا عن القرائن؛ فهي التي تحول دون إرادة المعنى الحقيقي، وفي قوله ﷻ: ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ (الكهف: ٧٧)، أضاف الفعل إلى ما لا يصح منه على سبيل التشبيه، فالقرينة العقلية تحول دون إرادة المعنى الحقيقي؛ لأن الإرادة من صفات الحي، وإنما وُصف به تشبيهًا لميله للوقوع بإرادته.

• الزعم بأن القرآن تحدى الضعفاء فقط:

زعم بعضهم أن القرآن الكريم قد تَحَدَّى الجاهليين بقوله ﷻ: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾ (هود: ١٣).

قالوا: والتحدي لا يكون للضعيف المغلوب، بل للأقران الأكفاء.

وهذا تجاهل - وليس جهلًا - من صاحب الشبهة، فهو يعلم المواضع الأخرى التي ورد فيها التحدي بالقرآن، مثل قوله ﷻ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ (الإسراء: ٨٨)، وقوله تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ (البقرة: ٢٣ - ٢٤).

إذن فالقرآن معجزة عامة، والتحدِّي بها ليس للجاهليين وحدهم، بل للناس كافة، ومعهم الجن أيضًا، والدليل على ذلك ما يلي:

١) أنَّ القرآن لم يحدث أن بدأهم بالتحدى، بل هم الذين تحدّوه زاعمين أنه من صنع البشر، بل بلغ بهم الحال أن أخذوا يُذيعون أنهم قادرون على أن يأتوا بمثله، ومن ثَمَّ فلا فضلَ لمحمد في هذا يُخوِّل له ادِّعاءَ النبوَّة في نظرهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾ (الأنفال: ٣١).

٢) أنَّ اليهود كانوا من جانبهم يُمِدُّونهم بالأسئلة السخيفة التي يظنون أنها ستُحرِجُ محمدًا ﷺ، زاعمين لهم أنَّ وثنيتهم خيرٌ من التوحيد الذي جاء به، فكان لا بُدّ أن يَرُدّ القرآن على تحدّيهم، وإلَّا قيل: إنّ ربَّ محمَّدٍ عاجزٌ عن الردّ، ولكان هذا تسليمًا بما يقولون.

٣) أنَّ المُشركين كانوا يتَّهمون النبيّ ﷺ بأنه هو مُؤلّف القرآن، وأن قرآنه هذا ليس إلَّا شعرًا أو كهانة أو أساطير من أساطير الأولين، فكان الردّ المنطقي هو أن يقول لهم: وأنتم بشرٌ مثلي وتستطيعون أن تقولوا الشعر أو الأساطير، فهيا اجهدوا جهدكم، وأشركوا معكم في الأمر من تحبون وأروني مقدرتكم على الإتيان بمثله أو بعشر سور منه أو حتى سورة واحدة!

٤) أنَّ القرآن تحدى أرباب الفصاحة والبلاغة، وأساطين العرب وساداتهم، ومعهم الإنس والجن كافة، وليس - كما زعم أصحاب هذه الشبهة - حفنةً من الضعفاء المغلوبين!!

فانظر كيف يقلبون الأمور فيجعلون الحق باطلًا والباطل حقًّا؟!

• ادعاء أن القرآن ليس محفوظًا:

تساءل بعضهم: كيف يكون القرآن محفوظًا من اللَّه لم يتغير منذ عهد البعثة حتى الآن، ونحن نرى أنه قد لحقه النقط وعلامات التشكيل؟ ألا يُعَدُّ هذا تغييرًا؟ أو لا يتناقض مع قوله تعالى:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ (الحجر: ٩).

ونحن نردُّ التساؤل: لماذا بعث اللَّه ﷻ الرسل؟! لماذا أنزل الكتب؟

لقد كان ذلك رعاية من اللَّه لخلقه، ولطفًا بهم، وحتى يكون حسابه لهم - كي لا يتساوى المُحسن والمسيء - وجزاؤه إياهم على أفعالهم عدلًا إلهيًا خالصًا مصداقًا لقوله ﷻ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ (النساء: ١٦٥)، وقبل الرسالة المحمَّدية كانت مهمة حفظ كُتب الرسالات والشرائع موكولةً إلى أمم هذه الرسالات كجزء من التكليف لهم والاختبار لاستقامتهم في هذا التكليف، قال ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ﴾ (المائدة: ٤٤).

لكنهم فرَّطوا في القيام بتكليف الحفظ للكتب بالنسيان حينًا وبالتحريف والإخفاء حينًا آخر، قال ﷻ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ (المائدة: ١٣).

وحينما يحدث التَّحريف أو النسيان لهذه الكُتب، يبعث اللَّه ﷻ

رسولًا جديدًا بكتاب جديد.

أمَّا عندما أراد اللَّه ﷻ ختم النبوات والرسالات بنبوَّة سيدنا محمد ﷺ ورسالته، فكان لا بُدَّ لحفظ كتاب الشريعة الخاتمة من حافظ لا يجوز عليه الإهمال، ولا يتأتى منه التحريف ولا يليق به النسيان، أي كان لا بُدّ من الحفظ المعصوم الأبدي لكتاب اللَّه المُعجز الخالد.

ولذلك انتقلت مهمة حفظ الوحي الخاتم - القرآن الكريم - في الرسالة الخاتمة إلى اللَّه ﷻ الذي لا يتخلَّف حفظه أبدًا بعد أن كانت هذه المهمة موكولةً للناس قبل ذلك. فكان الوعد الإلهيُّ المؤكد في قوله ﷻ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَـٰفِظُونَ ۝٩﴾ (الحجر: ٩).

ومن ثَمَّ هيأ اللَّه لتدوين القرآن الكريم من كَتَبَةِ الوحي ما لم يتهيَّأ لكتاب سابق، وجعل جمعه وعدًا إلهيًّا وإنجازًا ربانيًّا في قوله ﷻ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝١٦ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ (القيامة: ١٦ - ١٩)؛ وذلك حتى تستمر حجة اللَّه على عباده، ويكون حسابه لهم عدلًا خالصًا، كما أن المولى ﷻ وعد بأن يورثه للذين اصطفاهم من عباده بعد أن أنزله على المصطفى في قوله ﷻ: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ۝٣١ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ۝٣٢﴾ (فاطر: ٣١ - ٣٢).

ونلفت النظر إلى أنّ من صفات القرآن: أنه كتاب عزيز، محفوظ من العبث به أو فيه، وأنه ممتنع عن الإبطال، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بأي حال من الأحوال، قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ۝٤٢﴾ (فصلت: ٤١ - ٤٢).

ومن صفات القرآن: أنه كتابٌ عليٌّ حكيم، فوق تطاول المتطاولين، بشرًا كانوا أو أزمنة ودهورًا، قال ﷻ: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٤﴾ (الزخرف: ٣ - ٤).

ومن صفات القرآن: أنه **كتابٌ مكنون** أي: مَصُون ومحفوظ عن اللعب والعبث والتحريف، قال ﷻ:

﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ۝٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ۝٧٨﴾ (الواقعة: ٧٧ - ٧٨).

ولقد صدّق التاريخ على هذا الحفظ الإلهي لهذا القرآن المجيد، ومن يقرأ تاريخ التوراة - حتى ذلك الذي كتبه علماء اليهودية - يعلم ما أصابها من تحريف بعد نزولها، وكيف أُعِيدت كتابة أسفارها على النحو الذي كتبه وصنعه "**عزرا**" وغيره من الأحبار، في صورة مليئة بالتحريف، ومن يتأمل تناقضات الأناجيل، حتى الشهيرة منها والفروق الجوهرية بينها وبين غير الشهيرة من مثل: أناجيل "مخطوطات نجع حمادى"، و"مخطوطات البحر الميت"، و"إنجيل برنابا"، يعلم ما أصاب الإنجيل بعد سنوات معدودة من بعثة المسيح عليه السلام.

الصَّادق الأمين، لم يتغير فيه حرفٌ ولا رسمٌ ولا حركةٌ ولا غُنّةٌ ولا مدّ، وقد مضى على نزوله أكثر من أربعةَ عشرَ قرنًا مرَّت فيها الأمة الإسلامية بأطوار من التراجع والانحطاط، وفقدت فيها الذاكرة الإسلامية ملايين المخطوطات التي أبادتها غزوات الطغاة، واندثرت فيها مذاهب وفلسفات. وظلّ القرآن الكريم عزيزًا منيعًا محفوظًا بحفظ اللَّه خير الحافظين، فالتاريخ - هو الآخر - قد غدا شاهدًا على هذا الحفظ الإلهي للقرآن.

أمّا النَّقْط والتَّشكيل فليس تغييرًا في المصحف والقرآن، وإنما هو من سُنّة التطور التي تلحق باللغات، ولا علينا إذا تعرّفنا على هذه السُّنة.

معلوم أن المصحف العثماني لم يكن منقوطًا، حتى يُمكن بقاء الكلمة محتملة أن تقرأ بكل ما يمكن من وجوه القراءات فيها.

ونَقْط المصاحف لم يحدث على المشهور إلَّا في عهد عبد الملك ابن مروان، الذي رأى أن رقعة الإسلام قد اتسعت، واختلط العرب بالأعاجم وكادت العُجمة تمسُّ سلامة اللغة، وبدأ اللَّبس والإشكال في قراءة المصاحف يلحق بالناس، حتى لَيَشُقَّ على الكثير منهم أن يهتدوا إلى التمييز بين حروف المصحف وكلماته وهي غير مُعْجَمَة.

هنالك رأى بثاقب النظر أن يتقدم للإنقاذ، فأمر الحجَّاج بن يوسف الثقفي أن يُعْنى بهذا الأمر الجَلَل، وندب الحجاجُ رجلين يعالجان هذا المُشْكِل هما: نصر بن عاصم الليثي، ويحيى بن يعمر العدواني، وكلاهما كفءٌ قديرٌ لِمَا نُدب له، إذ جمعا بين العلم والعمل، والصلاح والورع، والخبرة بأصول اللغة ووجوه القراءات، وقد

اشتركا في التلمذة والأخذ من أبي الأسود الدُّؤلى.

ويرحم اللَّه هذين الشيخين، فقد نجحا في هذه المحاولة، وأعجما المصحف الشريف لأول مرة، ونقطا جميع حروفه المتشابهة، والتزما ألاّ تزيد النُّقَط في أيِّ حرف على ثلاث. وشاع ذلك في الناس بعدُ، فكان له أثره العظيم في إزالة الإشكال واللبس عن المصحف الشريف.

أما التشكيلُ: فهو وضع علامات للضَّم والكسر والفتح والتسكين.

والمتفَق عليه بين المؤرخين أن العرب لم يكونوا على علم بشكل الحروف والكلمات؛ وذلك لأن سلامة لغتهم وصفاء سليقتهم كانت تُغنيهم عن الشَّكل.

ولكن حين دخلت الإسلامَ أممٌ جديدة منهم العجم الذين لا يعرفون العربية، بدأت العُجمة تحيف على لغة القرآن، بل قيل: إنَّ أبا الأسود الدُّؤلي سمع قارئًا يقرأ قوله ﷻ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ (التوبة: ٣)، فقرأها بجرّ اللام من كلمة **"رسوله"**، فأفزع هذا اللَّحنُ الشَّنيع أبا الأسود، وقال: عزّ وجه اللَّه أن يبرأ من رسوله! ثم ذهب إلى زِيَادٍ والِي البصرة وقال له: قد أجبتُك إلى ما سألت. وكان زياد قد سأله أن يجعل للناس علامات يعرفون بها كتاب اللَّه، فتباطأ في الجواب حتى راعه هذا الحادث. وانتهى به اجتهاده إلى أن جعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف، وجعل علامة الكسرة نقطة أسفله، وجعل علامة الضمة نقطة بين أجزاء الحرف، وجعل علامة السكون نقطتين، وطفق الناس ينهجون منهجه، ثم امتدَّ الزمان بهم فبدءوا يزيدون ويبتكرون، حتى جعلوا للحرف

المشدَّد علامة كالقوس. إلى غير ذلك من علامات التشكيل.

وبعد هذا العرض الذي رأيناه، وجدنا أنَّ البرهان العقليّ المُتعلق بختم الرسالة الربَّانية وختم الوحي يجعل حفظ القرآن لإقامة الحجة ضرورةً عقليةً، وما حدث من نَقْطٍ وتشكيل ما كان إلَّا سنَّةَ تطوُّر للغة فرضتها الظروف على العكس مما أرادوا وصار إحدى الطرق التي حفظ اللَّه بها كتابه الحكيم.

وإذا كان النقط والتشكيل وسيلة إيضاح؛ فإن ذلك أَدْعَى إلى حفظ القرآن، ولكن العمدة في حفظ كتاب اللَّه التلقِّي بالمشافهة، ولا يزال قُرَّاء القرآن الكريم يتلقونه عن المشايخ لا من المصحف، وما زال كتاب اللَّه ينتقل من جيل إلى جيل عن طريق التلقي الشَّفَهِيِّ، ولا يقال لأحد إنه حافظ للقرآن ما لم يأخذه عن شيخ يوثق به في هذا العلم[١].

إنَّ القرآن - وقد ثبت تاريخيًّا - أنه أصدق وأدق وثيقة حُفِظَت على التاريخ، وتظاهرت جميع صور الحفظ على الإمساك بها وصيانتها: من كتابة في الصحف، وحفظ في الصدور، وتلاوة دائبة ليلًا ونهارًا في الصلاة والتعبد به، ومراجعة لآياته في معرفة أحكام الشريعة، إلى نظر أهل الكتابِ والكفارِ فيه للوقوع على سقطة والعثور على عثرة، إن القرآن ـ وهذا شأنه ـ يشهد شهادة قاطعة مثبتة في آيات متعددة منه ومتفرقة فيه، بالتحدِّي، ثم بالعجز عن القيام لهذا التحدى. هذه حقيقة لا يجادل فيها أحد، ولا ينكرها أحد من خصوم الإسلام، بل ومن أشدِّهم عداوةً له؛ إذْ كانت أكبر من أن

---

(١) انظر: البرهان ١/ ٢٩٣، مناهل العرفان ١/ ٤١٢ .

تُنْكَر، وأظهر من أن تَخفَى أو يُشَوَّش عليها بجدل أو سفسطة![(١)].

• ثم زعم المشكِّكون ـ على النقيض من الشبهة السابقة ـ أن خُلُوَّ المصحف من النقط والتشكيل هو سبب اختلاف القراءات القرآنية.

إن هذه الفِرْية التي تزعم أن القراءات القرآنية نتجت عن خصوصية الخط العربي، مرجعها إلى المستشرق المجري "جولدتسيهر"، وخلاصة دعواه ـ التي تابعه عليها كثيرون ـ أن خُلُوَّ رسم المصحف من النقط والتشكيل أدَّى إلى أن يُقْرَأ القرآن بطرائق مختلفة، وضرب لذلك أمثلة بعدد من الآيات وما فيها من قراءات، نحو قوله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ (الأعراف: ٥٧).

كلمة ﴿بُشْرًا﴾ في الآية فيها ثماني قراءات:

بُشْرًا - بُشُرًا - بَشْرًا - بُشْرَى، نُشْرًا - نُشُرًا - نَشْرًا - نَشَرًا[(٢)].

وما ذهب إليه "جولدتسيهر" والذين اتَّبعوه على هذه الدعوى، خطأ فاحش يكفي لدحضه ما يلي:

• أن تَعَلُّم القرآن في عهد النبي ﷺ ـ وحتى يومنا هذا ـ يقوم على التلقِّي مشافهةً، وأن كتابة القرآن كانت محدودة في نطاق ضيِّق من الصحابة هم كَتَبَةُ الوحي، ولَمَّا جُمِعَ القرآن في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه لم يُكْتَفَ بما هو مكتوب، بل جُمِعَ القرآن من صدور

---

(١) إعجاز القرآن، عبد الكريم الخطيب، ص٢٠٣.

(٢) انظر: الكشاف ٢/ ٨٣ ـ ٨٤، البحر المحيط ٤/ ٣١٦، معجم القراءات، د. عبد اللطيف الخطيب ٣/ ٧٦.

الحُفَّاظ؛ وقد اشتهر عن العلماء قولهم: لا تأخذ القرآن عن مُصْحَفِيّ، ولا تأخذ العلم عن صُحُفِيّ. ومعنى ذلك أن المشافهة كانت هي الأساس في تلقِّي القرآن وتَعَلُّم سائر العلوم، ولا تزال هذه القاعدة هي المعمول بها في حفظ القرآن إلى يومنا هذا.

● أن القراءات المختلفة ليست حادثة، بل هي سُنَّة تلقاها المسلمون عن النبي ﷺ، وكلُّها تخرج من مشكاة الأحرف السبعة، فقد ثبت في صحيحي البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي اللَّه عنهما أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "أَقْرَأَنِي جِبْرِيلُ عَلَى حَرْفٍ، فَلَمْ أَزَلْ أَسْتَزِيدُهُ حَتَّى انْتَهَى إِلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ"(١).

وجاء عن عمر بن الخطاب ﷺ أنه قال: " سَمِعْتُ هِشَامَ بنَ حَكِيمِ بنِ حِزَامٍ يَقْرَأُ سُورَةَ الْفُرْقَانِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَاسْتَمَعْتُ لِقِرَاءَتِهِ فَإِذَا هُوَ يَقْرَأُ عَلَى حُرُوفٍ كَثِيرَةٍ لَمْ يُقْرِئْنِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَكِدْتُ أُسَاوِرُهُ فِي الصَّلاةِ، فَتَصَبَّرْتُ حَتَّى سَلَّمَ، فَلَبَّبْتُهُ بِرِدَائِهِ فَقُلْتُ: مَنْ أَقْرَأَكَ هَذِهِ السُّورَةَ الَّتِي سَمِعْتُكَ تَقْرَأُ؟ قَالَ: أَقْرَأَنِيهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ. فَقُلْتُ: كَذَبْتَ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَقْرَأَنِيهَا عَلَى غَيْرِ مَا قَرَأْتَ. فَانْطَلَقْتُ بِهِ أَقُودُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقُلْتُ: إِنِّي سَمِعْتُ هَذَا يَقْرَأُ بِسُورَةِ الْفُرْقَانِ عَلَى حُرُوفٍ لَمْ تُقْرِئْنِيهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَرْسِلْهُ. اقْرَأْ يَا هِشَامُ. فَقَرَأَ عَلَيْهِ الْقِرَاءَةَ الَّتِي سَمِعْتُهُ يَقْرَأُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ. ثُمَّ قَالَ: اقْرَأْ يَا عُمَرُ.

---

(١) فتح الباري: ٢٢٤١، ٢٩٨٠، ٤٦٠٧، ٤٦٠٨، ٤٦٥٣، مسلم بشرح النووي: ١٣٥٤، ١٣٥٥.

فَقَرَأْتُ الْقِرَاءَةَ الَّتِي أَقْرَأَنِي. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ، إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ"[١].

وتعقيبه ﷺ على قراءة هشام بقوله: " كَذَلِكَ أُنْزِلَتْ "، وعلى قراءة عمر أيضًا بقوله ﷺ: " كَذَلِكَ أُنزِلَتْ "، دليل قاطع على أن القراءات القرآنية وحي من اللَّه ﷻ، وليس مَرَدُّها إلى استحسان من البشر أو تسلُّط منهم، فلا يُمكن للنبي ﷺ أن يُبدِّل شيئًا في القرآن، قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾﴾ (يونس: ١٥).

• أنه لَمَّا أرسل عثمان رضي الله عنه نسخًا من المصحف الإمام إلى البلاد المختلفة، كان أهل كل بلد قد ثبتوا على ما تلقَّوه من قراءات عن الصحابة رضي الله عنهم، وتركوا القراءات المخالفة لِمَا تعلَّموا، ولو كان خُلُوُّ رسم المصحف العثماني من النقط والتشكيل هو سبب نشأة القراءات - كما يدَّعون - لَمَا وجدنا قراءات خارجة عن رسم المصحف، لكنَّ الواقع أن هناك قراءات قرأ بها بعض الصحابة تخالف رسم المصحف، بَيْدَ أن الإجماع على المصحف العثماني صَيَّر تلك الوجوه كالمنسوخة، وما فعله عثمان رضي الله عنه لم يكن من عند نفسه، وإنَّما وافقه عليه زهاء اثني عشر ألفًا من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، وصارت القراءة بِمَا يخالف ذلك بدعة وخطأ عند جميع العلماء حتى إن صحت ورويت كما يقول صاحب "الإبانة".

(١) المواضع السابقة من الصحيحين.

ومن ثَمَّ وضع العلماء شروطًا للقراءة الصحيحة، وهي:

- أن يصح سندها للنبي ﷺ.
- أن توافق الرسم العثماني.
- أن توافق العربية ولو بوجهٍ.

إذن فرسم المصحف لم يكن سببًا في وجود القراءات؛ بل - على النقيض - كان رسم المصحف وسيلة لحفظ الاختلاف الموجود أصلًا؛ لأن القراءات المتواترة - كما أوضحنا - جميعها سُنَّة مُتَّبعة، وليست بدعة مخترعة، والرسم لا يُنْشئ القراءة بل يُجَسِّدها.

وقد استقرَّ هذا المبدأ لدى القُرَّاء ونَصَّ عليه العلماء كثيرًا، ومن ذلك ما أكَّده ابن الأنباري وهو يتحدث عن القراءات والوجوه الجائزة في اللغة العربية، حيث تردَّد كثيرًا قوله: ومثل هذا **يجوز** في العربية، **ولا يجوز** لأحد أن يقرأ به؛ لأنه لا إمام له[(١)].

ومثل ذلك قول الزجاج خلال مناقشته لقراءة شاذة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ ٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾﴾ (البقرة: ١٦١)، حيث قرأ الحسن: (أجمعون)، قال الزجاج: وهذا جيِّد في العربية، إلَّا أنني أكرهه؛ لأن القراءة إنما ينبغي أن تُلْزَمَ فيها السُّنة[(٢)].

وكثير من علماء اللغة وعلوم القرآن نَصُّوا على هذا المبدأ: أن القراءة رواية لا قياس، والقراءة إنما تُؤخذ بالتلقي مشافهة.

---

(١) إيضاح الوقف والابتداء، ابن الأنباري ١/ ٣٢١ .

(٢) إعراب القرآن ومعانيه، الزجاج ١/ ٤٦٥ .

ومكمن الخطأ الذي وقع فيه "جولدتسيهر" ومن ذهب مذهبه، هو افتراضهم أن القراءات إنما اختلفت باختلاف القراء، والحق أن القراءات المتواترة كلها توقيفيَّة، أي مأخوذة عن النبي ﷺ كما تلقَّاها عن جبريل عليه ﷺ عن رب العزة ﷻ[(١)].

• كما أن خُلُوَّ المصحف من النقط والتشكيل كانت له فائدة عظيمة، وهي التيسير على عباد اللَّه؛ حيث استطاع كلٌّ أن يقرأ بلغته، فهذا يفتح تاء المضارعة وذاك يكسرها، وهذا يُميل وذاك لا يُميل؛ إذ لو كُلِّف كلٌّ إنسان أن يقرأ بغير لغته لكان في هذا تكليفٌ بِمَا لا يُستَطاع[(٢)].

كلمة أخيرة:

والقضية كما أوردها صاحب هذه الشبهة مقلوبة؛ فليس خُلُوُّ المصحف العثماني من النقط والإعجام هو سبب اختلاف القراءات، بل كان خُلُوُّ المصحف من النقط والإعجام لاستيعاب القراءات كُلِّها، فمثلًا قول اللَّه ﷻ:

(١) رسم المصحف: دراسة لغوية تاريخية، غانم قَدّوري الحمد، اللجنة الوطنية للاحتفال بمطابع القرن الخامس عشر الهجري: بغداد، ص٧١٧ - ٧٢٤ (بتصرف وإيجاز)، وانظر: تاريخ القرآن، د. عبد الصبور شاهين، ص٧، القراءات القرآنية ص٢١٠، د. عبد الصبور شاهين، رسم المصحف والاحتجاج به في القراءات، د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي، وقد كتب الدكتور عبد الفتاح كتابه هذا أساسًا لمناقشة "جولدتسيهر" والرد عليه، وكذا كتب الشيخ/ عبد الفتاح القاضي كتابه "القراءات في نظر المستشرقين والملحدين" لهذا الغرض [انظر هوامش المرجع السابق ص٧١٩ - ٧٢٠].

(٢) انظر: مناهل العرفان ١/ ٢٦٠ - ٢٦٥.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ﴾ (الأعراف: ٥٧)، كُتِبت كلمة (بشرا) بدون تشكيل ولا نقط لكي تستوعب القراءات الثماني المذكورة، ولو كتبت منقوطة ومُشَكَّلةً لَمَا استوعبت هذه القراءات جميعًا.

وإذن فالنقط والتشكيل وغير ذلك من وجوه الضبط الكتابي ليس إلا وسيلة مساعدة في هذه المهمة العظمى، ألا وهي حفظ القرآن الكريم، كما أن ذلك ينطبق على كل الوسائل التكنولوجية الأخرى، كالتسجيلات وأسطوانات الكمبيوتر... إلخ.

● **قراءات القرآن وأثرها في المعنى:**

زعم بعضهم أن اختلاف اللهجات في القراءات يُغَيِّر المعنى ويتناقض مع ما في اللوح المحفوظ، وأن ذلك يتناقض مع (**تأكيد الله**) سبحانه وتعالى على عدم وجود اختلاف في القرآن.

وللرد على هذه الشبهة نبدأ ببيان مفهوم القراءات القرآنية:

القراءات القرآنية هي الوجوه المختلفة في قراءة القرآن الكريم، وكيفية أداء كلمات القرآن واختلافها في الحروف، والألفاظ، والتخفيف والتشديد وغير ذلك، مع إسناد هذه الوجوه إسنادًا متواترًا ثقة عن ثقة إلى النبي ﷺ[١].

● **حدود اختلاف القراءات:**

الثابت في السنة أن الرسول ﷺ قرأ القرآن على سبعة أحرف (أي سبعة أوجه)، وهذه الأحرف السبعة ثبتت بالتواتر، وبإجماع الصحابة

(١) انظر: البرهان ١ / ٣١٨، مناهل العرفان ١ / ٤١٢.

والتابعين ﷺ، وقد تضمنها مصحف عثمان ﷺ ولم يزيدوا فيها شيئًا ولم يحذفوا شيئًا إلا ما لم يثبت بالتواتر، والاختلافات بين هذه الأحرف هينة يسيرة، تختلف معانيها تارةً، وألفاظها تارة أخرى، ولكن هذه الاختلافات لا تبلغ حد التنافي أو التعارض[١].

والقراءات العشر المنقولة بالتواتر كلها حجة، وكلها مأخوذة بالتلقي مشافهة إمامًا عن إمام وثقة عن ثقة حتى يبلغ السند إلى سيدنا رسول اللَّه ﷺ.

وقد حصر ابن الجزري أوجه الاختلاف بين القراءات فيما يلي:

١) اختلاف في اللفظ لا المعنى: كما في لفظ (الصراط)؛ حيث تُقْرأ: "الصراط" بصاد صريحة، أو "السراط" بسين صريحة، "الزراط" بزاي خالصة، أو بين الزاي والصاد[٢].

٢) اختلاف في اللفظ والمعنى مع جواز اجتماعهما في شيء واحد: كما في قول اللَّه تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ (الفاتحة: ٤) قرئ: مَالِك، مَلِك؛ لأن اللَّه مالك يوم الدين ومَلِكُه، وقوله تعالى: ﴿وَٱنظُرۡ إِلَى ٱلۡعِظَامِ كَيۡفَ نُنشِزُهَا﴾ (البقرة: ٢٥٩) بالزاي، وقرئ: (نُنْشِرُها) بالراء، والمعنى واحد؛ لأن (ننشزها) بالزاي معناه: نرفع بعضها إلى بعض حتى تلتئم، و(ننشرها) بالراء يعني: نُحْيِيها، فَضَمَّن اللَّهُ ﷻ المعنيين في القراءتين.

٣) اختلاف في اللفظ والمعنى مع امتناع جواز اجتماعهما في

---

(١) البرهان ١ / ٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٢) انظر أوجه قراءة الكلمة في: الكشاف ١/ ٦٨، البحر المحيط ١/ ٢٥ .

شيء واحد، لكن يتفقان من وجه آخر لا يقتضي التضاد، نحو قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مَكۡرُهُمۡ لِتَزُولَ مِنۡهُ ٱلۡجِبَالُ﴾ (إبراهيم: ٤٦) قرئ بكسر اللام الأولى وفتح الأخيرة (لِتزولَ)، وقرئ بفتح الأولى وضم الأخيرة (لَتزولُ). فوجه قراءة (لِتزولَ) أن تكون (إنْ) نافية، والمعنى: ما كان مكرهم وإن تعاظم وتفاقم لِيَزُولَ منه أمر محمد ﷺ ودين الإسلام. ووجه قراءة (لَتَزُولُ) أن تكون (إنْ) مُخفَّفَة من الثقيلة، والمعنى: وإنَّ مكرَهم كاملُ الشدَّة تُقْتَلَعُ بسببه الجبال الراسيات من مواضعها.

وعلى القراءة الأولى تكون الجبال مجازًا، وعلى الثانية تكون الجبال حقيقة، ولكن هذا الاختلاف (لفظًا ومعنى) - كما رأينا - لم يغير المعنى تغييرًا جوهريًّا يُفْضِي إلى التناقض والتعارض؛ إذ المعنيان المذكوران يجمعهما أنهم مكروا مكرًا شديدًا، ولكن هذا المكر لا يبلغ حد القضاء على الدين وإزالته.

وهكذا لا نجد في شيء من قراءات القرآن تناقضًا؛ ولا قراءة تنفي أخرى[١].

● الحكمة في تعدد القراءات:

لما كانت رسالة النبي ﷺ للناس كافة؛ فقد اقتضت حكمة اللَّه ﷻ التخفيف والتيسير والتوسعة على الأمة؛ وذلك لأنها مؤلفة من قبائل شتى موزعة على أرجاء جزيرة العرب، وبعضهم لا يتقن لسان قريش، وقد يَعْسُر على الواحد منهم الانتقال من لُغَتِهِ إلى غيرها، أو

من حرف إلى آخر، ولو كُلِّفوا العدول عن لغتهم لكان من التكليف بما لا يُسْتَطاع[١]؛ فكان من تيسير اللَّه تعالى أن أمر نبيه ﷺ بأن يُقْرِئ كل أناسٍ بلغتهم وما جرت عليه عادتهم، فالهُذَلِيُّ يقرأ "عَتَّى حين" يريد: حَتَّى، والأسديُّ يقرأ: تِعلمون، وتِعْلَم (**بكسر حرف المضارعة**)، والتميمي يهمز والقرشي لا يهمز[٢]. إلى آخر هذه الاختلافات اليسيرة التي ليس من بينها ما يؤدي إلى التناقض والتنافي.

وإذن فالقراءات المتعددة مآلها واحد؛ لأنها لا تفضي إلى التناقض، ومصدرها واحد وهو النقل المتواتر - تَلَقِّيا ومُشَافهة - عن رسول اللَّه ﷺ، ولها حكمة هي من جوهر الإسلام نفسه، وهي التيسير والتوسعة، قال اللَّه ﷻ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ (القمر: ١٧)، وقد ذهب المشككون إلى أن اختلاف القراءات يغير المعنى بما يتناقض مع ما في اللوح المحفوظ.

فأمَّا عن تغيير المعنى فتقدم بسطه. وأما عن تناقض القراءات مع ما في اللوح المحفوظ فهذا أمر عجيب، ودعوى سخيفة، ومَنْ أَطْلَعَكُمْ على اللوح المحفوظ؟! وفي السُّنَّة المطهرة من الأحاديث الصحيحة ما ينسف هذه الدعوى نسفًا، ومن ذلك ما رواه الشيخان عن عبد اللَّه بن عباس - رضي اللَّه عنهما - أن رسول اللَّه ﷺ قال: "أقرأني جبريل ؑ على حرف واحد فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى إلى سبعة أحرف"[٣].

---

(١) النشر في القراءت العشر ١/ ٢٢، تاريخ القرآن، د. عبد الصبور شاهين، ص٤٢.

(٢) تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، ص ٣٥.

(٣) البخاري، جـ٦، ص ١٠٠، مسلم جـ٢، ص ٢٠٢.

وإذن فالقراءات المتواترة كلها مأخوذة من مشكاة واحدة هي الأحرف السبعة التي تلقاها النبي ﷺ من جبريل، ونزل بها جبريل من عند الله ﷻ.

وأمَّا ما زعموه أن القراءات المتعددة تناقض **(تأكيد الله)** سبحانه وتعالى على عدم وجود اختلاف في القرآن، فهم يعنون قول الله ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ (النساء: ٨٢).

والمراد بالاختلاف في الآية الكريمة: لوجدوا الكثير منه مختلفًا متناقضًا قد تفاوت نظمه وبلاغته ومعانيه، فكان بعضه بالغًا حَدَّ الإعجاز وبعضه قاصرًا عنه يمكن معارضته، وبعضه إخبارًا بغيب قد صَدَّقه الواقع، وبعضه جاء مخالفًا للواقع، وبعضه دالاًّ على معنى صحيح، وبعضه دالاًّ على معنى فاسد غير ملتئم، فلمَّا تجاوب القرآن كلُّه بلاغةً معجزةً، فاقت قوى البلغاء، وتناصرت آياته صحة معانٍ وصدق إخبارٍ، عُلِمَ أنه ليس إلا من عند قادر على ما لا يقدر عليه غيره، عليم بما لا يعلمه أحد سواه[١].

وإذن فالاختلاف الذي نفاه الله تعالى عن القرآن هو الاضطراب والخلل والفساد. وقد بينَّا فيما سبق أن القراءات لا تؤدي إلى شيء من هذا، بل إن جميع القراءات يُعَضِّد بعضها بعضًا ويفسر بعضها ما أشكل في بعض، إلى غير ذلك من الفوائد التي شرحها بالتفصيل علماء القرآن والقراءات[٢].

---

(١) الكشاف ١ / ٥٤٦ - ٥٤٧ .

(٢) راجع: النشر ١ / ٢٢، مناهل العرفان ١ / ١٤٢ . ١٤٩، القراءات وأثرها =

● **اختلاف القراءات هل يؤدي إلى اختلاف الأحكام الشرعية؟:**

من الشبهات التي أثارها المشككون حول تنوع القراءات القرآنية: ما زعموه من أن اختلاف القراءات يعوق إصدار الأحكام التشريعية، ومن العجيب أنهم ساقوا على دعواهم هذه ما ورد من قراءات في قوله ﷻ: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ (القارعة: ٥)، وقُرِئ: (كالصوف). وقوله ﷻ: ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ (سبأ: ١٩)، حيث قُرئت كلمة (باعد) بصيغة الخطاب (باعِدْ) وقرئت بصيغة الماضي (باعَدَ)! وقالوا: إنه يصعب على الإنسان أن يصدر حكمًا صحيحًا لعدم تأكُّده إلى أي قراءة يستند!.

وقد بسطنا القول بالتفصيل في القراءات، وأنه لا موجب لعدم التأكُّد، بل كل القراءات المتواترة (القراءات العشر) صحيحة، وكلها من عند اللَّه، فبأيٍّ منها قُرِئ كان ذلك مرجعًا صحيحًا لاستقاء الأحكام، كما بينَّا أن اختلاف القراءات لا يصل إلى حدِّ التعارض أو التناقض.

أمَّا عن الآية رقم (٥) من سورة القارعة فقد قرأ ابن مسعود:

(وتكون الجبال كالصوف المنفوش) بدلًا من (كالعهن) وهي قراءة شاذة؛ لمخالفتها رسم المصحف[1].

ومع ذلك فإنه لاتعارض ولا تنافي بين القراءة المشهورة (كالعهن) والقراءة الشاذة (كالصوف)؛ لأن العهن بإجماع المفسرين

= في علوم العربية، د. محمد سالم محيسن، ١ / ٣٧ - ٣٩.

(١) النشر ٢ / ٣٣٥

هو الصوف ذو الألوان المختلفة[١].

وأمَّا قوله تعالى: ﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ بصيغة الدعاء فهي القراءة المشهورة، وقرأ يعقوب برفع الباء من (ربُّنا)، وبصيغة الماضي (باعَدَ)[٢]، والمعنى على قراءة جمهور السبعة (بصيغة الطلب): أنُهم طلبوا وتمنَّوا أن يجعل اللَّه بينهم وبين الشام مفاوز ليركبوا الرواحل فيها . وعلى قراءة يعقوب (بصيغة الماضي): أنهم يشتكون ممَّا حلَّ بهم من بُعْدِ الأسفار[٣].

وعلى الرغم من وجود اختلاف في المعنى على القراءتين المذكورتين، فإنه اختلاف لا يصل إلى حد التناقص؛ إذ إن القراءتين تجتمعان في وصف هؤلاء القوم بالتنعم والرفاهية، فلمَّا كانوا منعَّمين مترفين بطروا النعمة وملُّوا العافية فطلبوا الكدَّ والتعب (هذا على القراءة بصيغة الطلب).

ولأنهم مترفون منعَّمون فقد رأوا هذه الأسفار بعيدة، مع أنهم كانوا آمنين من الخوف والجوع والعطش وغير ذلك، فلِفَرْط تنعُّمهم رأوا هذه الأسفار شاقةً واشتكوا ربَّهم فقالوا :(ربُّنا باعَدَ)[٤].

كما أنه ليس في الآية حكم شرعي حتى يقال إن تعدد القراءات يؤدِّي إلى تعدُّد الأحكام.

---

(١) انظر تفسير الآية في: تفسير الطبري، الكشاف، الفخر الرازي، القرطبي، البحر المحيط، روح المعاني، التحرير والتنوير .

(٢) النشر ٢/ ٣٥٠ .

(٣) البحر المحيط ٧/ ٢٧٢ . ٢٧٣ .

(٤) انظر: الكشاف ٣/ ٢٨٦

• القرآن الكريم لا يخضع لقواعد اللغة:

هكذا ساق المشككون تلك الحقيقة في صورة شبهة، قالوا: إن قواعد اللغة من نتاج المخلوق، على حين أن القرآن كلام الخالق؛ وإذن فالقرآن لا يخضع لقواعد اللغة .

وللرد عليهم نقول:

١) هذه كلمة حقٌّ أُرِيدَ بها باطِلٌ، فالقرآن لا يخضع للقواعد اللغوية؛ لأنه سابق على هذه القواعد، وينسحب هذا على كلام العرب قبل نشأة العلوم العربية، فلقد كان العرب الأوئل يتكلمون بالسليقة دون أن تكون هناك قواعد في صورة علم منضبط يحتكمون إليه، ثم جاءت مرحلة أخرى استخلص فيها العلماء قواعد اللغة من أهلها، ومحمد ﷺ إن لم يكن رسولًا - كما يزعم المبطلون - فهو عربيٌّ فصيح يُحْتَجُّ بكلامه، فمن ينسب القرآن إليه يُقِرُّ ضمنًا بأن القرآن من كلام العرب الذي تؤخذ منه القواعد، فهو على أسوأ الاحتمالات ليس أقل من خُطَبِ قس بن ساعدة وشعر امرئ القيس .

٢) لو كان في القرآن خطا لغويٌّ واحد - كما يزعم المبطلون - فليخبرونا لماذا سكت عنه الكفار المنكرون لنبوَّة محمد ﷺ كل هذه الفترة وهم أهل فصاحة وبيان، خاصةً وأن اللَّه ﷻ قد تحداهم به، أم أن هؤلاء الْمُدَّعين أعلم من العرب بلغتهم؟!

والحقيقة هي أنه لو وُجد خطأٌ لغويٌّ في القرآن لَمَلأَ الكفار الدنيا صياحًا وسخريةً، لكنَّهم لم يجدوا في القرآن ثغرة ولا شبهة خطأ لغوي أو قصور بلاغي، فسكتوا عن هذا وراحوا يرمون النبي ﷺ مرة

بأنه شاعر، وأخرى بأنه ساحر، وثالثة بأنه كاهن. فهل يزعم زاعم بعد ذلك أن القرآن قد احتوى على أخطاء لغوية؟!

٣) كان القرآن الكريم مصدرًا أصيلًا من مصادر السماع التي بنى النحاة قواعدهم عليها، وقد كان وجود القرآن سابقًا لعلم النحو، فعلم النحو يُقَنِّن للظواهر اللغوية الموجودة في القرآن الكريم ويضعها في اعتباره عند استخلاص القواعد، ومن ثَمَّ فإن من العبث أن نعود ونُحَكِّم هذه القواعد في الظواهر اللغوية الموجودة في القرآن الكريم، بل العكس هو الصحيح، القرآن هو الحاكم، والقواعد اللغوية نشأت في رحاب القرآن الكريم والحديث الشريف.

٤) بعض هذه الافتراءات تنتج عن الجهل بقواعد اللغة وأقوال النحاة وما ذكره المفسرون من تخريجات للآيات التي يزعمون وجود خطأ لغوي فيها، فلكل موضع من هذه المواضع التي يزعمون وجود خطأ بها أكثر من وجه تُحْمَل عليه وتتفق به مع قواعد اللغة العربية[١].

● فائدة وقوع المتشابه في القرآن الكريم:

تساءل المشككون:

ما فائدة المتشابه في القرآن؟!

واستشهدوا لذلك بقول الله ﷻ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي

---

(١) رسم المصحف: دراسة لغوية وتاريخية، غانم قدوري الحمد، ص٦٤٩ - ٦٥٦ (باختصار).

ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ (آل عمران: ٧).

أولًا: نوضِّح لهم أن المتشابه لا يُقْصَد به أنه غيرُ مفهوم المعنى، وإنما للعلماء أقوال كثيرة في المقصود بالمحكَم والمتشابه، ومن هذه الأقوال:

- المحكم: هو الناسخ، والمتشابه: هو المنسوخ.

- المحكَم: ما بَيّنَ اللَّه حلالَه وحرامَه، والمُتشابه: ما اشتبهت معانيه.

- المحكم: ما لا يحتمل إلَّا وجهًا واحدًا، والمتشابه: ما احتمل من التأويل أوجهًا.

- المحكم: الفرائض والوعد والوعيد، والمتشابه: القصص والأمثال.

- المحكم: ما تكرَّر من القصص بلفظ واحدٍ، والمتشابه ما تكرَّر منها مع اختلاف الألفاظ .

- المحكم: ما اتَّفق فيه العلماء، والمتشابه: ما اختلفوا فيه.

- المحكم: ما فهم العلماء تفسيره، والمتشابه: ما استأثر اللَّه بعلمه: كقيام الساعة، وطلوع الشمس من مغربها، وخروج عيسى عليه السلام، وكيفية الاستواء على العرش، وأمر الروح، وما شابه ذلك .

والملاحظ مما سبق أنَّ كُلَّ التعريفات ما عدا الأخير تَدُلُّ على أن المتشابه ليس المقصود به أنه غير مفهوم المعنى، وإنَّما معناه: ما يحتاج إلى علم وإعمال ذهن للوصول إلى معناه، وحتى على القول الأخير فإننا نرى أن وقت الساعة، وأمر الروح، وغير ذلك من أمور

لا يضرُّ الجهل بها ، ولا ينفع العلم بها ، بل قد يكون في الجهل بها فائدة، كعدم العلم بوقت الساعة؛ حتى يظَلَّ الناس في استعداد دائم لها.

ثانيًا: اختلف العلماء في إعراب "الراسخون" ، فمنهم من ذهب إلى أنها معطوفة على لفظ الجلالة، وجملة "يقولون" مُستْأنَفة لبيان حالهم وأنهم يعلمون المتشابه كما يعلمه اللَّه ﷻ؛ لأن الذي لا يعلم إلَّا ما يعلمه الناس لا يكون راسخًا في العلم؛ ولأن الرسول ﷺ دعا لابن عباس ـ رضي اللَّه عنهما ـ قائلًا : "اللَّهم فقِّهه في الدين وعلِّمه التأويل" ، وكان عمر بن الخطاب ؓ إذا وقع مُشْكِلٌ في كتاب اللَّه يستدعيه ويقول له: "غُصْ غوّاص" ، ويَجْمَع أبناء المهاجرين والأنصار ويأمرهم بالنظر في معاني الكتاب المجيد.

وذهب فريقٌ آخر إلى أن الكلام تَمَّ على قوله ﷻ : ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ . وقوله ﷻ : ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا﴾ جملة من مبتدأ وخبر؛ لأنه مدح الراسخين في العلم بأنهم يقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ ، ولو كانوا يعلمونه لَمَا كان في قولهم هذا مزيد فضل لهم؛ لأنَّ من عَلِمَ شيئًا لزمه الإيمان به، كما أنَّ قولهم هذا يقتضي أنهم آمنوا بما عرفوا وبما لم يعرفوا.

وعلى هذا القول يكون الراسخون في العلم قد علموا بالدليل العقلي أن المراد غير الظاهر، ففوَّضوا تعيين المراد إلى علمه ﷻ، ولم يَحْمِلْهم عدم التعيين على ترك الإيمان.

ومنهم من وفَّق بين المذهبين، وذكر أن المتشابه نوعان:

- **أحدهما**: ما لا يعلمه إلَّا اللَّه ﷻ كأمر الروح ووقت قيام

الساعة، وما شابَهَ ذلك.

- **ثانيهما**: يعلمه اللَّه ويعلمه الراسخون في العلم كالذي يَحْتَمِلُ وجوهًا من العربية فيُتَأَوَّل على الاستقامة، ولا يُسَمَّى راسخًا إلَّا من يعلم من هذا النوع كثيرًا، فقوله ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ يدل بداهة أن اللَّه ﷻ يعلمه على استيفاء نوعيه كليهما، أما الراسخون فيعلمون النوع الثاني، ودخلوا بالعطف في علم المتشابه.

والكلام بذلك مستقيم على لغة العرب كأن تقول: ما قام لنَصْري إلَّا فلان وفلان، وأحدهما نصرك بأن ضارب معك، والآخر أعانك بكلام فقط.

مما سبق يتَّضح أن أصحاب الزعم القائل بأنَّ المتشابه في القرآن لا جدوى منه؛ لأنه لا يعلمه أحدٌ من الناس - غير مُسلَّم به، وعلى فرض التسليم به، فهو محصور في أمور لا يضر الجهل بها ولا ينفع العلم بها كأمر الروح، وموعد قيام الساعة، وكيفية الاستواء، وما شابه ذلك.

● الحكمة من وجود المتشابه في القرآن الكريم:

ذكر العلماء حِكَمًا كثيرة لوجود المتشابه في القرآن، من أهمها ما يلي:

- أنَّ في خفاء بعض آياته وعجز البشر عن الوصول إلى حقيقتها القطعية ما يُقلِّلُ من غرور الإنسان وكبريائه.

- الحثُّ على تحصيل العلم وسبر أغواره حتى يصل الإنسانُ إلى إدراكِ أكبرِ قدرٍ من الحقائق وليتحرَّى العلمَ ويتحرَّر من الجهل والتَّقليد.

- بيان فضل العالِم على الجاهِل، ولو فَهِمَ جميعُ الخلق القرآنَ الكريم على حدٍّ سواء لاستوى العالِمُ والجاهل، وبطَل التفاضل بين الناس، وهذا خلاف ما فطر اللَّه عليه الخلائق والنفوس من تفضيل بعضها على بعض.

- إقامة الحُجَّة على الخلق، وإثبات الإعجاز لهذا الكتاب العظيم حيث يجهلُ العلماءُ بعض ما فيه مع أنه كلامٌ صِيغَ من الحروف التي يتكلمون بها، وبالعربية التي يتفاصحون ببيانها.

- كما أن في ذِكْر المتشابه الذي استأثر اللَّه بعلمه ابتلاءٌ واختبارٌ للبشر ليظهر مدى إيمانهم بالغيب الذي يُخْبر اللَّه عنه، ولا مجال للعقل للوقوف على حقيقته وكنهه من كل وجه، والإيمان بالغيب أساسٌ متين من أسس العقيدة الإسلامية، وبه يتميَّز المؤمن من الكافر، والعاقلُ عن البهيم الذي لا يؤمن إلَّا بِما يراه بصره.

وبعد، يتبين لنا من هذا الطرح أن الزعم الذي توهمه بعضهم من عدم وجود فائدةٍ من المتشابه في القرآن ـ زعم باطلٌ ولا أساس له من الصحة، وإنما هو مَحْضُ افتراء أدَّى إليه عدم مطالعة كتب التفسير، وعدم الوقوف على أقوال أهل العلم وأصحاب الخبرة[١].

● ادِّعاء وجود أخطاء إملائية في القرآن الكريم:

يدعي بعضهم أن القرآن الكريم يشتمل على أخطاء إملائية، ومن ذلك قول اللَّه تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ

(١) البرهان ٢/٦٨ - ٧٦

شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ (التحريم: ١٠). والصواب - في ظنهم - أن يُقال (امرأة) بالتاء المربوطة.

وما ظنُّوه خطأً إملائيًا، إنَّما يعود إلى طبيعة وخصوصية الرسم العثماني للمصحف الشريف؛ فإن للرسم العثماني خصوصيات تختلف عمَّا تعَارف عليه الناس في الكتابة العادية، ومن ذلك كلمات مثل "الرحمن"، "ملك يوم الدين"، و"العلمين"، وكلمة "الحياة" تُكتب في الرسم العثماني هكذا "الحيوة"، ومن ذلك كتابة التاء المربوطة تاءً مفتوحة، وخاصة إذا كانت في كلمة مضافة إلى اسم بعدها كما في الآية التي استشهدوا بها، وكما في قول اللَّه ﷻ: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: ٥٦).

وكلمة "امرأت" مُدَّتْ تاؤُها في سبعة مواضع، وقبضت تاؤها في أربعة مواضع، فالمواضع التي مدت فيها التاء هي:

- ﴿ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ (آل عمران: ٣٥).
- ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ (يوسف: ٣٠).
- ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ﴾ (يوسف: ٥١).
- ﴿ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ (القصص: ٩).
- ﴿ٱمْرَأَتَ نُوحٍ﴾ (التحريم: ١٠).
- ﴿وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ (التحريم: ١٠).
- ﴿ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ (التحريم: ١١).

ولو كانت هذه الكلمات من قبيل الخطأ لكان من السهل تصويبها، ولَمَا تُركت هكذا، ولكن لذلك الرسم حكمة؛ فهذه الأسماء لَمَّا لازمت الفعل، صار لها اعتباران: أحدُهما من حيث

هي أسماء وصفات، وهذا تُقبَض منه التاء. والثاني من حيث أن يكون مقتضاها فعلًا وأثرًا ظاهرًا في الوجود، فهذا تُمَدُّ فيه كما تُمَدُّ فى: "قالت" و"حقت". وجهة الفعل والأمر ملكيَّة ظاهرة، وجهة الاسم والصفة ملكوتية باطنة.

وقد مُدَّت التاء من كلمة (امرأة) في المواضع المذكورة تنبيهًا على فعل التبعُّل والصحبة وشدة المواصلة والمخالطة والائتلاف في الموجود والمحسوس. فأربع من هؤلاء النساء كنَّ منفصلات في بواطن أمرهنّ عن بعولتهن بأعمالهن: واحدة واصلت بعلها باطنًا وظاهرًا، وهي امرأت عمران، فجعل اللَّه لها ذرِّية طيبةً، وأكرمها بذلك وفَضَّلها على العالمين. وواحدة انفصلت بباطنها عن بعلها طاعة للَّه وتوكُّلا عليه وخوفًا منه، فنجاها وأكرمها، وهي امرأت فرعون. واثنتان منهنَّ (امرأة نوح، وامرأت لوط) انفصلتا عن أزواجهما كفرًا باللَّه فأهلكهما اللَّه ودمَّرهما، ولم ينتفعا بالوصلة الظاهرة؛ مع أنها أقربُ وصلة بأفضل أحباب اللَّه. كما لم تَضُرَّ امرأةَ فرعون وصلتُها الظاهرة بأخبث عبيد اللَّه. وواحدة انفصلت عن بعلها بالباطن اتِّباعًا للهوى وشهوة نفسها، فلم تبلغ من ذلك مرادها، مع تَمكُّنها من الدنيا واستيلائها على من مالت إليه بحبها وهو في بيتها وقبضتها، فلم يُغْنِ ذلك عنها شيئًا، وقوتُها وعزتُها إنما كانا لها من بعلها "العزيز"، ولم ينفعها ذلك في الوصول إلى إرادتها مع عظيم كيدها، كما لم يضر يوسفَ ما امتُحِن به منها، ونَجَّاه اللَّه من السجن، ومكَّن له في الأرض، وذلك بطاعته لربه، ولا سعادة إلا بطاعة اللَّه، ولا شقاوة إلا بمعصيته، فهذه كلُّها عِبَر وَقَعَت بالفعل في الوجود، في شأن كل امرأة منهن، فلذلك مُدَّت تاءاتهن[١].

(١) البرهان ١/ ٤١٠ - ٤١٦ (بتصرف وإيجاز).

بينما قُبِضَتْ التاء من كلمة (امرأة) في أربعة مواضع جاءت الكلمة فيها غير مضافة، وذلك في الآيات التالية:

- ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَٰلَةً أَوِ ٱمْرَأَةٌ وَلَهُۥٓ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ﴾ (النساء:١٢).

- ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا﴾ (النساء: ١٢٨).

- ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ (النمل: ٢٣).

- ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ﴾ (الأحزاب: ٥٠).

ففي هذه المواضع الأربعة كتبت (امرأة) بالتاء المربوطة، حيث إنها دالّة في هذه المواضع على الوصفية، فهي تنتمي إلى الملكوتية الباطنة. على النقيض من المواضع السبعة المذكورة التي رسمت فيها الكلمة بالتاء المفتوحة (امرأت)؛ وذلك لدلالتها على الفِعْلية، وهي مِلْكِيَّة ظاهرة لها أثرها في الوجود؛ ففُتِحَتْ تاؤها للدلالة على هذا الظهور.

هكذا يتبيَّن لكلٍّ ذي عقل وبصر أن القرآن الحكيم مُنَزَّه عن الخطأ، بالغ ذروة الكمال: في لغته، وبلاغته، وسُمُوِّ معانيه، وإعجازه الباقي على وجه الدهر، وفي كل ما يتَّصِلَ به من: القراءات، وطرق الرسم الإملائي الخاصة به، وغير ذلك مِمَّا اشرنا إليه، ولا يزال القرآن كنزًا تتفجَّر منه العلوم والأسرار لمن أطال التأمُّل وأحسن التفكُّر والاعتبار:

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾﴾ (ق:٣٧).

قالوا عن القرآن[١]

(١)

"لقد قمتُ أولًا بدراسة القرآن الكريم، وذلك دون أيِّ فكر مسبق، وبموضوعية تامة، باحثًا عن درجة اتفاق نصّ القرآن ومعطيات العلم الحديث، وكنتُ أعرف ـ قبل هذه الدراسة عن طريق الترجمات ـ أن القرآن يذكر أنواعًا كثيرة من الظواهر الطبيعية، ولكن معرفتي كانت وجيزة، وبفضل الدراسة الواعية للنصّ العربي استطعت أن أحقق قائمة أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث. وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأناجيل. أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلي أبعد من الكتاب الأول، أي سفر التكوين، فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخًا في عصرنا. وأما بالنسبة للأناجيل... فإننا نجد نص إنجيل مَتَّي يناقض بشكل جليٍّ إنجيل لوقا، وأن هذا الأخير يقدم لنا صراحة أمرًا لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقِدَم الإنسان على الأرض.

لقد أثارت الجوانب العلمية التي يختص بها القرآن دهشتي العميقة في البداية، فلم أكن اعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلي هذا الحدّ من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع ومطابقته

---

(١) مقتبسات من كتاب "قالوا عن القرآن"، د. عماد الدين خليل، والكتاب يعرض العديد من أقوال علماء وأدباء ومفكري الغرب، منهم من أسلم، ومنهم من لم يُسلم.

تمامًا للمعارف العلمية الحديثة، ذلك في نصٍّ كُتب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنًا. في البداية لم يكن لي أيَّ إيمان بالإسلام، وقد طرقت دراسة هذه النصوص بروح متحررة من كل حكم مسبق وبموضوعية تامة. . تناولت القرآن منتبهًا بشكل خاص إلي الوصف الذي يعطيه عن حشد كبير من الظواهر الطبيعية. لقد أذهلتني دِقَّة بعض التفاصيل الخاصة بهذه الظواهر، وهي تفاصيل لا يمكن أن تدرك إلا في النص الأصلي. أذهلتني مطابقتها للمفاهيم التي نملكها اليوم عن نفس هذه الظاهرات، والتي لم يكن ممكنًا لأي إنسان في عصر محمد ﷺ أن يُكَوِّن عنها أدنى فكرة. .

كيف يمكن لإنسان - كان في بداية أمره أُمِّيًا - أن يصرح بحقائق ذات طابع علمي لم يكن في مقدور أيِّ إنسان في ذلك العصر أن يُكَوِّنها، وذلك دون أن يكشف تصريحه عن أقل خطأ من هذه الوجهة؟" .

د. موريس بوكاي Maurice Bucaille: الطبيب والعالم الفرنسي المعروف.

(٢)

"ابتعتُ نسخة من ترجمة سافاري الفرنسية لمعاني القرآن وهي أغلي ما أملك. فلقيت من مطالعتها أعظم متعة وابتهجت بها كثيرًا، حتى غدوت وكأن شعاع الحقيقة الخالد قد أشرق على بنوره المبارك" .

وليم بيرشل بيكارد: W. B. Beckard: كاتب إنجليزي مشهور، تخرج من كانتربوري، أعلن إسلامه عام ١٩٢٢م.

(٣)

"إن الأسلوب القرآني مختلف عن غيره، ثم إنه لا يقبل المقارنة بأسلوب آخر، ولا يمكن أن يقلّد. وهذا في أساسه، هو إعجاز

القرآن. . فمن جميع المعجزات كان القرآن المعجزة الكبرى.

إن إعجاز القرآن لم يَحُلْ دون أن يكون أثره ظاهرًا على الأدب العربي. أما إذا نظرنا إلي النسخة التي نقلت في عهد الملك "جيمس" من التوراة والإنجيل وجدنا أن الأثر الذي تركته على اللغة الإنجليزية ضئيل، بالإضافة إلي الأثر الذي تركه القرآن على اللغة العربية. إن القرآن هو الذي حفظ اللغة العربية وصانها من أن تتمزق للهجات".

د. فيليب حتى: P. Hitti ولد عام ١٨٨٦م، لبناني الأصل، أمريكي الجنسية، تخرج من الجامعة الأمريكية في بيروت (١٩٠٨م)، عُيِّنَ رئيسًا لقسم اللغات والآداب الشرقية (١٩٢٩ - ١٩٥٤م).

(٤)

"إنه لا بدّ من الإقرار بأن القرآن ـ فضلًا عن كونه كتاب ـ دين وتشريع، فهو أيضًا كتاب لغة عربية فصحى. وللغة القرآن الفضل الكبير في ازدهار اللغة، ولطالما يعود إليه أئمة اللغة في بلاغة الكلمة وبيانها، سواء كان هؤلاء الأئمة مسلمين أم مسيحيين. وإذا كان المسلمون يعتبرون أن صوابيّة لغة القرآن هي نتيجة محتومة لكون القرآن مُنزَّلًا ولا يحتمل التخطئة؛ فالمسيحيون يعترفون أيضا بهذه الصوابيَّة، بقطع النظر عن كونه منزَّلًا أو موضوعًا، ويرجعون إليه للاستشهاد بلغته الصحيحة كلما استعصي عليهم أمر من أمور اللغة".

د. جون حنّا: Hanna John مسيحي من لبنان، ينطلق في تفكيره من رؤية ماديَّة طبيعية صِرفة، كما هو واضح في كتابه المعروف (قصة الإنسان).

المصادر والمراجع

١) الإتقان في علوم القرآن/ السيوطي . ـ مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٩٩٦م.

٢) أدب الكاتب/ ابن قتيبة؛ تحقيق محمد الدالي. ـ ط٢ . ـ بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦م.

٣) أساس البلاغة/ الزمخشري . ـ بيروت: دار صادر، ١٩٧٩م.

٤) أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية/ حسن طبل. . ـ القاهرة: دار الفكر العربي، ١٩٩٨م.

٥) الأشباه والنظائر في القرآن الكريم/ مقاتل بن سليمان البلخي؛ تحقيق عبد الله شحاتة . ـ ط٢ . ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤م.

٦) الاشتراك والتضاد في القرآن الكريم: دراسة إحصائية/ أحمد مختار عمر. . ـ القاهرة: عالم الكتب، ٢٠٠٣م.

٧) إصلاح المنطق/ ابن السكيت؛ تحقيق عبد السلام محمد هارون . ـ ط٢ . ـ القاهرة: دار المعارف، ١٩٥٦م.

٨) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق: دراسة قرآنية لغوية وبيانية/ عائشة عبد الرحمن. ـ ط٢، مزيدة ومنقحة. ـ القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٤م.

٩) إعجاز القرآن/ الباقلاني؛ تحقيق عماد الدين أحمد حيدر . . ـ بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ١٩٨٦م.

١٠) إعجاز القرآن البيانى: بين النظرية والتطبيق/ حفني محمد شرف. ـ القاهرة: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ـ اللجنة العامة

للقرآن والسنة، ١٩٧٠م.

١١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية/ مصطفى صادق الرافعي. ـ ط٩ . ـ بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧٣م.

١٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: المعروف بتفسير البيضاوى/ البيضاوي . ـ بيروت: دار الجيل، ١٣٢٩ هـ = ١٩١٢م.

١٣) الإيضاح/ الخطيب القزويني . ـ بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٨م.

١٤) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد/ ابن عجيبة؛ تحقيق وتعليق أحمد عبد اللّه القريش رسلان. ـ القاهرة: مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م.

١٥) البرهان في علوم القرآن/ الزركشي؛ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . ـ القاهرة: مكتبة دار التراث، ١٩٥٧م.

١٦) البيان في روائع القرآن: دراسة لغوية وأسلوبية للنص القرآنى/ تمام حسان . ـ القاهرة: عالم الكتب، ١٩٩٣م.

١٧) تاريخ القرآن/ عبد الصبور شاهين . ـ القاهرة: دار القلم، ١٩٦٦م.

١٨) تاريخ موجز للزمان: من الانفجار الكبير إلى الثقوب السوداء/ ستيفن هوكنج؛ ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م.

١٩) تأويل مشكل القرآن/ ابن قتيبة؛ شرحه ونشره السيد أحمد صقر. ـ ط٣ . ـ بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨١م.

٢٠) تفسير أبي السعود: المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم/ أبو السعود العمادي . ـ ط١ . ـ بيروت: دار إحياء

التراث العربي، ١٩٨٣م.

٢١) تفسير البغوي: المسمى معالم التنزيل/ البغوي؛ تحقيق خالد عبد الرحمن العك، مروان سوار. ـ ط١ . ـ بيروت: دار المعرفة، ١٩٨٦م.

٢٢) تفسير البحر المحيط/ أبو حيان الأندلسي الغرناطى. ـ ط٢ . ـ [د.م]: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٣م.

٢٣) تفسير التحرير والتنوير/ محمد الطاهر بن عاشور. ـ تونس: الدار التونسية للنشر؛ الجماهيرية العربية الليبية: الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان، [ــ ١٩م].

٢٤) تفسير الخازن: المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل/ الخازن. ـ ط٢ . ـ القاهرة: شركة ومكتبة البابي الحلبي وأولاده، ١٩٥٥م.

٢٥) تفسير الفخر الرازى: المشهور بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب/ الفخر الرازي . ـ ط٣ . ـ بيروت: دار الفكر، ١٩٨٥م.

٢٦) تفسير القرآن العظيم/ ابن كثير القرشي . ـ بيروت: عالم الكتب، ١٤٠٥هـ =١٩٨٥م.

٢٧) التفسير القيم/ ابن القيم . ـ بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٤٨م.

٢٨) تفسير النسفي: المسمى مدارك التنزيل وحقائق التأويل/ النسفي؛ تحقيق سيد زكريا . ـ الرياض: مكتبة نزار الباز، ٢٠٠٠م.

٢٩) تهذيب اللغة/ الأزهري؛ تحقيق عبد السلام محمد هارون ... [وآخ] . ـ القاهرة: المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، ١٩٦٤م.

٣٠) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني والخطابي وعبد القاهر

الجرجاني: في الدراسات القرآنية والنقد الأدبي/ حققها وعلق عليها محمد خلف الله، محمد زغلول سلام. ـ ط٣ . ـ القاهرة: دار المعارف، ١٩٧٦م.

٣١) الجامع لأحكام القرآن/ القرطبي . ـ ط٢ . ـ القاهرة: دارالكتب المصرية، ١٩٥٢م.

٣٢) جسد الإنسان والتعبيرات اللغوية: دراسة دلالية ومعجم/ محمد محمد داود . ـ القاهرة: دار غريب، ٢٠٠٧م.

٣٣) حاشية الصبان شرح الأشموني على ألفية ابن مالك/ الصبان. ـ المنصورة: مكتبة الإيمان، [ـ ١٩]م.

٣٤) حقائق الإسلام في مواجهة شبهات المشككين/ إشراف وتقديم محمود حمدي زقزوق. ـ ط٢ . ـ القاهرة: وزارة الأوقاف . ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، ٢٠٠٤م.

٣٥) الخصائص/ ابن جني؛ تحقيق محمد علي النجار . ـ ط٣، مزيدة ومنقحة . ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م.

٣٦) الدر المصون/ السمين الحلبي. ـ القاهرة: دار الفكر، ١٩٨٣م.

٣٧) الدفاع عن القرآن ضد منتقديه/ عبد الرحمن بدوي . ـ القاهرة: مكتبة مدبولي الصغير، ١٩٩٨م.

٣٨) ديوان الأدب/ الفارابي؛ تحقيق أحمد مختار عمر . ـ ط١ . ـ القاهرة: مجمع اللغة العربية، ١٩٧٥م.

٣٩) الرد على أخطاء إلهية في القرآن/ إعداد مجموعة علماء من مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف . ـ القاهرة: دار السعادة، ٢٠٠٣م.

٤٠) رسم المصحف: دراسة لغوية تاريخية/ غانم قدوري الحمد . ـ بغداد: اللجنة الوطنية للاحتفال بمطابع القرن الحادي عشر الهجري ، ١٩٩٣م.

٤١) رسم المصحف والاحتجاج به في القراءات/ عبد الفتاح إسماعيل شلبي . ـ القاهرة: مكتبة نهضة مصر، ١٩٦٠م .

٤٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني/ الألوسي. ـ القاهرة . ـ ط٥، منقحة ومصححة. ـ بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٣م.

٤٣) زاد المسير في علم التفسير/ ابن الجوزي . ـ ط١ . ـ دمشق: المكتب الإعلامي، ١٩٦٤م.

٤٤) سنريهم آياتنا في الآفاق: الإسلام يتحدى/ وحيد الدين خان؛ تعريب ظفر الدين خان؛ مراجعة وتحقيق عبد الصبور شاهين. ـ بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١م.

٤٥) شرح التسهيل / ابن مالك؛ تحقيق عبد الرحمن السيد ، محمد بدوي المختون . ـ ط١ . ـ القاهرة : دار هجر ، ١٩٩٠م .

٤٦) شرح الكافية / الرضي الأستراباذي . ـ بيروت : دار الكتب العلمية ، [ـ ١٩م] .

٤٧) الصاحبي في فقه اللغة العربية وسنن العرب في كلامها/ ابن فارس؛ شرح وتحقيق السيد أحمد صقر . ـ القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠٣م.

٤٨) الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية/ الجوهري ؛ تحقيق أحمد عبد الغفور عطا . ـ القاهرة: دار الكتاب العربي ، ١٩٥٦م.

٤٩) صحيح مسلم بشرح النووي / النووي . ـ القاهرة : دار الفكر ، ١٩٨١م .

٥٠) صفوة التفاسير/ الصابوني. ـ سوريا: دار الرشيد، ١٣٩٩هـ =١٩٧٩م.

٥١) الظاهرة القرآنية/ مالك بن نبي؛ ترجمة عبد الصبور شاهين . ـ دمشق: دار الفكر، ١٩٨٥م.

٥٢) العربية وعلم اللغة الحديث/ محمد محمد داود. ـ القاهرة: دار غريب، ٢٠٠٢م.

٥٣) علم الدلالة بين النظرية والتطبيق/ أحمد نعيم الكراعين. ـ بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ١٩٩٣م.

٥٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري/ ابن حجر العسقلاني؛ شرح وتحقيق محب الدين الخطيب . ـ القاهرة: دار الريان للتراث، ١٩٨٦م.

٥٥) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية / الجمل. ـ القاهرة: دار المنار للنشر والتوزيع،[ـ١٩٧]م.

٥٦) فكرة الزمان عبر التاريخ/ مجموعة من العلماء؛ تحرير كولن ويلسون، جون جرانت؛ ترجمة فؤاد كامل . ـ الكويت، [ـ١٩م].

٥٧) الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان/ ابن القيم . ـ بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٨٢م.

٥٨) في ظلال القرآن/ سيد قطب . ـ ط١٣، جديدة . ـ القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٧م.

٥٩) في علم الدلالة: دراسة تطبيقية في شرح الأنباري للمفضليات/ عبد الكريم محمد حسن جبل. ـ الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٧م.

٦٠) قالوا عن القرآن/ عماد الدين خليل . ـ [د.م]: مكتبة مشكاة الإسلامية، ١٤٢٥هـ .

٦١) نسخة إلكترونية (رقمية) من موقع http://www.almeshkat.net

٦٢) القاموس المحيط/ الفيروز آبادي. ـ بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٦م.

٦٣) القرآن الكريم وتفاعل المعاني: دراسة دلالية لتعلق حرف الجر بالفعل وأثره في المعنى في القرآن الكريم/ محمد محمد داود . ـ القاهرة: دار غريب، ٢٠٠٢م.

٦٤) القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث/ عبد الصبور شاهين . ـ القاهرة: مكتبة الخانجي ، ١٩٦٦م.

٦٥) القراءات وأثرها في علوم العربية/ محمد سالم محيسن. ـ القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية، ١٩٨٤م.

٦٦) الكتاب: كتاب سيبويه/ سيبويه . ـ ط٢ . ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م.

٦٧) كتاب الأمالي/ أبو علي القالي . ـ بيروت: دار الآفاق الجديدة، [١٩ ـ]م.

٦٨) كتاب دلائل الإعجاز/ الجرجاني ؛ قرأه وعلّق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر . ـ القاهرة : مكتبة الخانجي للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨٤م.

٦٩) كتاب الفقه على المذاهب الأربعة/ عبد الرحمن الجزيري. ـ القاهرة: دار الإرشاد للتأليف والطبع والنشر، [١٩٧ـ] م.

٧٠) كتاب نظام الغريب في اللغة/ الربعي . ـ ط٢ . ـ القاهرة: مؤسسة الكتب الثقافية، ١٩٨٧م.

٧١) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل/ الزمخشري . ـ بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٣م.

٧٢) كشف المعاني في متشابه المثاني/ ابن جماعة؛ حققه محمد محمد داود . ـ القاهرة: دار المنار للنشر، ١٩٩٨م.

٧٣) لسان العرب/ ابن منظور. ـ بيروت: دار صادر، ١٩٩٤م.

٧٤) المأثور من اللغة/ أبو العميثل الأعرابي؛ تحقيق محمد عبد القادر أحمد . ـ القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ١٤٠٨هـ= ١٩٨٨ م.

٧٥) مباحث في علوم القرآن /مناع القطان. ـ ط٧ . ـ القاهرة: مكتبة وهبة، ١٤١٠هـ=١٩٩٠م.

٧٦) المثل السائر/ ابن الاثير؛ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . ـ بيروت : المكتبة العصرية، ١٩٨٨م.

٧٧) المجاز في اللغة وفي القرآن الكريم بين مجوِّزيه ومانعيه/ عبد العظيم إبراهيم المطعني. ـ القاهرة: مطبعة حسان، ١٩٨٥م.

٧٨) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز/ ابن عطية . ـ ط١ . ـ الدوحة: رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية، ١٩٩١م.

٧٩) مذاهب التفسير الإسلامي/ إجنتس جولدتسهير؛ ترجمة عبد الحليم النجار . ـ ط٥ . ـ بيروت: دار إقراء، ١٤١٣هـ = ١٩٩٢م.

٨٠) المزهر في علوم اللغة وأنواعها / السيوطي ؛ شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته محمد أحمد جاد المولى ، محمد أبو الفضل إبراهيم ، علي محمد البجاوي . ـ بيروت : منشورات المكتبة العصرية ، ١٩٨٦م.

٨١) معاني القرآن/ الفراء ؛ تحقيق أحمد يوسف نجاتي، محمد علي النجار . ـ ط٢ . ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م.

٨٢) معاني القرآن وإعرابه/ الزجاج؛ تحقيق وشرح عبد الجليل عبده

شلبي؛ خرج أحاديثه علي جمال الدين محمد . ـ القاهرة: دار الحديث، ١٤١٤هـ= ١٩٩٤م.

٨٣) معجم القراءات/ عبد اللطيف الخطيب . ـ ط١ . ـ دمشق؛ القاهرة: دار سعد الدين، ٢٠٠٢ .

٨٤) المعجم الوسيط/ قام بإخراجه إبراهيم أنيس . . . [وآخ]؛ إشراف حسن علي عطية، محمد شوقي أمين. ـ ط٢ . ـ القاهرة: مجمع اللغة العربية، [ـ ١٩٨]م.

٨٥) مغني اللبيب عن كتب الأعاريب/ ابن هشام؛ حققه وفصله وضبط غرائبه محمد محيي الدين عبد الحميد. ـ القاهرة: مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده، [ـ ١٩] م.

٨٦) المفردات في غريب القرآن/ الراغب الأصفهاني؛ تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني. ـ بيروت: دار المعرفة، [ـ ١٩] م.

٨٧) المفهوم الحديث للزمان والمكان/ ب. س. ديفيز؛ ترجمة السيد عطا . ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٨م.

٨٨) مقاييس اللغة/ ابن فارس؛ تحقيق عبد السلام محمد هارون. ـ ط١ . ـ بيروت: دار الجيل، ١٩٩١م.

٨٩) من بلاغة القرآن/ أحمد أحمد بدوي. ـ القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ١٩٧٨م.

٩٠) من روائع القرآن/ محمد سعيد رمضان البوطي . ـ ط، مزيدة ومنقحة. ـ دمشق: مكتبة الفارابي، ١٣٩٥هـ=١٩٧٥م.

٩١) مناهل العرفان في علوم القرآن/ محمد عبد العظيم الزرقاوي . ـ مكة المكرمة: مكتبة نزار مصطفى الباز، ١٤١٧هـ=١٩٩٦م.

٩٢) مولد الزمان: كيف قاس علماء الفلك عمر الكون؟/ جون

جريبن؛ ترجمة مصطفى إبراهيم فهمي . ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م.

٩٣) النبأ العظيم: نظرات جديدة في القرآن/ محمد عبد اللَّه دراز . ـ ط٤ . ـ [القاهرة]: دار القلم، ١٩٧٧م.

٩٤) النشر في القراءات العشر/ ابن الجزري . ـ بيروت: دار الكتب العلمية، [ــ ١٩] م.

المحتويات

بحمد الله تعالى

كل نفس ذائقة الموت
وإلى اللَّه المرجع والمآب

بسم اللَّه الرحمن الرحيم، والحمد للَّه، والصلاة والسلام على رسول اللَّه، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه.

(وبعد) فإني أشهد أنْ لا إله إلا اللَّه، وأن القرآن كتاب اللَّه، وأن سُنَّة المصطفى ﷺ وحي إليه من رب العالمين. رضيت باللَّه تعالى ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبسيدنا محمد ﷺ نبيًّا ورسولًا.

وأرجو من كل مُحِبٍّ صادق وفيٍّ إذا ذكرني (وقد انقضى الأجل) أن يدعو اللَّه تعالى لي بالرحمة والغفران، وأن يَمُنَّ عليَّ بالعفو والإكرام، وهو ـ تعالى ـ العفو الرءوف الكريم المنَّان. ثم يصلِّي ويسلِّم على سيِّدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان. والسلام.

هذا ما يرجوه من مُحِبِّيه الكرام العبدُ الفقير راجي عفو ربه الرءوف:

محمد داود

كتب للمؤلف

● أولًا: لغويات (دار غريب):

١- القرآن الكريم وتفاعل المعاني: دراسة دلالية لتعلق حرف الجر بالفعل وأثره في المعنى في القرآن الكريم.

٢- الدلالة والحركة: دراسة دلالية لأفعال الحركة في العربية المعاصرة في إطار المناهج الحديثة.

٣- الدلالة والكلام: دراسة تأصيلية لألفاظ الكلام في العربية المعاصرة في إطار المناهج الحديثة.

٤- معجم التعبير الاصطلاحي في العربية المعاصرة.

٥- معجم ألفاظ الكلام في العامية المعاصرة.

٦- العربية وعلم اللغة الحديث.

٧- الصوائت والمعنى في العربية.

٨- اللغة والسياسة في عالم ما بعد ١١ سبتمبر.

٩- حرب الكلمات في الغزو الأمريكي للعراق.

١٠- دموع الشوباشي بين يدي سيبويه (طبعة خاصة).

١١- اللغة وكرة القدم.

١٢- جسد الإنسان والتعبيرات اللغوية: دراسة دلالية ومعجم.

١٣- استدراك ما فات على المعجم الوسيط.

١٤- المعجم الوسيط واستدراكات المستشرقين.

● **ثانيًا: في مجال تحقيق التراث (دار المنار):**

١٥- كشف المعاني في متشابه المثاني (ابن جماعة).

١٦- شرح كافية ابن الحاجب (ابن جماعة).

١٧- متشابهات القرآن الكريم (الكسائي).

١٨- معجم الألفاظ القرآنية (القليبي).

١٩- المختار من مدائح المختار ﷺ (الصرصري).

٢٠- مختصر المنهل العذب المورود شرح سنن الإمام أبي داود (للإمام محمود خطاب السبكي).

٢١- تحية الوداع (للأديب الراحل كامل كيلاني).

٢٢- في حمى الرحمن (للشاعر المحب خالد أبو العينين) [دار الشروق].

● **ثالثًا: في مجال الدعوة الإسلامية (دار المنار):**

٢٣- من أدب الدعوة.

٢٤- الإسلام والزمن المقبل.

٢٥- شفاء.

٢٦- آلام أمة بين القدس وغدر اليهود.

٢٧- مواقف وعبر (خمسة أجزاء فى مجلد).

٢٨- موعظة البقاع الشريفة بمكة والمدينة.

٢٩- القرآن وصحوة العقل.

٣٠- الملاذ الآمن.

هذا الكتاب

شعاع ضوء يكشف ما أثير حول القرآن الكريم من شبهات لغوية ، مجيبًا عن الأسئلة التالية :

- ما حقائق التحدي القرآني الخالد ؟!
- ما أسرار الهجوم على القرآن الكريم ؟!
- ما سر انتصار القرآن الكريم فكريًّا على الرغم من هزائم المسلمين والعرب في العصر الحاضر ؟!
- كيف يزداد القرآن الكريم قوة وتألقًا كلما زاد الهجوم عليه ؟!
- كيف انهارت الشبهات وتهاوت الافتراءات ؟!
- ما حقيقة كمال اللغة القرآنية ومنتهى تمامها عند الخصوم ؟!
- هل القرآن الكريم مثالٌ لعربية بلا شوائب ؟!
- أيهما يحكم على الآخر : العربية أم القرآن ؟!

رقم الإيداع بدار الكتب : ٢٤٢٥٦ / ٢٠٠٧

الترقيم الدولي: I.S.B.N. 977-295-191-6